الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العدد الرابع والخمسون. السنة الخامسة. يوليو ٢٠٠٣. الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 54 - July 2003

محمد حسنين هيكل

صناعة القرار الأمريكى .. الآن!



«أنتِ بيروت»
«أنتِ لى»
رنا حايك

حروب
السوبر ماركت !
تيم لانج

«خريطة» أمريكية
«طريق» إسرائيلى !
أيمن الصياد

حوار الحضارات
على أرض المغرب
سلامة أحمد سلامة

بعد احتلال العراق :
مستقبل
النظام العربى
أحمد يوسف أحمد

الأهلى والزمالك
ظاهرة رياضية
اجتماعية سياسية !
حسن المستكاوى

عن التعليم والحريّات
والخصوصية والأمل
«قراءة فيما جرى !»
يحيى الرخاوى

السنة الخامسة

العدد الرابع والخمسون

يوليو ٢٠٠٣

الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن: الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- احمد يوسف أحمد.. مدير معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية
- أيمن الصياد .. صحفي.
- تيم لانج.. أستاذ السياسة الغذائية بجامعة سيتي
- جوانا بليتمان.. صحفية بريطانية
- حسن المستكاوي.. صحفي.
- رنا حايك .. صحفية لبنانية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- عبد العليم الأبيض.. الوزير المفوض الإعلامي في واشنطن سابقاً.
- فتح الله الشيخ .. أستاذ علم الطبيعة بجامعة جنوب الوادي.
- محمد حسنين هيكل .. صحفي.
- محمود عبد الفضيل .. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- محمود الورداني .. روائي وصحفي.
- يحيى الرخاوي.. أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجي . سعد الدين شحاتة . محمد حاكم

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٢ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري . ص . ب : ٣٢ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية . السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٢٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير . اليمن ٣٠٠ ريال . فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــة..

أمريكا ـ العراق ـ فلسطين

■■ سيظل مثيرًا للانتباه ما تحرص الإدارة الأمريكية على ترديده فى كل مناسبة من أن «الانتصار الأمريكى على العراق قد أوجد فرصة هائلة لإحلال السلام فى الشرق الأوسط». (كوندليزا رايس ٥/١٥)، فحسب المتواتر من أخبار النصف الثانى من القرن العشرين لم يكن العراق يومًا عقبة «حقيقية» على طريق السلام «المفترض» هذا. اللهم إلا إذا كان هناك من يريد أن يذكرنا بأيام السادات وقمة بغداد (١٩٧٨) وكل هذا قد بات فعليًا فى ذمة التاريخ منذ زمن طويل. ولم يبق منه غير ذكرى عنتريات جوفاء بعد أن انشغلت بغداد. أو شُغِلَتْ. وشَغَلَتْ معها العرب جميعًا بحرب «الفرس» تارة وبالـ «المحافظة التاسعة عشرة» تارة أخرى قبل أن تدخل مكبلة بالديكتاتورية سجنًا أمريكيًا إضافيًا من الحصار والتجويع، لم يرحم طفلاً ولا مريضًا، لإثنى عشر عامًا كاملة.

هل هذا هو العراق الذى يريد الأمريكيون أن يفهمونا أنه كان العقبة فى طريق السلام.. وعلينا أن نتفاءل الآن بعد أن سقط تحت الاحتلال ودخل فى دائرة الفوضى لعقد إضافى من الزمان والعذاب؟!

نُذَكِر. ولتصحح لنا السيدة رايس. أن الإسرائيليين هم الذين قصفوا المفاعل العراقى فى حين لم يمَس العراقيون. ولا غيرهم. مفاعل ديمونة بأى أذى (إذا استبعدنا المذكرات الدبلوماسية وحماس الفضائيات ورسوم الكارتون).

هل علينا إذن أن نصدق مستشارة الأمن القومى الأمريكى ونقتنع بأن الطريق إلى السلام صار مفتوحًا وممهدًا بعد أن نجح الأمريكيون فى إزالة «العقبة العراقية الكئود»؟

إن ذلك يعنى ببساطة أن ننسى حقائق الثلاثين عامًا الماضية (والعرب على أية حال ينسون) كما أن علينا أن ننسى (أو نتناسى) مبادرات السلام «الحقيقية» فى السنوات الأخيرة. وأن الذى رفضها أو التف عليها كان الإسرائيليون. وأن الذى تجاهلها أو أجهضها كان الأمريكيون. وآخرها - ولعلها لم تُنس بعد. مبادرة الأمير عبدالله التى تبناها العرب. بمن فيهم العراق الذى كان. على مستوى القمة فى بيروت قبل عامين. ورد عليها شارون (فورًا) باجتياح رام الله.

هل يمكننا إذن. رغم كل ذلك. أن نفهم تصريحات السيدة رايس من ربط بين الاحتلال الأمريكى للعراق والفرصة التاريخية للسلام فى الشرق الأوسط. والذى مافتئت الصحف العربية على تكرارها، مطمئنة شعوبها ربما، إلى أننا فى سبيلنا إلى الحصول على جائزة سقوط بغداد؟!

نعم. فالسيدة صادقةٌ وتعرف ما تعنيه. ويبقى أن نعرف نحن أيضًا. فالمعنى هنا ليس فى بطن الشاعر. بل فى الأوراق المعلنة الرسمية أو شبه الرسمية لمذكرات وتقارير تحمل شعارات لجهات تابعة للإدارة الأمريكية أو لمراكز استراتيجية قريبة منها. تشرح (لمن يقرأ. ثم يدرك. وهم قليل للأسف) الصلة التى تتحدث عنها رايس ولا نريد أن نراها بين احتلال العراق والسلام/ التسوية فى الشرق الأوسط (حسب المفهوم الأمريكى/ الإسرائيلى) وهو الأمر الذى بات واضحًا. رغم غفلتنا أو حاجة بعضنا إلى تجاهله. كما لم يعد فيه جديدٌ يقال (راجع قراءة الأستاذ هيكل لأوراق الإدارة الأمريكية، فى أكثر من عدد لـ«وجهات نظر». وكذا عرض د. عزمى بشارة للمذكرة المقدمة فى يوليو ١٩٩٦ إلى رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو من مُنَظِّرى السياسة الأمريكية الجدد ريتشارد بيرل ودوجلاس فيث ودافيد وارمز. («وجهات نظر» يونيه ٢٠٠٣)

الشأنُ الأمريكى. العراقى. الفلسطينى. الإسرائيلى، أو فلنقل شجونُ العرب وهمومهم فى بداية قرن جديد يعود بهم. رغم أن الأرض تدور حول الشمس حكمًا. إلى تحديات ومشكلات منتصف القرن الماضى، لم يغب عن صفحات هذا العدد من «وجهات نظر».

فالأستاذ هيكل يختتمُ تشريحه للإمبراطورية الأمريكية (كيف ولماذا.. وإلى أين؟) والتى كان قد بدأها بـ«مهمة تفتيش فى الضمير الأمريكى» فى عدد فبراير ٢٠٠٣ (مجموعة المقالات تصدر قريبًا فى كتاب عن الشركة المصرية للنشر العربى والدولى الناشرة لهذه المجلة).

ودكتور يحيى الرخاوى «يَنظر» فيما جرى. ويكتب عن «التعليم.. والحريات.. والخصوصية.. والأمل» مؤكدًا ضرورة الإعداد النفسى لمواجهة من نوع آخر «بعد أن فقدت الجيوش التقليدية قيمتها» ومحذرًا من شيوع الإحساس بأنه «لا فائدة من مقاومة من أى نوع أمام تلك القوة الأسطورية الطاغية». ومعتبرًا أن «الكارثة» إنما كانت أيضًا «كاشفة» لحقيقة ما نحن فيه، وما نحن ذاهبون إليه. إن لم نقف لننظر بحق.. ونتدبر بصدق.

ويكتب دكتور أحمد يوسف أحمد دراسة منهجية عن «مستقبل النظام العربى» الذى بدا أنه قد يكون بعناوينه ومنطلقاته وأُطره أحد ضحايا. إن لم يكن أهم ضحايا. ما جرى.

وليس بعيدًا عن الهموم والشجون.. والحال، العرض الذى يقدمه الدكتور عبدالعليم الأبيض لكتاب «ما بعد الجهاد» للقانونى اليهودى الأمريكى الشاب نوح فيلدمان (٣٢ سنة) والذى كان قد أثار عند صدوره قبل أسابيع. كصاحبه. جدلاً واسعًا بين السياسيين والأكاديميين. والذى اعتبر بعضهم (إدوارد سعيد) اسمه «عنوانًا» على نوع التخطيط الذى يقوم به الأمريكيون للعراق. إذ ذكرت الأنباء أن فيلدمان سيكون المسئول عن إعداد دستور عراقى جديد وأنه خبير لامع فى القانون الإسلامى نشأ يهوديًا محافظًا ودرس العربية منذ أن كان عمره ١٥ سنة. لكنه. يقول سعيد. لم يمارس القانون فى أى بلد عربى، ولم يزر العراق (ذكرت الصحف أن زياراته للمنطقة اقتصرت على زيارات عائلية لأقربائه فى إسرائيل) ويالها من إهانة صريحة، ليس فقط للعراق، بل للألوف من القانونيين العرب والمسلمين الذين يمكنهم القيام بمهمة كهذه خدمة لمستقبل العراق بدلاً من هذا الشاب عديم الخبرة.. «إنه بالتأكيد احتقار ما بعده احتقار» والتعبير للمفكر الفلسطينى والأكاديمى الأمريكى.

وماذا عن الشأن الفلسطينى المتفاعل. دمًا وسياسةً. يومًا بعد يوم؟

الـ «قراءة» هذا العدد هى لصورة صحفية مفعمة بالإيحاءات، ترسم ظِلالُها ربما «الخريطة الأمريكية.. والطريق الإسرائيلى». أو إن شئت فلك أن تبدِّل مواقعَ الصفة والموصوف.. لا فرق.

وجهات نظر

صناعة القرار الأمريكى الآن

محمد حسنين هيكل



أولا: إمبراطورية قطاع خاص؟

تظل الإمبراطورية الأمريكية قضية أساسية تستدعى البحث والدرس، وبعدها فإن ما جرى ويجرى فى العراق طوال الأسابيع الأخيرة ـ عملية ممارسة لقوة هذه الإمبراطورية تثير الألم والوجع، وسوف تظل كذلك حتى يجىء الأوان ويتمالك العالم أعصابه وإرادته ـ لكنه بدون البحث والدرس فى القضية الأساسية فأى تناول للممارسات سطحى، وكل وصفة لعلاجها مهدئ، يدارى عللها ولا يداويها!

وعليه فإن الوقوف أمام المشروع الإمبراطورى الأمريكى سواء فى ذلك نظرياته المتطورة مع الوسائل الحديثة، أو رجاله المتغيرون مع العصور المستجدة ـ هو الذى يشرح ما جرى ويجرى فى العراق (وربما فى غيره)، ويكشف كيف جاء رجال من أمثال «ريتشارد تشينى» (نائب الرئيس الأمريكى الحالى)، و«دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع ومهندس حملة العراق)، و«بول وولفويتز» (مساعد وزير الدفاع) و«ريتشارد بيرل» (رئيس لجنة سياسات الدفاع السابق) ـ فأمسكوا بمفاتيح القرار الأمريكى، ثم فتحوا الأبواب على آخرها واحتلوا واحدة من أغلى العواصم، وأغناها إسهاما فى الثقافة العربية الإسلامية، وأبرزها تأثيرا فى المحيط الحضارى الإنسانى الأوسع والأكبر.

وليس أشد إثارة للملل فى الفكر العربى المعاصر من هؤلاء الذين ينسبون كل وقائع التاريخ إلى تدبير المؤامرة ـ غير أولئك الذين يتوهمون أن الإمبراطورية مبرة خيرية، وأن مطالب الهيمنة دعوة هداية ورشد تشع من البيت الأبيض الأمريكى، أو من وزارة الدفاع (البنتاجون) ـ أو من مقار الشركات العملاقة ـ أو من مراكز الأبحاث والدراسات الاستراتيجية ابتداء من «مجلس العلاقات الخارجية» فى نيويورك وحتى مؤسسة «راند» فى كاليفورنيا.

وداعى الملل أن أصحاب نظرية التاريخ المتآمر، ومعهم أنصار نظرية الهيمنة العذراء ـ كلاهما يثير الغبار والدخان من حول واقع الحال، ومجمله أن العلاقات الدولية صراعات قوى، ومصالح تمارس فعلها بالنار، وتندفع إلى سباق الحياة بأقصى سرعة يسمح بها العقل والعلم، وهى تجرب فرض إرادتها بكل الوسائل ـ علنا وسرا ـ إقناعا وقسرا ـ حربا مكشوفة أو تربصا فى الظلام. وهنا فإن التاريخ يصعب ـ جزافا ـ اعتباره مؤامرة مستمرة، لكنه فى اللحظة نفسها يصعب ـ إطلاقا ـ اعتباره فردوسا للأطهار!

والواقع أن تاريخ الإمبراطوريات يكشف أشياءً، كما أن تجربة هذه الإمبراطورية الأمريكية تضيف إلى الكشف القديم أشياءً أكثر، لأن هذه الأخيرة ظاهرة مستجدة، كما أن صُنّاعها طراز مختلف عمن سبقوهم على نفس الطريق، فلم يحدث من قبل أن اختلطت المشروعات الإمبراطورية الكبرى بالمصالح الشخصية المباشرة كما يحدث فى حالة المشروع الإمبراطورى الأمريكى اليوم، وأول الأسباب أن التجربة الإمبراطورية الأمريكية فى الجانب الرئيسى منها ـ مشروع مالى (شبه خاص!) وهنا اختلافه عما سبقه. ومع التسليم بالعلاقة العضوية بين الإمبراطورية والثروة فإن المشروع الأمريكى غَيَّر ترتيب العلاقة وبدّل تركيبتها، وجاء بأحوال غير مسبوقة فى نشأة الإمبراطوريات وقيامها.

....

....

ليس هناك وطن أو أمة أو دولة تنام فى المساء وتستيقظ فى الصباح، فإذا هى قوة إمبراطورية غالبة، قادرة على تطويع غيرها وحكمه

وهنا يكون مناسبا طرح عدد من البدهيات قبل الاستطراد فى الموضوع:

١ ـ منها أن «الإمبراطورية» حلم لا يقوم على المزاج الشخصى لأمير أو ملك أو رئيس يستهويه أن يسمى نفسه إمبراطورا، (مثل «هيلاسلاسى» الذى اتخذ لقب إمبراطور إثيوبيا (لعموم أفريقيا) فى أوائل القرن العشرين، أو مثل «بوكاسا» الذى قام بوضع تاج على رأسه فى أواخر نفس القرن إمبراطورا على طريقة «نابليون»، فتلك وغيرها من

نزوات البشر) - بل يقوم الحلم الإمبراطورى على ضرورات أمن وطنى، ومطالب صراع دولى، وحوافز سباق نحو التوسع والثروة على اتساع القارات وعبر المحيطات، كما حدث فى التاريخ الحديث مع إمبراطوريات البرتغال وهولندا وأسبانيا وبريطانيا وفرنسا (وغيرها).

٢ . ومنها أن «الإمبراطورية» لا تظهر وتكبر بطريقة عضوية وتلقائية، وإنما تنشأ وتكبر بدرجة من القصد والجهد تتولى تصميم وهندسة المشروع الإمبراطورى، وتقوم على توجيه حركته، لأنه ليس هناك وطن أو أمة أو دولة تنام فى المساء وتستيقظ فى الصباح، فإذا هى قوة إمبراطورية غالبة، قادرة على تطويع غيرها وحكمه، وإنما يتشكل أى مشروع إمبراطورى بضرورات، ومطالب، ووسائل، وأدوات واعية وفاعلة، وحتى إذا بدت نشأة المشروع الإمبراطورى حلما فإن ظهور الحلم - خلافا للوهم - سعيه الدءوب والمقتدر إلى تجاوز الحدود لتحقيق طلبه خطوة واثقة - بعد خطوة واثقة!

٣ . ومنها أن الإمبراطورية فى تلك الأحوال كانت مشروعات كبرى لشعوب وأمم ودول، تحمل بها الأمراء (مثل «هنرى الملاح» فى البرتغال). والملوك (مثل إليزابيث الأولى فى بريطانيا) . والوزراء (مثل «كولبير» وزير «لويس الرابع عشر» فى فرنسا) . وكان هؤلاء الأمراء والملوك والوزراء هم الذين وجهوا رجالهم إلى ركوب البحر واجتياز البر (مثل «كريستوفر كولمبس» الذى اكتشف أمريكا لحساب ملوك أسبانيا - ومثل «فاسكو داجاما» الذى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند لصالح ملوك البرتغال، وأقام مستعمرة أنجولا على الشاطئ الغربى للقارة الإفريقية ومستعمرة موزمبيق على شاطئها الشرقى - ومثل «كلايف» غازى الهند ومؤسس حكومتها البريطانية فى «كلكتا» ثم فى «دلهى»)، والمعنى أن الإمبراطورية كانت دائما مشروعا عاما يحمل رمزا ملكيا، ويحمل راية وطنية، ويمثل مصلحة عليا، وهو بهذا التكليف يحرك الأساطيل ويوجه الجيوش، ويغزو البلدان، ويحكم الأقوام، ويستولى على الثروات.

٤ . ومنها أن الإمبراطورية على طول الزحف الإمبراطورى من القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين كانت مجلبة للمنافع العامة: الاقتصادية والاستراتيجية، ووسيلة لتكديس تراكم



فى الثروة فاق الحدود فى بعض الأحيان . لكن نسق الحقائق بقى جليا طول الوقت:

. أى ظلت الإمبراطورية مشروعا وحافزا عاما لشعب أو أمة تعبر عنهما إمارة أو مملكة أو دولة تحصلت على أدوات المنعة والقوة.

. وظلت حظوظ الأفراد فى الثروة تالية للإمبراطورية (حتى وإن مشت بعض الطلائع على مسئوليتها تمهد وتجس الأرض وتستكشف) - أى أن المكاسب الرأسمالية الطائلة كانت مثل العربة تجىء وراء القاطرة وليس قبلها.

٥ . وظلت الإمبراطورية موقع القيادة، لا ترضى للقوة أن تتورط وراء الطمع بغير تدبر، ثم إنه بعد أن تؤدى القوة دورها الإمبراطورى المحسوب، يكون للفرصة الشخصية أن تبحث عما تريده حيث تجده!

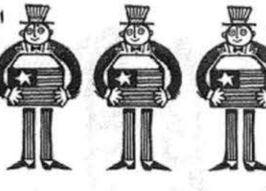
....

....

[وعلى سبيل المثال تظل الإمبراطورية الأسبانية فى أمريكا اللاتينية فى بعض جوانبها قصة تعاد صياغتها وتستعاد روايتها فى تجارب إمبراطورية متعددة، فقد اشتهرت بدايات ذلك العصر الإمبراطورى الأسبانى بأنها «القرن الذهبى لأسبانيا»، وعلى طول ذلك القرن فقد خصص الملوك الأسبان أقوى أساطيلهم فى المحيط الأطلسى لجلب الذهب، وقد عرف هذا الأسطول باسم «أسطول الكنوز»، وكانت سفنه هى الأحدث والأسرع، والحاملة لأقوى المدافع، وقادته أنجح أمراء البحر الأسبان.

وكانت كنوز ممالك «مونتزوما» فى المكسيك «والانكا» وسط جبال «الإنديز» هى نهر الذهب الذى سال وفاض، حتى أُعيد صب قناطير منه - مرة على شكل سرير من الذهب الخالص، تستقبل عليه الملكة «إيزابيلا الثانية» عشاقها فى قصر الأرانخويز (ضاحية مدريد الجميلة).

أى أنه بصرف النظر عن سفاهات الملوك والأباطرة - فإن قواد حملات جلب الذهب الأسبان مثل «كورتيز» (الذى نهب كل ما عثر عليه من ذهب مملكة «مونتزوما»)، ومثل «بالبوا» (الذى نهب ذهب قبائل أمريكا الوسطى) - عملوا باسم الملوك ولحسابهم، حتى أن «بالبوا» عندما عبر برزخ بنما من الغرب إلى الشرق ورأى المحيط الهادى أمامه - قام بسرعة بتنظيم



مراسم احتفال يعلن فيه أن هذا المحيط اللامتناهى أصبح من هذه اللحظة بحرا خاصا مملوكا مباشرة «لصاحب الجلالة الأسبانية»].

....

....

ولعل محاضر مجلس العموم البريطانى ـ بالذات محضر يوم ١١ فبراير سنة ١٨٦٨، تقدم نموذجا دقيقا لعلاقة العام والخاص فى المشروع الإمبراطورى.

كان اجتماع مجلس العموم يومها مخصصا لبحث نفقات واحدة من الخبطات الإمبراطورية المشهورة فى التاريخ البريطانى، هى صفقة شراء حصة مصر فى شركة قناة السويس، وكان خديو مصر («إسماعيل باشا») قد عرضها للبيع مقابل أربعة ملايين من الجنيهات الذهبية، وبادر رئيس الوزراء البريطانى ـ وقتها ـ «بنيامين دزرائيلى» (وهو اليهودى الوحيد الذى وصل لرئاسة الوزارة البريطانية حتى اليوم) إلى قبول العرض، ولأن مجلس العموم البريطانى كان فى إجازة ـ ولأن الخزانة البريطانية لم تكن تستطيع تدبير وتقديم هذا المبلغ سرا (حتى لا يعرف به منافس أو عدو) ـ ولأن تدبير المبلغ كان لابد أن يحصل بسرعة (لأن خديو مصر يتعجل وصول الذهب إلى يديه) ـ فإن «بنيامين دزرائيلى» قام بإقناع عائلة «روتشيلد» بإقراض المبلغ للحكومة البريطانية وتجهيزه فى ظرف ٢٤ ساعة كى تحمله الباخرة «بليموث»، قبل أن تبدأ رحلتها العادية إلى الإسكندرية، ويجرى تسليمه إلى خديو مصر مقابل تسلم أسهمه فى شركة قناة السويس.

وطبقا لمحضر مناقشات مجلس العموم (المجلد الثالث ـ الصفحات من صفحة ٦٥٢ إلى صفحة ٦٦١ بتاريخ ٢١ فبراير ١٨٧٦) ـ فإن وزير الخزانة طلب من المجلس اعتماد الصفقة وتخصيص المبلغ اللازم لها، وفوقه مقدار العمولة المستحقة عليها (بنسبة ١٥٪) «للسادة روتشيلد» وشركاهم.

كان وزير الخزانة السير «ستافورد نورثكوت»، هو الذى عرض مشروع القرار، لكنه عندما احتدمت المناقشات وقف رئيس الوزراء «دزرائيلى» بنفسه يرد على تساؤلات واعتراضات عدد من أعضاء المجلس انتقدوا الصفقة بما فيها دور «روتشيلد».. متسائلين عن سبب الاستعانة ببيت مالى، وتركز الكثير من سخطهم على حجم عمولته:

ولعلعت أصوات المعارضين فى مجلس العموم ذلك اليوم.

• كان بعضهم يرى أن قناة السويس مشروع فرنسى لا يصح لبريطانيا أن تشارك فيه، لكن رئيس الوزراء «دزرائيلى» قال إن ذلك الرأى كان من البداية «قِصَر نظر إمبراطورى» لا يغتفر للمسئولين عنه فى وقته، لأن قناة السويس أقرب طريق إلى الهند، وعلى بريطانيا أن تعوض الآن ما فاتها بشراء حصة تُقارب النصف فى شركة قناة السويس (وهى حصة مصر).

(وكان بعضهم يتخوف من أن شركة قناة السويس اشترطت لكى تعطى حصة لخديو مصر، أن تكون أسهمه صامتة ليس لها حق فى التصويت فى مجلس إدارة الشركة، أى أن ممثلى الخديو أعضاء لهم حق الحضور دون حق الكلام، ورد «دزرائيلى» الإنجليزى بأن «الأعضاء المحترمين الذين أشاروا إلى أن الحصة المصرية صامتة ينسون أنها عندما تصبح فى يد الحكومة الإنجليزية فإنها سوف تكتسب بالضرورة مقدرة النطق، وبالتالى حق التصويت).

• وكان بعضهم يتساءل عن حكمة الاستعانة ببنك خاص لتمويل الصفقة، ورد «دزرائيلى» بأن «مجلس العموم كان فى إجازة ولو دعى لجلسة طارئة للَفَتَ ذلك أنظار العالم بما فيه الحكومة الفرنسية، وهى كفيلة بأن تصطنع من العراقيل ما يكفى لإفساد الصفقة، لتحول دون دخول الحكومة الإنجليزية بحصة تقارب النصف فى شركة القناة.

• وأخيرا أبدى بعضهم شكه فى دور «البيت المالى» الذى كُلِفَ بالمهمة وجهز الذهب فى أربع وعشرين ساعة، ثم تقاضى عمولة مقدارها ١٥٪، ورد «دزرائيلى» متسائلا فى البداية: «هل يتصور الأعضاء المحترمون أن المستر «روتشيلد» أو غيره من الأغنياء يحتفظ تحت يده نقدا ـ سائلا ـ بمبلغ كبير من الذهب يوازى المطلوب لشراء حصة النصف فى شركة قناة السويس؟» ـ ثم رد على سؤاله قائلا: «بالطبع لا يوجد مثل هذا الرجل ـ لا «روتشيلد» ولا غيره، والذى جرى أن «روتشيلد» فى سبيل توفير ما طلبته الحكومة منه، اضطر إلى بيع كميات كبيرة من أوراقه المالية، وفعل ذلك بسرية وهدوء حتى لا تنخفض أسعار هذه الأوراق، وبرغم ما تحوط به فإنه بسبب ضخامة المبلغ تعرض «روتشيلد» لخسائر، ومع ذلك أنجز الرجل مهمته، وقدم الذهب ودفعته الحكومة البريطانية فى موعده، وبالتالى فإنه خدم الإمبراطورية ولا نملك فى المقابل أن نعاقبه». ■

ثانيا:

تحذير فى الوقت المناسب.. لم يسمعه أحد!

■ يتأكد مع وقائع كل يوم أن الاختلاف الأهم بين الإمبراطورية الأمريكية وبين الإمبراطوريات الأوروبية التى سبقتها هو تلك العلاقة مع رأس المال، ففى التجربة الأوروبية كان رأس المال يتبع الإمبراطورية ويمشى وراءها يلتقط فضلات غزواتها متأكدا من حمايتها. وأما فى التجربة الأمريكية فقد انعكس الترتيب وأصبح رأس المال الأمريكى هو الأسبق على الطريق الإمبراطورى، وقد ساوره الوهم فى البداية بقدرته على حماية نفسه ـ وغيره أيضا ـ لكنه لم يلبث أن عرف حدوده فراح يستدعى وراءه جيوش الإمبراطورية وأساطيلها.

....

[وربما يتذكر البعض أن شركة «فينيل» التى وقع هجوم إرهابى ـ فى أوائل شهر مايو الماضى ـ على المجمع السكنى المتميز لموظفيها فى عاصمة السعودية، بدأت كشركة أعمال حراسة تتولى تأمين حقول البترول والآبار وخطوط أنابيب نقل البترول، وهى بطول عشرة آلاف كيلومتر مكشوفة فى العراء، وبعضها ـ مثل منطقة «أبقيق» ـ مركز تجمع يتدفق منه أكثر من ثلاثة أرباع ثروة المملكة، كما أن الخطوط منها إلى ميناء ينبع ممتدة عبر الصحراء من الخليج إلى البحر الأحمر. وكانت شركة «فينيل» تعمل بمقتضى عقد مع شركة «أرامكو»، ولتحقيق عقدها استخدمت شركة «فينيل» أكثر من عشرين ألف موظف، ضمنهم ثمانية عشر ألف حارس مسلح ـ أى أنه نظام أمن خاص ـ لمصالح خاصة. وفيما بعد أنشأت شركة «فينيل» هيئة عسكرية مستكملة تتولى تدريب قوات الحرس الوطنى السعودى، وكان ذلك قبل أن تهب العواصف على الخليج، وتنزل القوات الأمريكية بكامل سلاحها وعتادها وخططها تعزيزا وتدعيما لشركة أرامكو ـ وشركة «فينيل» معا (الحارس والمحروس!)].

....

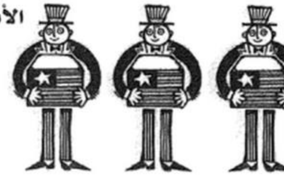
....

وكانت العلاقة بين المال والإمبراطورية متسقة ـ إلى حد ما ـ مع روح التجربة الأمريكية، باعتبار أن الجهد الفردى الخاص هو الذى توسع فى القارة الأمريكية وانتشر، وهو الذى مشى بالتركيبة الأمريكية الفريدة من جماعات مهاجرين، إلى تجمعات مستوطنين، إلى مجتمعات مدن وولايات، ثم إلى دولة أمريكية سعت إلى ضم الجميع تحت علم واحد، حتى بوسيلة الحرب الأهلية بغية تعزيز سلطة هذا العلم الواحد، لكى يرفرف على سوق أكبر تضم الشمال الصناعى إلى الجنوب الزراعى.

وعندما انطلق رأس المال الأمريكى بعد الحرب الأهلية إلى مغامراته الخارجية، فإنه بدأ بالأقرب، أى أمريكا الوسطى، وهناك أخذ يستولى على امتيازات الأرض الزراعية الأكثر خصبا كما فعلت شركة «الفواكه المتحدة» فى «بنما» و«كوستاريكا» و«جواتيمالا» وغيرها.

ثم كانت الخطوة التالية بعد الأقرب

صناعة القرار الأمريكى.. الآن!



هى الأقل بعدا أى أمريكا اللاتينية، وهكذا بدأت على سبيل المثال مغامرة «جون روكفللر» الكبيرة فى البحث والتنقيب عن بترول «فنزويلا»، ثم فى غيرها، حتى جاء الدور بعد ذلك على البعيد فى آسيا وفى الشرق الأوسط.

وفى «فنزويلا» كان متوسط دخل «روكفللر» من مغامرته عشرة ملايين دولار سنويا، وهو فى ذلك الوقت مبلغ يوازى نسبة ستة فى المائة من الدخل القومى الأمريكى، وعندما طلب «روكفللر» حماية الدولة الأمريكية فإنه كان يعتقد بحق مكفول له. كان «روكفللر» قد استعمل فى تأمين مصالحه فى «فنزويلا» وسائل مرعبة، منها نقل قبائل كاملة من مواطنها، وإبادة مجتمعات بأسرها من وجه الأرض، وعندما تعرضت مصالحه للخطر، أصبحت حاجته ملحة إلى سلاح الدولة الأمريكية يلحق بشركته. وكانت تلك نقلة محورية على طريق الإمبراطورية.

ولم تكن مغامرة «روكفللر» قصة فريدة من نوعها، بل كانت نموذجا تكرر عشرات المرات، ولم تقتصر المغامرات المالية على الزراعة والبترول، وإنما توسع النشاط ليشمل كافة مجالات استغلال الموارد الطبيعية ومصادر الثروة الظاهرة والكامنة إلى درجة الاستيلاء على البلدان والأسواق بكاملها بشكل أثار القلق.

وربما أدرك «روكفللر». وغيره. أن عملياتهم المباشرة تبدو لكثيرين قرصنة عدوانية، وكان اجتهادهم أنها تحتاج إلى قناع، وبدا. لروكفللر ولغيره. أن أفضل وسائل التخفى هو تحويل مصالحهم من شركات استغلال مباشر ومكشوف. إلى بيوت مالية للاستثمار تدير أعمالها من قواعد بعيدة، وتتستر وراء واجهات واسعة تحمل لافتات. أكثر احتراما، وكذلك أنشأت أسرة «روكفللر» مجموعة بنوك اندمجت مع بعضها فيما بعد، والتحفت بغطاء بنك واحد شهير أنشأته هو مجموعة «تشيز مانهاتن بانك»، ومشى آخرون غير أسرة «روكفللر» على نفس الطريق.

وكذلك أصبح بنك الاستثمار واجهة للنشاط الرأسمالى الأمريكى. أكثر ذكاءً وحصافة فى تغطية المصالح من ناحية، وفى تدبير حمايتها من ناحية أخرى بتليين السياسة وتحضيرها لمهام شبه إمبراطورية، ثم إن مجموعات بنوك الاستثمار أصبحت أهم «جماعات الضغط» التى حرضت على التدخل الأمريكى العسكرى فى الحرب العالمية الأولى، وجرّت الولايات المتحدة وراءها عبر المحيطات، ودفعتها لإرسال الجيوش عبر القارات تحمى مصالحها، وتفرض لها حقا فى شراكة حيوية مع المصالح الإمبراطورية الأوروبية المتسيدة وقتها (وإرثها فى الوقت المناسب).

أى أن الإمبراطورية الأمريكية راحت تتقدم خطوة بعد خطوة. رغم أن الدولة الأمريكية بقيت حتى تلك اللحظة بين إقدام وإحجام. حائرة بين جموح الرغبة وبين محاذير الخطيئة.

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى، قدر الرئيس الأمريكى وقتها «وودرو ويلسون»، أن أمريكا ليست مستعدة بعد لمنافسة الإمبراطوريات الأوروبية (فضلا عن إرثها)، واستقر رأيه على إعادة الجيوش الأمريكية من ميادين القتال فى أوروبا دون مشاركة فى النظام الدولى الذى أقامته الحرب العالمية الأولى وهو عصبة الأمم. وكانت تلك العودة خيبة أمل كبيرة لرأس المال الأمريكى، الذى راعه أن «دولته الأمريكية» تأخرت فى إعداد نفسها لمهام الإمبراطورية.

وبطبيعة رأس المال وبالذات فى مناخ التجربة الأمريكية، فإنه رغم تبرمه من ضيق خيال الدولة الأمريكية. أو ربما بسبب هذا التبرم. قرر أن يتصرف على مسئوليته، ويحاول تعويض قصور الدولة الغائبة بجهده السبّاق. وهنا وقع تحول أساسى فى التمهيد والتهيئة والإعداد فى عملية صنع القرار السياسى. مؤدى هذا التحول الأساسى أن رأس المال قرر أن يمسك الضرورة الإمبراطورية فى يده، ويصنع لنفسه أدوات هى بطبيعتها احتكار للدولة (على الأقل فى ذلك المنعطف من التاريخ).

وبدون الدخول فى تفاصيل متشعبة فقد كانت تلك هى اللحظة التى قررت فيها الرأسمالية الأمريكية أن توفر لنفسها قواعدها «شبه السياسية»، وهيئاتها «شبه الحكومية»، ورؤاها «شبه الاستراتيجية»، وكان ذلك تطورا بالغ الأهمية. شديد الحساسية.

فالعادة فى التجارب الإمبراطورية السابقة أن السياسة (حربية وغير حربية) لا مجال لها خارج إطار الدولة (لأن ذلك تكليفها الأهم). كما كانت العادة أيضا أن قرار الدولة واقع تحت المسئولية الدستورية (للحكم). وكذلك كانت العادة أن التخطيط الاستراتيجى اختصاص الأمن القومى (إلا إذا دار البحث فيه داخل نطاق الجامعات وفى مجال فلسفة ودراسة علوم الصراع).

كان رأس المال فى التجربة الأوروبية يتبع الإمبراطورية يلتقط فضلات غزواتها، وأما فى التجربة الأمريكية فقد أصبح هو الأسبق على الطريق الإمبراطورى

وفى إطار هذه الضرورة (الإمبراطورية) توصلت التجربة الأمريكية إلى اختراع جديد هو مؤسسة الدراسات السياسية والاستراتيجية، وكانت البداية هى «مجلس العلاقات الخارجية فى نيويورك» (Council of Foreign Relations) الذى أنشئ رسميا سنة ١٩١٩، والذى رعته عائلة «روكفللر»، ولا تزال ضمن رعاته حتى الآن. وهو مجلس حدد إطار عمله بأنه «متابعة الأوضاع الدولية وإثارة اهتمام الرأى العام الأمريكى بها، وتأسيس موقع نفوذ يدعو إلى دور أمريكى فاعل فى تشكيل القرار الدولى».

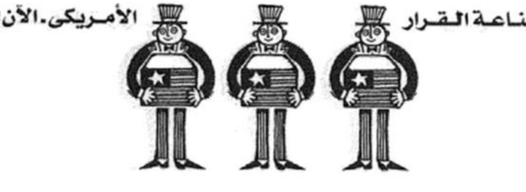
ومن الملاحظ أن «مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية» وقت نشأته اعتمد على عناصر من وزارة الخارجية ومن المخابرات العسكرية ومن رجال الأعمال المهتمين بالسوق العالمية، ثم إن قيامه وعمله كان أشبه بما تقوم به الجمعيات السرية، والسبب أن مُنشئيه لم يكونوا بعد واثقين من تقبل الحكومة الأمريكية لدوره ونشاطه، أو من نظرة الرأى العام داخل أمريكا (وخارجها) لصلاته وارتباطاته، وفى الحقيقة فإن هذا المجلس كان ظاهرة مستحدثة تماما فى العلاقات الدولية، وقد استطاع إثبات وجوده بتصميم ومثابرة، وفى البداية كانت وسيلته «مجرد التفكير»، لكن مجرد التفكير ما لبث أن أعطى نفسه «إمكانية التأثير»، إلى حد أن هذا المجلس أصبح مجمعا لنشاط أبرز العناصر الضاغطة على حتمية دخول أمريكا ومشاركتها فى الحرب العالمية الثانية لكى تضمن لنفسها كلمة مسموعة عند توزيع مناطق النفوذ، وتؤكد حقا لها فى رسم الخطوط المستجدة على خريطة عالم سوف يُعاد تشكيله بعد أن تسكت المدافع.

وعندما شاركت الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية قائدة للمعسكر المنتصر. فإنها بهذه المكانة تولت إدارة المواجهة الكبرى التى وُصفت بالحرب الباردة، وفى زمن هذه الحرب الباردة توصل رأس المال الأمريكى. فى مناخ طموحاته. وقبل الدولة الأمريكية. إلى عدة نتائج:

● أولها: أن الحرب العالمية الثانية انتهت بتوازن جديد فى القوى بين الولايات المتحدة (التى تعتبر أنها صاحبة الحق فى إرث الإمبراطوريات القديمة). وبين الاتحاد السوفيتى (الذى يؤسس قوته على النظرية الشيوعية، وهى فكرة لها قوة جذب، خصوصا بالنسبة للشعوب الفقيرة التى تتواجد على أراضيها معظم الثروات الطبيعية فى العالم (وأهمها البترول. وبترول الشرق الأوسط) وبالتالى فإن الصراع العالمى الجديد فى ركن أساسى منه. صراع أفكار اجتماعية وسياسية.

● وثانيها: أنه والحال كذلك فإن هذا الصراع أخطر من أن يُترك لأجهزة الدولة الأمريكية وحدها، فهذه الأجهزة مهما بلغت كفاءتها. مؤسسات بيروقراطية، قد تُحسن «تنفيذ السياسات»، لكنها لا تُحسن «صنع الأفكار القادرة على رسم سياسات»، ثم إن الأجنحة العسكرية لهذه البيروقراطية تملك أهلية استعمال السلاح، لكن المأزق أن السلاح الجديد (الذى أصبح نوويا) لم يعد قابلا للاستعمال، فى حين أن قوة الأفكار هى عدة الحرب الجديدة (الباردة) وهذه تمارس دورها بدون عوائق أو روادع، والمحصلة أنه

صناعة القرار الأمريكى.. الآن!



«إذا كان السلاح النووى فى يد البيروقراطية العسكرية غير قابل للاستعمال، وكانت البيروقراطية السياسية بطبائعها لا تقدر على صنع الأفكار، إذن فإن الدولة الأمريكية سوف يتبدى عجزها وتضيع منها الفرصة، لأن جهاز الدولة مقيد عسكريا، ومحدود فكريا، وعليه فإن المصالح الأمريكية لابد لها أن تأخذ فى يدها زمام المبادرة وتكون هى ظل الإمبراطورية . حتى من قبل أن تكون ويظهر جسم الإمبراطورية!».

● وكان رأس المال الأمريكى بذكاء المصالح والتجارب قد أدرك أن المفكرين عنصر قلق فى مجتمعاتهم، وكان ذلك ملحوظا فى الولايات المتحدة نفسها فترة ما بين الحربين العالميتين (الأولى والثانية)، فمعظم المهتمين بشئون الفكر والمستقبل جنحوا تلك الفترة . دون أن يتعمدوا . إلى اليسار، وكانت دلالة ذلك أن بعد الحرب العالمية الثانية . وفى وجود الاتحاد السوفيتى وتأثيره . فإن احتمال «جنوح الفكر فى أمريكا» لابد من التحسب له . أى لابد من احتوائه فى مرحلة، ثم إعادة توجيهه فى مرحلة تالية، وكانت المعضلة فى هذه اللحظة الفارقة هى البحث عن إطار مقبول ومحترم يحتوى الفكر المستعد للجنوح، ثم يعيد توجيه طاقته وحيويته «بحيث يضيف ولا يخصم» على حد تعبير «آرثر شلزينجر» (المؤرخ الأمريكى الأشهر الذى أصبح فيما بعد أهم مستشارى الرئيس «جون كنيدى» فى البيت الأبيض سنة ١٩٦١).

● وكان الإطار الأمثل هو إطار «المؤسسة» (على مثال مجلس العلاقات الخارجية فى نيويورك)، بحيث يكون هذا الإطار جاهزا لاستقبال وتوظيف مئات وآلاف من المؤهلين لصناعة التفكير، يحصلون فيه على أعلى المكافآت لكى ينطلقوا، ثم تكون أفكارهم من الداخل قابلة للتأثير على الخارج . وليس من الخارج نازلة على الداخل، وذلك وضع وصفه الرئيس «ترومان» (وكانت التجربة مازالت تتشكل) بأن هؤلاء الناس «ذوى الشعر المنكوش يستحسن أن يكونوا فى الداخل وتتجه أحجارهم إلى الخارج بدلا من أن يكونوا فى الخارج وتتجه أحجارهم إلى الداخل».

ومن ذلك التعليق يبدو أن «ترومان» لم يكن قد رأى بعد غير ظاهر التجربة، ولكن نجاحها . عندما ظهر . تجاوز تقديراته، وبين الدواعى أن «المؤسسة» أحسنت مكافأة المفكر، وساوته بمدير الشركة اعترافا بدوره فى الزمن الجديد، وكذلك تم عقد صلح تاريخى بين الرأسمالى وبين المفكر، وخفت بشكل ملحوظ حدة التوتر (الطبيعى) بين الطرفين عبر التاريخ!

....

....

[ونتيجة لهذا المنطق الذكى لرأس المال الأمريكى نشأت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية عشرات ومئات المؤسسات تحمل أسماء أصحاب أكبر المصالح («روكفللر» . «فورد» . «راند» . «كارنيجى» وغيرهم وغيرهم)، وتمكنت حتى أصبحت كل واحدة منها «شبه حكومة» تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى وتمارس نشاطات غير محدودة فى مجال التفكير الاستراتيجى، ورسم السياسات، ومتابعة الأزمات، وكتابة الأوراق، واقتراح الحلول، والتفاوض أحيانا، وقد وجد الجميع فى صيغة «المؤسسة» تحقيقا شديد الكفاءة لهدفين واضحين:

١ . اكتشاف ورصد ودراسة الفضاءات التى تريد المصالح الكبرى أن تعمل فيها وتتوسع وتزيد أرباحها.

٢ . ثم القيام على علاقة صلة قُرب من دوائر القرار السياسى ومتابعة مداخلها ومخارجها، بما يحقق درجة من التوافق تسمح بتبادل المساعدة وتعظيم الفائدة.

وبالفعل فإنه فى أجواء هذه المراكز ظهر وتألق ومارس الفعل الدولى عدد من أكبر نجوم الحرب الباردة، وبينهم على سبيل المثال معظم مستشارى الأمن القومى لرؤساء أمريكا فى الزمن الجديد مثل «ماك چورچ باندى» مستشار الأمن القومى مع الرئيس «جون كنيدى» (من مؤسسة روكفللر) . و«هنرى كيسنجر» مستشار الأمن القومى للرئيس «نيكسون» (من مجلس العلاقات الخارجية فى نيويورك) . و«زبجنيو برچينسكى» مستشار الأمن القومى للرئيس «كارتر» (من مؤسسة بروكينجز) . وحتى السيدة «كونداليزا رايس» مستشارة الأمن القومى للرئيس «چورچ بوش» الابن (من جماعة المشروع الأمريكى).

كان التأثير السياسى المتنامى لرأس المال الأمريكى وتحالفاته وأدواته الطارئة، قد لفت نظر واحد من أشهر الرؤساء الأمريكيين بعد الحرب العالمية الثانية وهو «دوايت أيزنهاور» الذى قاد الجيوش الأمريكية (والجيوش الحليفة كلها) إلى النصر ضد ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية.

وعندما أصبح الرجل رئيسا للولايات المتحدة . فإنه بدأ يرى ويتابع الظاهرة الجديدة المتداخلة مع دور الدولة الأمريكية، والضاغطة عليها تدفعها دفعا على الطريق الإمبراطورى . وأحس «أيزنهاور» بالقلق يستبد به خشية عواقب خطيرة وغير محسوبة على الطريق الإمبراطورى.

وكان أكثر دواعى «أيزنهاور» إلى الإحساس بالقلق من الانزلاق (بأسرع مما هو لازم) . دور «رأس المال الأمريكى» ونفوذه المتزايد على السياسة الأمريكية، مستعينا فى ذلك بدور مؤسسات الفكر وطاقاتها المشعة المتوهجة.

ووجد «أيزنهاور» واجبا عليه مع انتهاء مدة رئاسته الثانية والأخيرة، أن ينبه ويحذر ويجعل من خطاب وداعه للأمة الأمريكية . نوعا من الوصية السياسية . تستحق الآن (وبعد كل ما جرى) دراسة بعمق . موضوعية . ورشيدة!].

....

فى الساعة السادسة من مساء يوم ١٧ يناير ١٩٦١ (بتوقيت واشنطن)، وجه الرئيس الأمريكى إلى الشعب الأمريكى ما أسماه «خطاب الوداع»، بادئا بقوله:

«بعد ثلاثة أيام من الآن، وبعد نصف قرن قضيته فى الخدمة العامة للأمة الأمريكية، سوف أقوم بتسليم مسئوليات منصبى إلى خلفى الذى وقع عليه اختياركم («جون كنيدى»).

وهذا المساء فإننى جئت إليكم مودعا ومستأذنا فى الانصراف، وفى نفس الوقت فإن لدى بعض الهواجس التى أريد أن أفضى بها لكم حتى تشاركونى فيها، وتحملوا أمانتها إذا رأيتم صوابها».

وبعد هذا الاستهلال دخل «أيزنهاور» إلى الموضوع الذى ملك عليه مشاعره، قبل مغادرة البيت الأبيض، فاستطرد:

«أريد أن أقول لكم أننا فى الأوضاع الراهنة، خصوصا فى هذا الصراع العالمى الذى نخوضه ضد عقائد دولية معادية للقيم الأمريكية . سوف نواجه أزمات صغيرة وكبيرة، لكنى أريد أن أحذر من غواية التوصل إلى حلول متسرعة واستعراضية للقوة، فتلك غواية مكلفة لأنه ببساطة لا يوجد حل سحرى لأى مشكلة من المشاكل».

ثم واصل «أيزنهاور» كلامه:

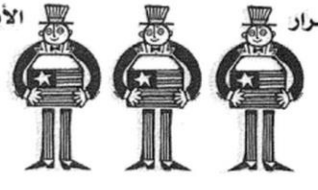
«إن كل قرار نتخذه لابد أن يُقاس بالمعايير اللازمة لحفظ التوازن بين الوطنى والدولى، وبين العام والخاص، وبين الحاجة والواجب، وأن يكون قرارنا فى كل الظروف برهانا يحفظ السياسة الأمريكية من نزعات الجموح أو الإحباط».

ثم مضى «أيزنهاور» يقول:

«إن دورنا فى حفظ السلام العالمى طرأت عليه بحكم مسئوليات الولايات المتحدة . زيادة غير مسبوقة فى صناعة السلاح، فقد اضطرتنا الظروف إلى توسع فى صناعات السلاح فاق كل الحدود، حتى أننا الآن نملك جيشا قوامه ثلاثة ملايين ونصف المليون رجالا ونساءً، كما أننا نوجه إلى الجانب العسكرى فى اقتصادنا ما يوازى دخل كل الشركات الأمريكية مجتمعة، وهذه ظاهرة خطرة على حياتنا لأنها أدت إلى نشأة مجمع صناعى عسكرى اقتصادى سياسى يصل نفوذه إلى بعيد فى وطننا،

أيزنهاور فى خطاب وداعه للأمة الأمريكية: «إذا وقع القرار الأمريكى رهينة للمجمع الصناعى العسكرى، فإن الخطر سوف يصيب حرياتنا وممارساتنا الديمقراطية، وقد يصل إلى حجب الحقائق عن المواطنين، والخلط ما بين أمن الشعب الأمريكى وحرياته . وبين أهداف أطراف هذا المجمع ومصالحهم»

صناعة القرار الأمريكى. الآن!



ويؤثر على بيئته الاجتماعية كما يؤثر على اتجاهه.

وذلك يجعلنى أشعر بالقلق الشديد، وكذلك جئت أعرض الأمر أمامكم.

«وعلى أن أقول صراحة أن هناك الآن مجموعة صناعية عسكرية، مالية، سياسية، وفكرية. تمارس نفوذا غير مسبوق فى التجربة الأمريكية، ومع أننا نتفهم الظروف التى أدت لنشأة هذه المجموعة، فإننا لابد أن نحذر من وصولها إلى موقع التأثير المعنوى والسياسى والعملى على القرار الأمريكى، لأن ذلك خطر شديد على المجتمع الأمريكى قبل أن يكون خطرا على غيره.

إن مواقع القرار الأمريكى فى الدولة الأمريكية لابد من حمايتها ضد النفوذ غير المطلوب، وغير المتوازن لهذا المجمع العسكرى. الصناعى، وإلا تكون العواقب كارثية، لأننا بذلك نضع سلطة القرار فى أيدٍ غير مسئولة لأنها غير مفوضة، وبالتالى لا يصح أن تؤتمن عليه.

وأود أن ألفت النظر إلى أنه إذا وقع القرار الأمريكى رهينة لمثل هذا المجمع الصناعى العسكرى وأطرافه، فإن الخطر سوف يصيب حرياتنا وممارساتنا الديمقراطية، كما أنه قد يصل إلى حيث يملك حجب الحقائق عن المواطنين الأمريكيين، والخلط ما بين أمن الشعب الأمريكى وحرياته. وبين أهداف أطراف هذا المجمع ومصالحهم.

ومن سوء الحظ أن الثورة التكنولوجية التى تتدفق نتائجها على عالمنا اليوم. تساعد أطراف هذا المجمع الخطر وتزيد من قدراتهم وتمكنهم من السيطرة على برامج الإدارة ومخصصات إنفاقها، خصوصا أن قوة أموالهم توفر لهم تأثيرا فادح التكاليف على مؤسسات الفكر والعلم، على أن أملى معلق بوعى الأمة الأمريكية بالخطر، لأن ذلك الوعى هو الذى يحصر أطراف هذا المجمع ويمنع سيطرتهم على الضمير العام وعلى السياسة العامة معا».

....

[وكان «دوايت أيزنهاور» قادرا على هذا المستوى من الإدراك السياسى، لأنه كان آخر الجنرالات الكبار الذين قادوا حروب بشر فى مواجهة بشر، على مستوى التعبئة الشاملة لأمم وشعوب.

وفيما بعد وعندما دخلت الإلكترونيات مجال السلاح وأحدثت ثورتها فى استعماله، فإن الحرب أصبحت ومضات وإشارات على الشاشات تضىء وتبرق دون أن تظهر للعيان مأساة الحياة والموت، وبذلك فإن الطابع البشرى للحرب شحب وغاب لأن قيادات الجيوش راحت تمارس القتل من بُعد مئات الأميال وآلافها.

يُضاف إلى ذلك أن «أيزنهاور» كان قائد أكبر جيش متحالف فى التاريخ، وذلك فرض عليه أن يقوم. إلى جانب دور الجنرال. بدور السياسى الذى يدير علاقات إنسانية متعددة الأطراف وتتعدد فيها الثقافات.

ومعنى ذلك أن «أيزنهاور» عاش التجربة الإنسانية العميقة للحرب فى ميدان القتال، فى حين يعيشها الجنرالات الجُدد على شاشات الصور فى مقار معزولة. كما أن «أيزنهاور» تواجد وسط الناس فى الخنادق، وانشغل بسياسات فرضتها ظروف تحالف واسع تجمعت فى إطاره جيوش جاءت من خلفيات ثقافية متنوعة وسط عواصف النار.

وهنا الفارق بين قادة يعيشون البُعد الإنسانى للصراعات وآخرون تكفيهم لمسات أزرار وصور على شاشات].

....

....

[يزيد على ذلك أن «دوايت أيزنهاور» كان رجلا قابلا للتصديق، فلو أن غيره قال ما قاله (وهو العسكرى المحافظ اليمينى الجمهورى) لاتهم بالأفكار اليسارية، أو بالعداء لأمريكا، أو بالتطرف الدينى، والحقيقة أن «دوايت أيزنهاور» كان نافذ البصيرة إلى درجة لافتة، فى توصيفه لأحوال هذه المؤسسات ونوعية رجالها، وكانت وصيته فى خطاب الوداع شبه نبوءة ثبت بالتجربة صدقها حين بان وتأكد:

. أن الكل فى هذه المؤسسات يفتى بغير مسئولية دستورية أو قانونية، لكن قربهم من السلطة يوحى لهم بقوة لا تمسك بها ضوابط، وتلك مدعاة إلى الاندفاع.

. وأن الكل يفتى فى «النظرية»، دون ممارسة كافية فى «التطبيق».

. وأن الكل يفتى بمنطق يوحى بالعلم، لكنه علم يفرض قوانينه دون اختبار، وإذا وقع الاختبار فقد سبق الفعل مؤثرا على الناس وعلى التاريخ!

. وأن الكل يفتى بمنطق المستجد على القوة والمأخوذ بسطوتها دون إحساس بمأساة الحياة والموت.

. وأن الكل يفتى بمنطق الحل السريع للمشكلة الطارئة، بغير نظر كاف إلى عواقبه.

. وأن الكل يفتى وليست أمامه غير خرائط وصور أو معلومات وإحصائيات، أو تفاصيل وأرقام بدون الحس السياسى والمسئولية المترتبة عليه. فى الغالب مضللة.

. وأن الكل يفتى بادعاء ولاءات عامة، بينما واقع الحال أن الولاء لمصالح وضعت أرباب الفكر حيث هم، ومنحتهم. تأثيرا غير محدود.

. وأن الكل يفتى وله دخل مضمون من مؤسسات مصالح مباشرة وعملية، وفى أحسن الأحوال فإنها الفتوى بالحساب البارد محجوبا عن حس الضمير!

ومن سوء الحظ أن الرئيس الأمريكى الذى لمح الخطر وأشار إليه سنة ١٩٦١، لم يكن فى السلطة، وإنما فى القبر عندما تحققت أسوأ مخاوفه بعد أربعين سنة. أى سنة ٢٠٠١]. ■

....

ثالثا:

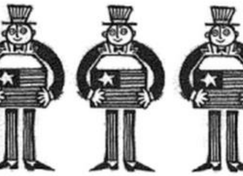
السياسة تنام والتليفزيون يصحو فى أمريكا

■ على مدى أربعين سنة، بعد انتهاء رئاسة «أيزنهاور» أوائل سنة ١٩٦١. وحتى انتهاء رئاسة «بيل كلينتون» أوائل القرن الحادى والعشرين. اختلف العالم وطالت الخلافات حقائق الأشياء كما طالت حركتها.

ففى مواجهة منافسة عسكرية تقطع الأنفاس بين الولايات المتحدة وبين الاتحاد السوفيتى، ومنافسة اقتصادية. خطرة. بين الولايات المتحدة واليابان، ومنافسة سياسية. حساسة. بين الولايات المتحدة وأوروبا. كان المشروع الإمبراطورى الأمريكى يدرك أنه يخوض معركة حسم ومصير، وقد نجح دون شك فى تحقيق اختراقات عظمى فى مجالات العلم والإنتاج، وتغييرا فى أساليب العيش والراحة أضاف متعا إلى حياة كل يوم، ودرجة من الديمقراطية يصعب إنكارها (على الأقل حتى عهد قريب). لكنه فى المقابل استخدم أدوات القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية والمعنوية على نحو مكثف وبتكاليف باهظة على الآخرين وعلى نفسه، لأنه على الطريق إلى ما يريد، جرب السلاح حيث ينفع وحيث لا ينفع، وجرب الضغوط الاقتصادية حين يلزم وحين لا يلزم، وجرب العمل الخفى عندما وجد الظروف مواتية للانقلاب أو هيأها بحيث تصبح مواتية.

لكن المشروع الأمريكى وهو يفعل ذلك كله ويقتحم ويتوغل. صرف من الموارد ما فاق قدرته، وكذلك فإنه ارتهن الاقتصاد العالمى. أو الجزء الأكبر منه. فى وعاء عملته حتى أصبحت سلة الدولار وحدها تمثل نسبة ستين فى المائة من كمية النقد المطروح فى العالم، وكان الكثير من محتوى وعاء الدولار ثروة آخرين تصوروا أن القوة الأمريكية أهم ضمان للسلامة والأمن فى عالم مضطرب يموج بالصراعات والمؤامرات والمفاجآت!

وخلال هذه الأربعين سنة فإن علاقة رأس المال بالقرار السياسى راحت تميل أكثر لصالح رأس المال، وإن على استحياء فى البداية.

صناعة القرار  الأمريكى - الآن!

فقد حدث فى إدارة «أيزنهاور» نفسه أن وزير خزانته «تشارلز ويلسون» الذى كان فى الأصل رئيسا لمجلس إدارة شركة «جنرال موتورز» ، انزلق على قشرة موز، وهو واقف أمام إحدى لجان الكونجرس يعرض حيثيات مشروع قانون، فقد سُئِل: أليس صحيحا أن هذا القانون ينفع شركة «جنرال موتورز»؟، وكان رده على سائله بعد تردد لم يطل «لا أشك أن ما هو فى صالح شركة «جنرال موتورز» لابد أن يكون فى صالح الولايات المتحدة كذلك!». وأحدث الانزلاق إلى الاعتراف درجة من الصدمة بمقاييس تلك الأيام، واضطر «أيزنهاور» أن يضحى بوزير خزانته، لكن المقاييس تغيرت كثيرا على مدى الأربعين سنة، لأنه عند بداية القرن الحادى والعشرين كانت العلاقة بين القرار السياسى ورأس المال مسألة «عادية»، تعرض نفسها على الساحة فى جسارة، وفى بعض الأحيان فى استعلاء.

والشاهد أن «المؤسسات» أصبحت الساحة التى تلاقت عليها كافة عناصر القوة المستجدة: رأس المال والفكر فى نفس الإطار، لأن قلاع المصالح التقليدية والجديدة (وفيها البنوك والتأمين والنقل والصناعات المدنية وصناعات السلاح والبترول والفضاء والطيران والإلكترونيات. وغيرها). كانت فى حاجة إلى خدمات الخبراء والمفكرين والدارسين للاستراتيجية العالمية والسياسة الدولية ممن يملكون كفاءة التحليل والتقييم والرؤية المبكرة لاحتمالات المستقبل على اتساع أقاليم العالم وبلدانه.

ثم إن الحاجة فى إطار «المؤسسة» استدعت الطرف الثالث، وهو العسكريين. وكذلك وقع أن كل رئيس سابق لهيئة أركان الحرب المشتركة، أو قائد مبرز من قواد الأسطول والطيران والصواريخ، أو باحثا مجددا له فى استخدامات القوة اجتهادات ورؤى. ترك الخدمة العسكرية ليجد لنفسه مكانا جاهزا فى مؤسسة تفكير أو تخطيط أو فريق عمل ينصح ويشير!

كان رأس المال ينشئ ويرتب، وكان أساتذة الفكر يكشفون وينقبون، وكان خبراء الحرب يضعون التقديرات ويحسبون الاحتمالات، ثم كان أن هذه المؤسسات أصبحت حضانة تفريخ وزراء الخارجية (كيسنجر. وشولتز مثلا)، ووزراء الدفاع (براون ورامسفيلد مثلا)، ومستشارى الرؤساء للأمن القومى (برجينسكى، وكوندليزا رايس مثلا)، ووصلت العدوى إلى المراتب الوسطى للإدارة الأمريكية، ومن المفارقات أن مدير قسم الشرق الأوسط فى معهد بروكينجز كان هو السفير «ريتشارد هاس» (مدير التخطيط الاستراتيجى لوزارة الخارجية الآن، ثم إن سلفه فى الوزارة «دنيس روس» يجلس الآن على مقعده السابق فى مركز بروكينجز. وأكثر من ذلك فإن «ريتشارد هاس». مرة أخرى. سوف يترك وزارة الخارجية هذا الشهر إلى مجلس العلاقات الخارجية).

فى هذه الأربعين سنة (من نهاية رئاسة «أيزنهاور» (١٩٦١). إلى مداخل القرن الحادى والعشرين). طرأت أحوال لم يكن للعالم عهد بها، ولعلها فاقت أحلامه وتعدت خياله، وكان السبب الرئيسى أن ظروف الحرب الباردة وضغوطها. فتحت أبوابا وأتاحت فُرصا:

١. لأنه بسبب الثورة الإلكترونية ودخولها إلى وسائل المواصلات والاتصالات والمعلومات. فإن كوكب الأرض ومحيطه وفضاءه أصبح ساحة واحدة مفتوحة للقادرين على السبق بالفكر والمبادرة بالعمل والتعزيز بالقوة.

٢. ونتيجة مباشرة لاستحالة الحرب مع وجود موازين الردع النووى، فإن الصراعات عبرت عن نفسها فى معظم الأحيان بعيدا عن وسائل النار، التى اقتصر استعمال. أو اختبار. وسائلها الجديدة على العالم المتخلف، لأن بلدانه كانت المواقع الأنسب للتجريب دون تكاليف باهظة على الكبار (وكان خبراء المؤسسات يحسبون ويراجعون الجبهات والخطوط!).

٣. ومع كوابح الحرب بين الكبار وتزايد أسباب الاحتكاك بينهم، فإن الصراعات. خشنة أو ناعمة. احتاجت لأعمال المخابرات بأكثر من أى ظرف مضى، ونشاط المخابرات ميدانان فى العادة: ميدان لجمع وتحليل المعلومات وإعداد التقديرات، ثم ميدان لتدبير وتنفيذ العمليات (بالعنف الدموى أو بالتطويع النفسى)، (وكان ميدان المعلومات أقرب ما يكون إلى طبيعة عمل المؤسسات، وفى ذات الوقت فإن ميدان العمليات لم يكن بعيدا).

٤. وعندما أصبحت الأقمار الصناعية أفضل وأسرع وسيلة لنقل الصور والكلمات، فإن التليفزيون والكمبيوتر والإنترنت ومعهما التليفون المحمول. ساعدت جميعا فى ضبط حركة التاريخ على لحظة واحدة وتوقيت جامع يحدث فيه كل شىء فى كل مكان فى نفس اللحظة، وقد أحدثت هذه المستجدات تأثيرها شاملا واصلا إلى كل محيط كوكب الأرض، (وكانت المؤسسات سبَّاقة، فقد أصبح أقطابها أهم النجوم فى البرامج السياسية، وأكبر المساهمين فى المشروع الضخم لشبكة الإنترنت، وأقرب المؤثرين على عوالم الصور وكان التأثير فادحا، وفى بعض المرات فاضحا!).

٥. ووقع أن التليفزيون فى هذه الأزمنة صنع لنفسه عصرا بأكمله، وكان هذا العصر التليفزيونى. الحاضر فى كل بيت وكل ملتقى. هو الأداة التى اغتالت العمل السياسى بأساليبه المعروفة منذ بدأت عهود الديمقراطية بعد الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية أوائل القرن التاسع عشر، (وراح كثيرون يدرسون بجد هل أصبح التليفزيون صانع السياسة. وبأية تكاليف على الوعى. وعلى فرصة الاختيار الحر. وعلى الحقيقة؟!).

....

....

[وكان الزعيم السوفيتى «إيليشيف لينين» يقول: «إن واجب السياسة أن تذهب إلى مواقع تجمع الجماهير لكى تظل على اتصال بها، مؤثرة على فكرها. متوصلة إلى تعبئتها. وفى زمانه كانت الجماهير تتجمع فى المصانع والنقابات وفى المدارس والجامعات وفى اللقاءات المفتوحة والتظاهرات. وكذلك كان الشيوعيون يذهبون إلى هذه المواقع لممارسة التأثير والتعبئة، لكن الزمن الجديد جاء بما لم يتوقعه «لينين»].

....

....

والشاهد أن الجماهير الآن لا تتجمع إلا نادرا فى مكان. والواقع أنها موزعة بين شواغل عملها فى الصباح. وبين راحة بيوتها فى المساء، وفى أغلب الأحيان فإنها مشدودة معظم الوقت تطل على الشاشات حيث لا اتصال ولا حوار، وإنما مشاهد تتوالى ويحل فيها الانطباع بديلا عن الإقناع.

وهنا فإن السياسة سقطت ضحية للتليفزيون لأسباب متعددة:

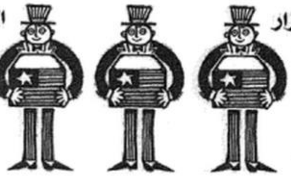
١. فيها أن التليفزيون بغلبة الصورة على الفكرة، وأسبقية الانطباع على الإقناع، نقل السياسة إلى عالم المسرح: وفيه الموقع والمنظر والضوء والحوار المرسوم والمخرج الموجه، وكذلك يتحول السياسى إلى ممثل مشغول بالأداء فى حد ذاته. أولا وأخيرا.

٢. ومعنى ذلك أن الرسالة السياسية مصنوعة على مواصفات يهمها أكبر قدر من التأثير وليس أكبر قدر من الحقيقة. ومع تواصل الأيام حدثت عملية تضخم سياسى يشابه التضخم النقدى، إذ إن تواضع التأثير. بحكم التعود. يوما بعد يوم جرى إلى تعويض نفسه بالزيادة فى العرض، (وذلك أكثر حدوثا فى العالم الثالث بالذات، حيث تتضخم الرسالة بالتكرار حتى تبلغ حالة الإفلاس بالملل).

٣. ونتيجة لذلك فإن السياسة ومعها العملية الانتخابية على كافة المستويات الرئاسية أو السياسية أو التنفيذية، بل وحتى انتخابات هيئات المجتمع المدنى، وفيها الكونجرس وشيوخ ونواب وحكام الولايات، وأعضاء المجالس المحلية التشريعية، والنقابات المهنية والعمالية وحتى الأندية الرياضية. تحولت إلى عمليات مكلفة تحتاج إلى تمويل كثيف

إن التليفزيون بغلبة الصورة على الفكرة، وأسبقية الانطباع على الإقناع، نقل السياسة إلى عالم المسرح: وفيه الموقع والمنظر والضوء والحوار المرسوم والمخرج الموجه، وكذلك يتحول السياسى إلى ممثل مشغول بالأداء فى حد ذاته. أولا وأخيرا

صناعة القرار الأمريكي.الآن!



يكفى لشراء وقت كاف لوضع الرسالة السياسية على الشاشة الأوسع انتشارا، وبالتالى الأغلى، ويقدر على توفير الخبراء الأقدر بين المنتجين والمخرجين وخبراء الضوء والصوت إلى جانب الإنفاق على جيش جرار من مؤلفى القصص إلى كُتّاب السيناريوهات إلى المديرين إلى المخرجين إلى مهندسى المناظر وخبراء التجميل.

وهذه الأحوال جعلت العملية السياسية ملهوفة باستمرار على المزيد من المال، وذلك يدفعها . برضاها أو مكرهة . إلى حيث توجد مصادره، وهناك يكون عليها أن تبيع أو ترهن قرارها عند المنبع!.

٤ . وبهذه الأوضاع الطارئة على المجال السياسى . حدث تغير نوعى فادح فى مواصفات المؤهلين للانخراط فى صفوفه:

ـ فهُمْ إما أن يكونوا جاهزين أصلا لأداء المطلوب منهم (كما حدث مع الرئيس «رونالد ريجان»، وهو الممثل بالحرفة).

ـ أو يكونوا جاهزين للتعامل مع هذا المطلوب بحكم استعداد كامن لديهم (كما حدث مع الرئيس «بيل كلينتون»).

ـ أو يكونوا على استعداد للتأثر بالأقرب إليهم والأعرف منهم بالمطلوب (كما يحدث الآن مع الرئيس «جورج بوش»).

. على أن الأهم من ذلك . وفى مطلق الأحوال . أن يكونوا ممن تتوافر لهم وسائل وقدرات جمع التبرعات والهبات والمنح معلنة أو مكتومة، لأن تكلفة حملة الرئاسة بالنسبة لأى مرشح (حسب الانتخابات الأخيرة بين «بوش» و«جور») فاقت ٣ بلايين دولار لكل واحد منهما.

وتلك جميعا مواصفات وأعباء لا يقدر عليها كل الناس، خصوصا إذا أضيف ما اقتضاه عالم الصور فى المنافسة بين المرشحين من تفتيش فى حياتهم الخاصة ماضيا وحاضرا، بحثا عن ما هو مثير وملون ينفع فى لعبة الصور (وبالذات ما يجىء من عالم الفضيحة المدوية أو الجنس المثير!).

٥ . ومن عواقب ذلك أن الرجال والنساء الأكثر وعيا وحرصا بقوا فى الشركات الصناعية الكبرى، وفى قلاع المال من بنوك الاستثمار والتجارة الدولية، وبالقرب من حقول وآبار البترول وموانيه ومصافيه . كما ظل الباحثون الدارسون الخبراء فى مؤسسات الفكر الاستراتيجى والسياسى المختلفة المتعددة، يعصفون بالعقول ويستثيرونها، ويكتبون الأوراق والتقديرات والخيارات والمقترحات بما يجب عمله وما لا يجب. ثم إن أصحاب العلم العسكرى والتجربة الحية فى ميادين القتال، وجدوا لأنفسهم مراكز قيادة بديلة، ترسم الخرائط وتلونها، وتحدد عليها مواقع وخطوط الهجوم والدفاع، وتمارس مع الآخرين معها داخل المؤسسات مهام الدعوة والتبشير والضغط.

....

....

وأما العملية الانتخابية . جوهر الديمقراطية و(الدستورية) . فقد تُركت للمستعدين لأثقالها، وأهمها السعى لجمع التبرعات بكل الوسائل وما يترتب على ذلك من تبعات . والقابلين لأعبائها وفيها تحمل البقاء طول الوقت تحت الأضواء وأمام العدسات . مهما تدنى المستوى وترخص الأداء!

وفى هذه الأجواء التى اختلط فيها الجوهر مع المظهر، والمخبر مع المنظر. وقعت نقلة طالت صميم الشأن الوطنى فى الولايات المتحدة ولم يسجل أحد تاريخ هذه النقلة بالضبط، والغالب أنها حدثت تدريجيا (وبسرعة أيضا)، فإذا هى تأتى بتغيير جوهرى يمس قضية الحرية فى موضع القلب.

ففى تلك الأحوال وفى هذا المناخ لم تعد الأحزاب الأمريكية الكبرى . وفى مقدمتها الحزب الديمقراطى والحزب الجمهورى . مواقع تطرح فيها الأفكار وتناقش البدائل، وتتكامل البرامج لتُعرَض على الناخبين.

بل إن مرشحى الأحزاب فى السنوات الأخيرة (مثل ريجان . كلينتون . وبوش . وجور أو غيرهم) أصبحوا هم الذين يعرضون أنفسهم على أحزابهم، وهم الذين يتولون تدبير التمويل لحملاتهم، وهم الذين يتقدمون الصفوف إلى عوالم الصور، وعليهم هم وليس على الحزب خلق الانطباعات الكفيلة بفتح الطرق إلى البيت الأبيض وكذلك حمل الذى ينتمون له إلى المقاعد النيابية على تل الكابيتول).

ومعنى ذلك ببساطة أن المرشح يجىء معه ببرنامجه الانتخابى يقنع به الحزب، ويكون الحزب على استعداد لأن يقتنع بصلاحية أى مرشح، بمقدار ما لديه من إمكانيات الفوز يوم الاقتراع.

....

....

[والواقع أن النظام الانتخابى الأمريكى يساعد هذه الأحوال، فالقاعدة أن المرشحين يخوضون انتخابات أولية يتقدمون فيها بأسمائهم وبأفكارهم دون مساعدة من الحزب، لأن الحزب لا يستطيع تحمل العبء إزاء أعداد من المرشحين المتنافسين حتى وإن نسبوا أنفسهم جميعا إليه، لكنه عندما يحصل أحدهم فى الانتخابات الأولية على عدد من الأصوات يفوق غيره ويتأهل كى يكون مرشحا معتمدا قادرا على جذب وجلب الدوائر الانتخابية . فإن مؤتمر الحزب الذى يختار المرشح الرسمى . يبدأ من لحظتها فقط . فى تحمل المسئولية، وفى العادة فإن أى مرشح يصل إلى هذا المدى يجىء إلى الحزب حاملا معه ما يكفيه ويزيد من السياسات والبرامج، أو من اعتمادات التمويل التى تكفى وتفيض].

....

....

يترتب على ذلك أن الكوادر النشيطة فى الحياة السياسية لا تلزم مقار الأحزاب، وإنما تلحق نفسها بقوافل المرشحين، لأن الحركة هناك على الطريق وليست هنا فى مقار الأحزاب، ثم إن المكافآت وفيها المناصب الكبرى فى الإدارة الفائزة تدخل فى اختصاص الرئيس المُنْتَخَب . المستعد للمكتب البيضاوى، ولا تدخل فى اختصاص الحزب الذى يهجره الكل بعد العملية الانتخابية ويتركونه معلقا بين الأرض والسماء حتى يحين موعد أول انتخابات قادمة!

....

....

[وفى التقاليد المستقرة أن المناصب العُليا للدولة اختصاص الرئيس الذى يملك الحق فى أربعة آلاف وظيفة يعين فيها مَنْ يثق بهم مِنْ الرجال والنساء، من داخل حزبه أو من خارجه!].

....

....

ومع هذه النقلة الخطيرة فى الشأن الوطنى وفى جوهر العملية الديمقراطية، فإن مؤسسة الدراسات السياسية والاستراتيجية . وهى المركز الجاهز بالأفكار والرجال، تكون بطبائع الأمور وسطا مناسبا تظهر فيه أو تتقدم منه أكفأ العناصر المرشحة لأهم المناصب فى الإدارة الجديدة، وبالتالى فهى تنوب عن الحزب، وتتكفل بدله بخدمة أركان إدارته.

ونتيجة لهذه النقلة الخطيرة:

● فإن الأحزاب الكبرى تتحول إلى مجرد لافتات موسمية.

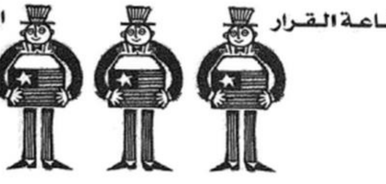
● والبرامج الجاهزة للتنفيذ تكون من إعداد مؤسسات معزولة عن عامة الناس، حتى وإن حاول رجالها أثناء صياغة البرامج أن يزينوها لأوسع درجة من القبول العام.

● والتنفيذ يبيت موكولا بأجهزة دولة تنتظر توجيهات الإدارة الجديدة ورجالها لتتحرك وفق ما يرسم أقطابها ويوجهون.

● وأخيرا يكون الكونجرس متشوقا ليسأل ويسائل، لكن الكثير من عناصر صنع القرار محجوبة . رغم جهود هائلة تبذلها هيئة مستشاريه.

ومعنى ذلك أن مجرى الحوادث يواصل مسيرته دون مسئولية دستورية، ودون رقابة شعبية، وفى حضور إعلام تراجعت الكلمة فيه لحساب الصورة، وأكثر من ذلك فقد أصبح مهمًا للقائمين عليه

إن مرشحى الأحزاب فى السنوات الأخيرة أصبحوا هم الذين يعرضون أنفسهم على أحزابهم، وهم الذين يتولون تدبير التمويل لحملاتهم، وهم الذين يتقدمون الصفوف إلى عوالم الصور، وعليهم هم وليس على الحزب خلق الانطباعات الكفيلة بفتح الطرق إلى البيت الأبيض



تحسين علاقاتهم مع المصادر المتحكمة فى مناصب الإدارة العليا لأنها العارفة بالأسرار والأخبار. وحتى الأفكار!

ورغم ما قد يُقال عن هذا المزيج الفوار من الخاص والعام، والفكر والعقل، والظاهر والخفى، والمدنى والعسكرى، والصورة والكلمة، والثروة والمال، والبحث والدرس وفى إطار مؤسسات تضج بالحيوية، إلا أن ذلك واصل بالضرورة إلى حافة الخطر لأسباب:

- أولها: على حد تعبير «أيزنهاور»، «أن نفوذ هذه المؤسسات ينطوى على تفويض لم يصوت عليه أحد، وسلطة لا تخضع لحساب.

- وثانيا: لأن المؤسسات على هذا النحو بعيدة عن المُساءلة والمسئولية، وهى تصبح. بتدافع التيارات نحوها ومن حولها. دوامة حركة تلف فيها وتدور جماعات ضغط ومصالح لها قوة جذب وشد لا تتوقف عن الفعل والتأثير.

- وثالثا: لأن الحركة الدوارة فى هذه المؤسسات تستطيع ممارسة تأثيرات على الرأى العام ومشاعره وعواطفه، خصوصا إذا استثير داعى الأمن ومعه حِمى الوطنية!

- ورابعا: وعليه فإن هذه المؤسسات عندما تحولت فى جزء من نشاطها إلى جماعات ضغط. فتحت المجال فى الوقت نفسه لجماعات أخرى غيرها تتوافق معها على نفس المصالح أو قريبا منها فى الداخل والخارج.

....

....

[وفى هذا النطاق وقع النفاذ الصهيونى الإسرائيلى إلى قلب العملية السياسية فى الولايات المتحدة، وساعدته أسباب قُرب واهتمام مشترك بأمن الشرق الأوسط، ومكن له وجود يهودى كثيف فى أوساط المال والفكر والإعلام، وصميم المأزق أن معظم الوجود اليهودى فى المؤسسات كان من غُلاة المتعصبين للمشروع الإمبراطورى الذين اختلط فى فكرهم هاجس الولايات المتحدة للهيمنة على العالم وعلى البترول، مع هاجس أمن إسرائيل، بمعنى ضمان وحماية توسعها (وكان «ريتشارد بيرل» داعية حملة العراق. يهوديا صهيونيا)].

....

....

[وتجنبا لمزالق التعميم فإنه لا يصح لأحد أن ينسى أن صحفيا من أهم الذين تصدوا لأصحاب المشروع الإمبراطورى الأمريكى وامتداداته الإسرائيلية. كان «سيمور هيرش»، وهو. أيضا. يهودى!]. ■

....

....

رابعــــا:

الأفكــــــار تتحــــــرك بالدبــابــات!!

■■ ولقد أطلق على هذه المؤسسات المشغولة بالفكر الاستراتيجى، والمعنية بتحويله إلى خطط وخرائط. وصف Think Tank، وكلمة Think تعنى التفكير، وكلمة Tank كلمة تتحمل أكثر من ترجمة، فهى الوعاء أو الحاوية، وهى «الدبابة الحربية» أيضا، ولعل الوصف أن يكون رمزا بالمصادفة، توافق مع كون المؤسسة السياسية والاستراتيجية الحديثة مهتمة بفلسفات القوة، ومشغولة كذلك باستعمالات السلاح.

ولعل خطورة التحالف الجديد بين الفكر والسلاح. فى ظروف عالمية طارئة. هى التى دعت مجلة الأيكونوميست وهى المجلة الرأسمالية المحافظة (والتى تملك أسرة «روتشيلد» معظم أسهمها، وكان اللورد «إيفلين روتشيلد» موجه سياساتها حتى وقت قريب). إلى أن تنشر افتتاحية مهمة يوم ١٥ فبراير الأخير (٢٠٠٣) بعنوان «هجمة دبابات الفكر».

وتصنع افتتاحية الأيكونوميست «هجمة دبابات الفكر» سنة ٢٠٠٣. أن تكون تكملة طبيعية تلحق بتحذير «أيزنهاور» من خطر المجمع الصناعى العسكرى (والفكرى) يوم ١٧ يناير ١٩٦١، والشاهد أن التحذير القديم. وكذلك التحذير الجديد يلتقيان على نفس الموجة.

بدأت الأيكونوميست افتتاحيتها قائلة بالنص:

«كثيرون فى العالم الخارجى يتمنون لو أن الولايات المتحدة ضبطت أعصابها ولو قليلا. إن هناك ضرورة الآن للجم كلاب الحرب التى أطلقتها الرأسمالية الأمريكية «النفاثة» (Jet Capitalism)، بحيث تتصرف الإدارة الأمريكية بمنطق أقرب إلى «جيمى كارتر» (الرئيس السابق الحاصل على جائزة نوبل للسلام)، وليس مثل «جون واين» (بطل أفلام الغرب المتوحش)، لأن المخاوف من الانفلات الأمريكى باتت حديث موائد العشاء كلها فى عواصم أوروبا على اختلاف مواقعها.

إن أمريكا أصبح لديها جيش خطر من المفكرين الذين احترفوا تهييج القوة الأمريكية واستثارتها حتى تندفع أبعد كل يوم على طريق الحرب، إن هؤلاء الناس وضعوا لأمريكا جدول أعمال يتضمن الآن خطة لتغيير الشرق الأوسط كله، وفيما هو واضح فإن الرأسمالية الأمريكية تمول وتدعم هذه المؤسسات الفكرية، التى ضلت طريقها وجنحت إلى الإصرار على تطبيق النظام الرأسمالى حتى فى عوالم الفضاء الخارجى، ثم يكون مطلوبا من العالم أن يصفق لهذا الجنوح الأمريكى المجنون المتحصن فى دبابات الفكر الجديدة!

إن هذه المؤسسات من نوع مؤسسة «التراث» (أنشئت منذ ثلاثين سنة)، ومركز «مانهاتن للدراسات» (أنشئ من ٢٥ سنة)، والمشروع الأمريكى (أنشئ منذ ستين سنة)، ومركز «هوفر» (أنشئ من ٢٥ سنة). أصبحت كلها تمارس نفوذا تعدى دائرة الفكر، ووصل إلى دائرة رسم السياسات وصنع القرارات.

....

....

وتستطرد الأيكونوميست:

«إن النفوذ فى بدايته فكرة، وفى الواقع أن الأفكار المحركة للقرار الأمريكى الآن هى ذلك السيل المتدفق من مؤسسات ومراكز الدراسات الاستراتيجية، وعلى سبيل المثال فإن أحد هذه المراكز وهو مركز «دراسات المشروع الأمريكى» American (AEI) (Enterprise Institute) هو الذى صك وأشاع للتداول تعبير «الدول المارقة»، وهو تعبير أدبى لم يلبث أن تحول إلى استراتيجية حرب.

إن خطورة القضية تظهر إذا تذكر من يعنيهم الأمر أن «دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الحالى لجورج بوش) و«كونداليزا رايس» (مستشارة الأمن القومى للرئيس). كلاهما من نجوم مركز «هوفر» للدراسات الاستراتيجية، وأن «ريتشارد تشينى» (نائب الرئيس الحالى)، وكذلك زوجته. كلاهما من نجوم مركز «دراسات المشروع الأمريكى»، كما أن «ريتشارد بيرل» (الذى كان رئيسا لمجلس الدفاع القومى فى وزارة الدفاع والمعروف بوصف «أمير الظلام») هو أكبر داعية لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بدءا من الحرب على العراق!

إن أحدا لم يعد فى مقدوره أن يناقش أن هذه المراكز أصبحت بذاتها حكومة الظل فى أمريكا، بل وتأكد أنها الحكومة الخفية الحقيقية التى تصوغ القرار السياسى وتكتبه، ثم تترك مهمة التوقيع عليه للرئيس ومعاونيه الكبار فى الإدارة، وهذا وضع يسىء إلى الفكر فى قيمته، ويسىء إلى الإدارة فى قرارها!].

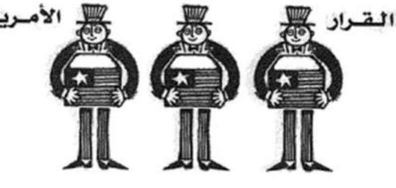
....

....

وتستطرد الأيكونوميست تقول:

«إن علو دور هذه المراكز وسطوتها ونفوذها فى عملية صنع القرار السياسى ليس له تفسير إلا ذلك «العقم» الذى أصاب الأحزاب السياسية الكبرى فى أمريكا، وترك للمال دور صانع الأفكار وصانع السياسات فى

صناعة القرار الأمريكى. الآن!



> **اضطر «ريتشارد بيرل» بعد ما نشره «سيمور هيرش» ووثقه، أن يقدم استقالته من رئاسة مجلس سياسات الدفاع، لكنه احتفظ بموقعه فى مركز «دراسات المشروع»، وواصل منه نشاطه، وإصراره على الدعوة إلى رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط مدخلها «احتلال العراق»!**

الدولة الأمريكية العظمى. وكان المال هو الذى وضع الجامعات الأمريكية العريقة فى خدمة هذه المؤسسات، فإذا الغطاء أكاديمى علمى، وإذا الواقع سياسى عسكرى. يمكن أقلية صغيرة خفية من التحكم فى مصائر العالم وشعوبه.

وكان يُقال دائما أن المال هو صانع «الحرب» و«السلام»، وأنه الأرجل والأقدام التى تمشى. وتجرى. بها السياسة، وعليه فإن النظر إلى «مواقع المال» لابد منه قبل النظر إلى «مواقع الصراع»، كما أن البحث عن الرجال مقدمة ضرورية للبحث فى وقائع ما جرى ويجرى!».

وكان ما قالته الأيكونوميست دقيقا فى وصف الحال، وإن تأخر بمقدار ما كان تحذير «أيزنهاور» صادقا فى لفت النظر إليه فى الصباح المبكر!

وهنا فإن نظرة سريعة إلى مواقع المال (فيما يتصل بموضوع القرار الأمريكى الراهن والمؤثرات الواقعة عليه). لابد لها أن تتوقف أمام الشركات الأمريكية العملاقة، وحجم مبيعاتها الذى يمثل ٢٥٪ من الناتج العالمى.

ويطرح الاقتصادى الأمريكى الكبير «كينيث جالبرايت». مجموعة أرقام لتقريب الصورة وتجسيدها فيذكر:

- أن مبيعات خمس شركات أمريكية هى (جنرال موتورز. ووال مارت. وإكسون موبيل. وفورد. وديملر كرايسلر) تتجاوز الناتج القومى لـ ١٨٢ دولة فى العالم.
- أن دخل شركة «إكسون» للبترول يفوق دخل دول «الأوابك» (مجموعة الدول العربية المصدرة للبترول) مجتمعة!
- وأن شركة «جنرال موتورز» أكبر من «الدانمرك»، وأن شركة «ديملر كرايسلر» أكبر من «بولندا»، وأن شركة «بكتيل» للمقاولات أكبر من أسبانيا، وأن شركة «شل» أكبر من «فنزويلا»، وأن شركة «سونى» أكبر من «باكستان».

....

[والملاحظة الأهم أن هذه الشركات الكُبرى. وهى القوى الصانعة للعولمة. هى الأسخى تبرعا لمرشحى الانتخابات الرئاسية والتشريعية فى الولايات المتحدة، وهى الأكبر إسهاما فى تمويل نشاط مؤسسات ومراكز التفكير السياسى والإستراتيجى.

وفى صدد الحرب على العراق، فإن شركة «هاليبورتن» لمقاولات النفط بدأت قبل أكثر من عام قبل حرب العراق. ترتب وتتعاقد مع آخرين على عقود لإعادة إصلاح وتحديث مرافق النفط العراقى فى حدود ٨.٧ مليارات دولار!

وبعدها فإن شركة «إكسون» هى التى بدأت تضع يدها على عمليات استغلال النفط العراقى وتخطط لإنتاج يصل إلى ٧ أو ٨ ملايين برميل يوميا، كما أن شركة «بكتيل» هى التى حصلت على أهم عقود الإعمار بعد الحرب، مستعينة باثنين وعشرين ألف شركة للمقاولات دعتها للعمل معها من الباطن!

وفى نفس الوقت فإن خبراء مراكز الأبحاث والدراسات السياسية والإستراتيجية وصلوا موجات إلى العراق بعد الغزو يدرسون على الطبيعة مستقبل هذا البلد، وكيف يمكن هندسة مستقبله فى المنطقة. وكان وصول الباحثين السياسيين مع الجنرالات المقاتلين مع مديرى الشركات. موكبا واحدا، والنتيجة زحفا كاسحا من الفكر والمال والسلاح توجهه مؤسسات الدراسات السياسية والاستراتيجية. التى أصبحت حكومة ظل تحولت صلتها بالإدارات المتعاقبة فى واشنطن (جمهورية وديمقراطية) إلى شىء أشبه بالباب الدوار يدخل ويخرج منه رجال ونساء الصفوة الأعلى صيتا والألمع ذكاء والأقرب مباشرة إلى وضع الخيارات والبدائل أمام المسئولين عن قرارات الحرب والسلام فى البيت الأبيض، أو على رأس إدارات الحكومة الفيدرالية، هذا إذا لم يقدر لهم أن يجلسوا بأنفسهم على القمة من هذه الإدارات (كما حدث مع «كيسنجر» و«رامسفيلد» و«بيرل» وعشرات غيرهم).

ولم يكن كثيرون يعرفون ما فيه الكفاية عن جهاز يسمى مجلس سياسات الدفاع القومى للولايات المتحدة، ولا عن تركيبته، ولا عن دوره فى صنع القرار الأمريكى إلا عندما انفجرت قضية «ريتشارد بيرل» الذى كان هو وزميله «بول وولفويتز» أقرب الناس إلى أقوى رجلين فى إدارة «جورج بوش»، وهما «ريتشارد تشينى» (نائبه) و«دونالد رامسفيلد» (وزير دفاعه).

وكان «ريتشارد بيرل» العقل المفكر لاستراتيجية الأمن القومى الأمريكى منذ بداية رئاسة «جورج بوش»، وكان «بيرل» المسئول عن مجلس الدفاع، كما كان فى نفس الوقت رئيسا لمؤسسة «المشروع الأمريكى»، ومديرا لبرنامج «القرن الأمريكى الجديد»، وهو البرنامج الرئيسى لتلك المؤسسة، والذى كان دعاته ورعاته أكبر المتحمسين لرسم خريطة شرق أوسط يكون مفتاحها احتلال العراق!

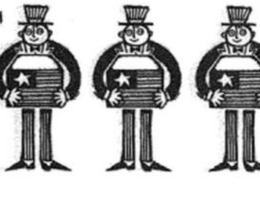
وقد انفجرت قضية «ريتشارد بيرل» عندما كشف الصحفى الأشهر «سيمور هيرش» تحقيقا فى مجلة «النيويوركر» واسعة النفوذ يقول ويثبت فيه «أن ريتشارد بيرل تقاضى مكافآت من موردى سلاح، فيما هو يمارس عمله كرئيس للجنة سياسات الدفاع. تزيد على ثلاثة أرباع المليون دولار سنة ٢٠٠١، وأن تصرفه فى تلك الواقعة انطوى على استغلال للنفوذ، أو على الأقل على «تضارب فى المصالح» مخالف للأخلاق وفى الغالب مخالف للقانون أيضا».

ولم يكن هناك مجال للطعن فى التهمة، لأن البراهين التى أوردها «سيمور هيرش» كافية وافية، كذلك لم يكن هناك مجال للطعن فى الرجل الذى وجه التهمة إلى «بيرل» لأنه من أكثر الصحفيين احتراما فى واشنطن وأقدمهم عهدا بالمهنة وأكثرهم شهرة (وفوق ذلك فإنه يهودى مثل «ريتشارد بيرل»، ومن ثم فلا يمكن أن تلحقه تهمة «معاداة اليهود» (وإنكار الهولوكست). كما كان يمكن أن يحدث لو أن اتهام «بيرل» جاء من غيره).

واضطر «ريتشارد بيرل» بعد ما نشره «سيمور هيرش» ووثقه، أن يقدم استقالته من رئاسة مجلس سياسات الدفاع إلى «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع، لكنه احتفظ بموقعه فى مركز «دراسات المشروع»، وواصل منه نشاطه، وإصراره على الدعوة إلى رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط مدخلها «احتلال العراق»!

كانت قضية «ريتشارد بيرل» واستقالته كشفا لأهم مواقع القوة فى السياسة الأمريكية، وإشهارا لشخصيات سبعين رجلا وامرأة يؤثرون على القرار الأمريكى ويتركون بصماتهم عليه فى زمن تسعى فيه الولايات المتحدة إلى التفرد بالسيطرة على العالم والبت فى مصائره، ومن ناحية أخرى فقد كانت تلك القضية تذكرة حية بالكابوس الذى حذر منه «أيزنهاور» قبل أربعين سنة، وهو السيطرة غير المطلوبة وغير الشرعية لمجمع مالى. صناعى. عسكرى. فكرى على سلطة القرار والابتعاد به كثيرا (وكثيرا جدا) عن أى رقابة تشريعية وأى مراجعة ديمقراطية (مع أنه لابد أن يحسب للديمقراطية الأمريكية أن رجلا مثل «سيمور هيرش» أطلق رصاصة التحذير الأولى فى قضية «ريتشارد بيرل»).

والغريب أن «ريتشارد بيرل» وجه خطاب استقالته إلى «دونالد رامسفيلد» مصحوبا بحيثيات تكاد أن تكون توثيقا للصلة بين أطراف المجمع الصناعى. العسكرى. الفكرى. الذى حذر منه «أيزنهاور» ونبه



مبكرا إلى خطره على سلامة القرار الأمريكي.

وفي خطاب استقالته وحيثياتها كتب «بيرل» إلى «رامسفيلد» يقول:

عزيزي الوزير:

«إنني أتقدم إليك باستقالتي ليس نتيجة لإحساسي أنني اقترفت خطأً لأني مازلت مقتنعا ببراءتي مما نُسب إلى وسوف أدافع عن نفسي في هذا الأمر بكل الوسائل.

لكن مبادرتي بالاستقالة دافعها رغبتي في عدم إحراجك، وكذلك تجنيب التشويش على سياسة الولايات المتحدة في ظرف تترتب عليها فيه مسئوليات دقيقة، ولست أريد لما يثور حولي أن يلفت الانتباه ولو للحظة واحدة عن التحديات الكبرى التي يقع عليكم مسئولية التعامل معها».

ثم يواصل «ريتشارد بيرل» ليقول في خطاب استقالته:

«إن المسئولين الكبار عن إدارة الدولة يجدون أنفسهم دائما في حاجة إلى طلب النصيحة والرأي من جهات خارجية مستقلة عن إداراتهم، ذلك أن إدارات الدولة في العادة محكومة برؤى تقليدية تكرر نفسها، في حين أن المسئوليات الجديدة التي تتحملها الولايات المتحدة لم تعد تكفيها تلك الرؤى التقليدية.

والهيئات التي يقع عليها واجب تقديم مثل هذه النصائح والآراء لابد أن تكون بعيدة عن رؤى الإدارة التقليدية، ولا يكفل لها مثل هذا الاستقلال أكثر من اتصالها بالمصالح الكبرى للولايات المتحدة.

ولابد من ملاحظة أن النصيب الأكبر من المعرفة والتجربة فيما يخص المصالح الحقيقية المتصلة بمستقبل الولايات المتحدة. متصلة في الواقع بنشاط رأس المال الحر الأمريكي، وعليه فلا مفر من وجود صلات بين النصيحة والرأي، وبين المعرفة والتجربة، وهذا يخلق مجالا لعلاقة ملتبسة وتلك علاقة يمكن التغلب عليها بضمانتين: العلانية في التصرف (Disclosure)، والجراة في الموقف (Recusal)».

ثم يصل «ريتشارد بيرل» إلى القول:

«إن ذلك هو الذي دعا إلى إنشاء مجلس سياسات الدفاع الذي تشرفت برئاسته طول السنتين الأخيرتين، والذي ناقشنا فيه بـ «علانية»، وجراة، موضوعات مثل سياسة الولايات المتحدة إزاء العراق وتدمير ما يملكه من أسلحة الدمار الشامل، ومشاكل العلاقات الأمريكية الأوروبية، والحرب على الإرهاب وغيرها، وكانت تلك كلها مناقشات غنية ومفيدة وقابلة للتنفيذ، لأنكم وكما تعرفون فإن مستودع الخبرة لهذا المجلس يضم عددا من وزراء الخارجية السابقين، ووزراء الدفاع والطاقة، ومديرين تولوا إدارة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وعدد من زعماء الأغلبية والأقلية في مجلسي الكونجرس، ومجموعة من ألمع أساتذة الجامعات المهتمين بالسياسة، إلى جانب عدد من الفائزين بجائزة نوبل في الاقتصاد، ومع هؤلاء جميعا عدد من الضباط المتقاعدين الذين خبروا مطالب القوة المسلحة واستعمالاتها في ميادين مختلفة!».

كان «ريتشارد بيرل» نموذجا لنوعية الرجال والمصالح التي تحيط بمجلس سياسات الدفاع الذي ظل يرأسه حتى شهر مارس الأخير (٢٠٠٣)، واللافت للنظر أن «بيرل» زيادة على كل مناصبه كان في نفس الوقت عضوا في مجلس إدارة شركة «هولينجر»، وهي دار صحفية تملكها شركة قابضة يملكها المليونير «كونراد بلاك»، لكي تشرف على جرائده ومجلاته، وفيها مجموعة التلجراف (الديلي تلجراف، والصنداي تلجراف) الصادرة في لندن، وفيها عدد من الصحف الكندية الكبرى، ومن الغريب أن فيها أيضا جريدة «الجيروزاليم بوست» التي تصدر في إسرائيل!

وقد حدث بعد ذلك أن «ريتشارد بيرل» بدأ في نوفمبر سنة ٢٠٠١ في تأسيس شركة لخدمات الأمن الداخلي، وكان ضمن شركائه فيها زميل له في مجلس سياسات الدفاع هو «هنري كيسنجر» وزير الخارجية الأسطوري من أيام «ريتشارد نيكسون» و«جيرالد فورد» (في النصف الأول من سبعينيات القرن العشرين)، وكان «بيرل» هو الذي رشح «هنري كيسنجر» لكي يرأس لجنة خاصة للتحقيق في وقائع يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بما في ذلك تحديد المسئولية، والبحث عن أسباب القصور الأمني، وكانت تلك لجنة من خارج الكونجرس أنشئت بعد أن اعترفت لجنته الأصلية ذات الصفة الشرعية (الدستورية) بعجزها عن مواصلة التحقيق، لأن السلطات المعنية، وضمنها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ووكالة التحقيقات الفيدرالية. تمتنع عن التعاون معها وتحجب عنها الوثائق والمعلومات والشهود. وعندما أعلن الرئيس «بوش» عن ترشيح «كيسنجر» لرئاسة لجنة تحقيق (مستقلة!)، تعالت أصوات تتساءل عن طبائع العلاقات والارتباطات والمصالح، ووجد «كيسنجر» نفسه في غِنى عن مُساءلات وتحقيقات تتعرض له ولنشاطاته وارتباطاته، ولذلك قرر أن يعتذر عن المهمة.

وكذلك فإن مجلس سياسات الدفاع هيئة تستحق نظرة سريعة، ففي داخل هذا المجلس سبعون رجلا وامرأة. كلهم له دور وإسهام بارز في السياسة الأمريكية، وكلهم له مصالح طائلة في قلاع المال والأعمال من البنوك إلى البترول إلى السلاح، وكلهم مدنيون وعسكريون أصحاب تواجد كثيف في المؤسسات الاستراتيجية (مواقع حشد دبابات الفكر)، وكلهم له جدول أعمال ذاتي وعام تختلط فيه المنافع المباشرة بأمن الأوطان وسياساتها!

ومجلس السياسات لا يتكلم كثيرا عن أعماله، ولا ينشر شيئا من مداولاته، ولا يصدر بيانات عن توصياته، وكل ما هو متاح عن نشاطه ورقة أو ورقتان في سجلات البنتاجون لمجرد التسجيل.

وعلى سبيل المثال فإن آخر ورقة متاحة عن اجتماعات مجلس سياسات الدفاع، تجيء على النص التالي:

مجلس سياسات الدفاع

جدول أعمال

جلسة الخميس: ٢٧ فبراير ٢٠٠٣

٩ - ٩.٣٠ بوفيه إفطار خفيف في البنتاجون، غرفة الاجتماعات رقم ٨٦٩.

٩.٣٠ - ١٠.٣٠ مناقشة في الدور المركزي للفضائيات

١٠.٣٥ - ١١.٣٥ مناقشة عن الفيش الإعلامية الشاملة

١١.٣٥ - ١٢.٠٠ استراحة

١٢.٠٠ - ١.٠٠ غداء في القاعة الذهبية ٨٥٩.

١.٠٠ - ٢.٠٠ تقرير مخابرات عن المستجدات (!)

٢.٠٠ - ٣.١٥ كوريا الشمالية: تقرير معلومات

٣.١٥ - ٤.١٥ مناقشة (كوريا الشمالية)

٤.١٥ - ٤.٣٠ استراحة

٤.٣٠ - ٥.٣٠ إيران. مناقشة

٩.٥.٣٠ جلسة عمل مفتوح

اليوم التالي: الجمعة ٢٨ فبراير ٢٠٠٣

٩ - ٩.٣٠ بوفيه إفطار خفيف القاعة الذهبية في البنتاجون، الغرفة رقم ٨٥٩.

٩.٣٠ - ١٠.١٥ تقرير مركز دراسات حفظ السلام

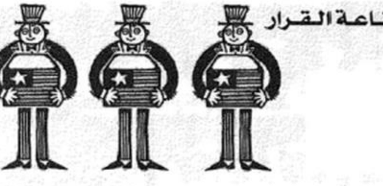
١٠.١٥ - ١١.٣٠ تقرير نائب رئيس أركان الحرب البريطاني

١١.٣٠ - ١٢.٣٠ مناقشات

١٢.٣٠ - ١.٣٠ غداء ومناقشة مفتوحة مع «تنيت باجيت» (وزير الدفاع

مجلس السياسات
لا يتكلم كثيرا عن أعماله،
ولا ينشر شيئا من مداولاته،
ولا يصدر بيانات عن توصياته،
وكل ما هو متاح عن نشاطه ورقة
أو ورقتان في سجلات
البنتاجون لمجرد التسجيل

صناعة القرار الأمريكي . الآن!



لشئون السياسات» (القاعة الذهبية ٨٥٩).

١,٣٠ ـ ٤,٠٠ مناقشة مفتوحة

٤,٣٠ ـ ٥,٣٠ عرض من وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد»، ومن نائبه «بول وولفويتز».

....

[وفيما عُرف لاحقا عن المناقشات التي جرت ذلك اليوم بصدد الخطر الذي تمثله كوريا الشمالية، فقد تبين أن مجلس سياسات الدفاع بحث تقريرا أعده «ريتشاردسون» (حاكم تكساس الحالي والمفاوض الرئيسي في مشكلة كوريا الشمالية). ونتيجة للمداولة خرج بأن الخيار العسكري غير وارد في الوقت الحالي (بالنسبة لكوريا الشمالية)، كما هو الحال في شأن العراق لثلاثة أسباب:

ـ أولها: أن حربا ضد كوريا الشمالية سوف تكون عملا عسكريا خطرا ضد قوة تملك رادعا نوويا حقيقيا، حتى وإن كان محدودا في حجمه.

وفي حين أن العمل ضد العراق يمكن أن يكون سهلا، لأنه بلد استنزفته حرب الخليج الأولى ثماني سنوات، وأنهكته حرب الخليج الثانية بضربة صاروخية قاسية، ثم طوقه حصار اقتصادي ونفسي دام اثنتي عشرة سنة. فإن كوريا الشمالية ظرف مختلف إلى حد كبير.

ـ ثانيا: إن الجوار العراقي يساعد الخيار العسكري الأمريكي ويجعله قابلا للتحقيق، في حين أن الجوار الكوري الشمالي وفيه (الصين واليابان وكوريا الجنوبية) لا يرغب في ترك القوة العسكرية الأمريكية مطلقة العنان، ويفضل معالجة الشأن الإقليمي . أولا . في إطار الإقليم وليس من خارجه، وهذا يقيد العمل الأمريكي إلى حد قد يكون مؤثرا.

ـ وأخيرا: فإن كوريا الشمالية . على عكس الحال في العراق . ليست فيها جوائز اقتصادية تساوي المخاطرة.

....

....

[ومن المثير أن الوفد الكوري الشمالي الذي اجتمع مع ممثلين لوزارة الخارجية الأمريكية في «بكين». في شهر مارس الماضي وبعد أقل من أسبوعين على مناقشات مجلس الدفاع . كان هو الذي أبلغ الجانب الأمريكي رسميا بأنهم بدءوا بالفعل في تخصيب اليورانيوم، والمعنى أنهم الآن على الطريق السريع إلى أسلحة نووية، وكانت الرسالة مباشرة بما مؤداه أن الولايات المتحدة لابد لها أن تتكلم وأن تتفاوض مع كوريا الشمالية، لأنها ليست غنيمة سهلة].

....

....

وتتكرر اجتماعات مجلس الدفاع مرة كل شهر أو شهرين حسبما تتطلبه مسارات الحوادث، وتتلاقى وتتفاعل أفكار وتوجهات وتتداخل معها رغبات المال والسلاح والسياسة، وتُتخذ توصيات تتحول في البيت الأبيض ووزارات الدفاع والخارجية ووكالة المخابرات المركزية إلى قرارات، بعضها يمس قضايا الحرب والسلام، وتتعرض أمم وشعوب للعواصف والأعاصير. لكن أمير الظلام وأصحابه في منأى عن الحساب وبعيدا عن المسئولية، يساعدهم على ذلك أن الإمبراطورية الأمريكية مشروع خاص يتقدم ويسحب الدولة وراءه، ويتصرف دائما من وراء حجاب بغير تفويض شرعي، وبدون مسئولية دستورية، وبدون رقابة أو متابعة، وهذا بالضبط ما حذر منه «أيزنهاور»، أوائل الستينيات، وكذلك نقلته «الأيكونوميست» أخيرا، وكان التحذير السابق ولفت النظر اللاحق خدمة لروح الديمقراطية في الولايات المتحدة، وليس . بالتأكيد . رغبة في التشهير بها.

....

....

[وللإنصاف فإن التجربة الأمريكية حافلة بكثير يستدعي الإعجاب (ابتداءً من روح المبادرة إلى روح الحرية)، وبالتالي فإنه من مآسي التاريخ الكُبرى أن يتمكن عدد من الرجال والنساء لا يزيد عددهم عن مائة إلى مائتين. بينهم سبعون عضوا في مجلس سياسات الدفاع . من الاستيلاء على القرار الأمريكي والاندفاع به إلى «مشروع مخيف وشبه مستحيل» في طلب الهيمنة على العالم، بغير منافس، وإلى الأبد].

....

....

ويستحق النظر أن كل واحد أو واحدة من هؤلاء الرجال والنساء الذين استولوا على القرار الأمريكي مربوط بهذه العلاقة الثلاثية غير المقدسة للمال والسلاح والفكر، إلى درجة تكاد أن تضع نموذجا واحدا متكررا عشرات المرات:

ـ كل واحد منهم رئيس مجلس إدارة أو العضو المنتدب لشركة من أهم شركات السلاح أو البترول أو الاستثمار المالي، ويحصل سنويا على ما لا يقل في المتوسط عن عشرة ملايين دولار.

ـ وكل واحد منهم له مقعد في قائمة اجتماعات مجلس السياسات التابع لوزارة الدفاع، أو له صلة وثيقة به عن طريق واحدة من مؤسسات التفكير السياسي والاستراتيجي، وهي بالعشرات.

ـ وكل واحد منهم يعرف طريقه إلى الباب الدوار أمام معاقل السلطة في الولايات المتحدة، فهو يدخل من الشركات الكبرى، أو من مؤسسات الفكر إلى أعلى مواقع الإدارة الحكومية، ليقضي مدة في الممارسة العملية لتنفيذ القرار، ثم يعود من الباب الدوار إلى الشركة الكبيرة أو إلى مؤسسة الدراسات السياسية والاستراتيجية صاحبة النفوذ . وهكذا.

وهناك سؤال يفرض نفسه:

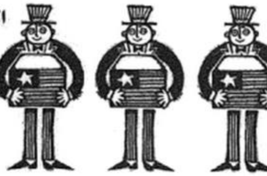
كيف حدث أن قلة من الرجال والنساء تمكنوا من الاستيلاء على سلطة القرار في بلد بحجم الولايات المتحدة، وقوته، وحيويته؟. وهذا سؤال سوف يتوقف التاريخ أمامه مندهشا ومدققا، وفي الغالب. وبدون استباق للنتائج. فإن ما يمكن تسميته بـ «سياسات الخوف» قد يكون الداعي والسبب، خصوصا إذا جرى قياس الحاضر الذي لم يكتمل. على ماض تمت فصوله وانطوت صفحته.

وفي هذا الصدد فإنه يمكن استعادة ظروف الفتنة الكبرى التي كادت أن تخنق روح الحرية والإبداع في الولايات المتحدة وقت محاكم التفتيش التي نصبها السناتور «جوزيف ماكارثي» في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية (أواخر الأربعينيات . أوائل الخمسينيات)، حين بدأ حملته (التي أشهرت في التاريخ اسمه وحملت وصف المكارثية) بدعوى التصدي «للنشاط الخارج من ولائه لأمريكا»، وفي هذه الحملة راح «ماكارثي» يستدعي أمام لجنته ويحاسب ويعاقب كل من تصور أنهم جنحوا إلى اليسار في أفكارهم، ومن ثم انحازوا للشيوعية، وأصبح نشاطهم غير أمريكي Un American أو مُعاديا للولايات المتحدة بصريح العبارة.

وقد استطاعت هذه الحملة أن تغطي الحياة السياسية والأدبية في أمريكا بضباب كثيف ضاقت فيه مساحة الرؤية، وشاع الشك، وتعمق الخوف، فقد راح ألمع الفنانين والأدباء وأبرز نجوم المسرح والسينما وأكفأ أساتذة الجامعات في العلوم الاجتماعية والطبيعية يتساقطون كل يوم تحت مطارق الاتهامات المرسلة يوجهها إليهم السناتور «ماكارثي» ولجنته.

ثم جاء الوقت وتخلصت الولايات المتحدة من كابوس الخوف، وراحت تلتفت وراءها وتتساءل كيف جرى ما جرى؟

من مآسي التاريخ الكُبرى أن يتمكن عدد من الرجال والنساء لا يزيد عددهم عن مائة إلى مائتين . بينهم سبعون عضوا في مجلس سياسات الدفاع ـ من الاستيلاء على القرار الأمريكي والاندفاع به إلى «مشروع مخيف وشبه مستحيل» في طلب الهيمنة على العالم، بغير منافس، وإلى الأبد



وفى هذه المرة يتكرر الكابوس وإن اختلف شكله عن الكابوس السابق، كما أن نهايته يصعب رؤيتها فى الزمن القريب، ذلك أنه مع التسليم بأن قلة من الناس (فى محور المال والفكر والسلاح) خطفوا القرار السياسى للولايات المتحدة الأمريكية، فليس هناك شك فى أن هذه القلة نجحت حتى الآن فى اللعب على مشاعر كتل واسعة فى الولايات المتحدة، وبالتالى فإن هناك أغلبية أمريكية أخذتها حُمى الوطنية (المُدّعاة)، وراحت تزهو بما تراه من حماقة القوة (المتوافرة!).

ومرة أخرى فإن «سياسات الخوف» تواصل فرض نفسها رغم اختلاف الظروف وبينها:

١ . العدو الذى عرفته الولايات المتحدة طوال النصف الثانى من القرن العشرين . اختفى فجأة من أمامها، مع ملاحظة أن الناس يعرفون أنفسهم بالعدو الذى يواجهونه، أكثر مما يعرفون أنفسهم بالصديق الذى يقف معهم.

والغريب فى طبائع القوى أن غياب العدو يحدث «وحشة» أكثر من وحشة يحدثها غياب الحليف.

فالقوى المعنية بالصراعات تكون قد عبأت إمكانياتها المادية، ورتبت استعدادها السياسى والمعنوى على مواجهة عدو ما . فإذا ما اختفى ذلك العدو فجأة فإن حالة التعبئة تظهر وكأنها فقدت توازنها، وضيعت مبرر وجودها ذاته . وفى أحوال اقتصادية واجتماعية ونفسية متداخلة كما هو الحال فى الولايات المتحدة، فإن فقدان التوازن وضياع مبرر الوجود قادر على إحداث خلخلات بعيدة الأثر، خطيرة فى تداعياتها .

٢ . وأصحاب المشروع الإمبراطورى لا يريدون شيئا من ذلك كله، بل يجدون فى هذه اللحظة بالتحديد فرصة سانحة لهم، لأن الاتحاد السوفيتى الذى سقط فى الحرب الباردة كان أقوى منافس وأخطر عدو، فإذا وقع اختفاؤه فهذه هى اللحظة المناسبة تماما للمشروع الإمبراطورى يمسك بالقمة الدولية، ويكرس وجوده وحده عليها، ويمنع ظهور قوى أخرى تنافس أو تتحدى.

لكن المشروع الإمبراطورى يحتاج إلى استمرار التعبئة ضد «عدو» حتى تظل القدرات الأمريكية . المادية والسياسية والنفسية . على يقظتها، فلا تنفرط بغياب المنافس أو العدو، ولا يلحق بها ما يحمله الانفراط السريع من اختلالات بعيدة المدى، وعواقب وخيمة على المصالح الكبرى لأطراف المشروع الإمبراطورى الأمريكى (وغيرهم ملايين من العاملين فى مجالات المال والصناعة والبترول والسلاح والفضاء والطيران إلى آخره).

ولم يكن يحفظ اليقظة ويمسك بدرجة التعبئة إلا العودة مرة أخرى إلى «سياسات الخوف»، مع ملاحظة أن التجربة الأمريكية بطبيعتها تنشر المجتمع أفرادا متنافسين فى حالة الطمأنينة، حيث ينصرف كل منهم إلى مشروعه الخاص، لكن الخوف. وتلك مرة ثانية طبيعة التجربة . يُعيد جمع الشاردين لكى يواجهوا معا مخاوف الخطر.

٣ . وفى المرة السابقة . على عهد «الخوف الماكارثى الكبير». كان الخطر هو الشيوعية، والآن فهناك خطر مستجد يستعيد الخوف ويسترجعه، وهو «الإرهاب الدولى» و«أسامة بن لادن» و(جماعاته الإسلامية)، و«صدام حسين» (وأسلحته للدمار الشامل).

وكان ضغط أصحاب المشروع الإمبراطورى أن هذه المخاطر المستجدة لا تقل ضراوة عن المخاطر السابقة، وكذلك علت نبرة التخويف، وهو ليس تخويفا للأمريكيين وحدهم، وإنما لغيرهم معهم، وعليه فهى ضرورة حيوية لقيام تحالف «ضد الإرهاب» لا يقل صلابة وحزما عن التحالف ضد النازية والشيوعية.

....

....

[وعندما انقضت صواعق النار على نيويورك وواشنطن، فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فإن ذلك الحدث المروع جاء هدية من السماء (وربما من غيرها) إلى المتشوقين للخوف والتخويف، وظنهم أنها الفرصة المناسبة لاستبقاء بل وتكثيف التعبئة الداخلية (المادية والسياسية والنفسية)، وللمحافظة على التحالف الدولى، وفى التقدم بما يكفى من الذرائع الأخلاقية على طريق التوسع والتعزيز الإمبراطورى، وكانت صيحة أطراف المشروع الإمبراطورى (الصناعى . العسكرى . والفكرى) أن الخطر هناك فى الشرق الأوسط، وفى العالم العربى وعلى أطرافه، وليس أمام الولايات المتحدة غير أن تواجه وأن تنتصر.

وبدأت الحرب على أفغانستان، بدعوى ضرب قواعد الإرهاب العالمى، ثم توجهت الأسلحة إلى العراق بدعوى نزع أسلحة الدمار الشامل.

واشتعلت حرب فى أفغانستان غريبة، وتلتها حرب فى العراق أغرب! ■





كاريير.. أول تكييف
تكلمه بالتليفون
Platinium
N2
Tele Carrier
Fortune Promoseven
الآن مع أجهزة تكييف كاريير سبليت الجديدة يمكنك:
• التحكم فى التشغيل والإغلاق من خارج المنزل بالتليفون من خلال تلى كاريير.
• الاتصال عن طريق التليفون العادى أو المحمول .
• التحكم فى أكثر من جهاز تكييف كاريير فى وقت واحد .
كاريير .. خبرة بتطور
كاريير ... أول تكييف فى مصر
تشغله وتقفله من بره البيت بالتليفون
Miraco
Carrier
لاشىء يفوق الخبرة ... لاشىء يفوق كاريير
لخدمة العملاء والمبيعات فى القاهرة الكبرى اتصل ب: 19111 بسعر المكالمة العادية
ولدى كل الموزعين المعتمدين ..
Carrier
One hundred years of innovation.
شركة مصر لصناعة التبريد والتكييف ش.م.م
المركز الرئيسى ، ١٥ شارع مكة المكرمة - خلف نادى الصيد - المهندسين. مصر الجديدة ، ٢٠٤ شارع الحجاز. مدينة نصر ، ١٨ شارع عبد الله العربى - إمتداد شارع الطيران - القاهرة. شبرا ، ٧٠ شارع شبرا - القاهرة. المعادى ، ٢/١١ شارع النصر - المعادى الجديدة. الهرم ، ١٩٨ شارع الملك فيصل - تقاطع الملك فيصل مع المريوطية - الهرم. الإسكندرية ، ٥ شارع أبرت الأول - بجوار كوبرى كليوباترا - سموحة ت : ٤٢٥٢٠٠٥ (٠٣) الغردقة ، شارع المحكمة ت : ٥٤٩١٥٥ (٠٦٥) الأقصر ، شارع الروضة الشريفة - العوامية ت : ٣٧٢٩٤١ (٠٩٥)

بعد أن فقدت الجيوش التقليدية قيمتها..

بعد كل ما جرى.. ألا توجد فائدة حقًا؟ وهل البديل الوحيد أمامنا هو الانتحار. بعد «سقوط» بغداد؛ العاصمة العربية. وبعد «اعتقال» زعيم «عربى» حصل يومًا على جائزة نوبل للسلام، فى مقره. لما يقرب من عامين. أمام أنظار العالم أجمع. وبعد المشاهد «الفضائية» للمقابر الجماعية. وبعد أن تمت إذابة أجساد آلاف العراقيين، بالقنابل الحرارية، والذكية.. والميكرويف، وغيرها من الأوصاف العلمية البراقة. وبعد ما بدا. على السطح على الأقل. وفى كثير من الكتابات والتعليقات «أن لا فائدة لمقاومة من أى نوع أمام تلك القوة الأسطورية» الطاغية. وأن لا مكان هذه الأيام للشجاعة والإيمان والوطنية.. أمام الصواريخ الموجهة بالليزر، والقنابل زنة مائتى ألف رطل. وأن «من الحمق مناطحة الصخور». وأن «الأقوى فى تلك الأيام. لا الأكثر عدلاً. هو المنتصر دائمًا».

انتشرت مشاعر الإحباط واليأس.. والانسحاب والاكتئاب. وزاد عدد المترددين على دور العبادة.. وحانات الخمور.. وعيادات الطب النفسى. وبدا أن الهزيمة «النفسية» ربما تكون أفدح وأعمق أثرًا، وأطول أمدًا من تلك العسكرية أو السياسية.

واتضح أنه بعد أن فقدت الجيوش التقليدية قيمتها يصبح ضروريًا الإعداد النفسى لمواجهة «من نوع آخر».

«وجهات نظر» طلبت من الدكتور يحيى الرخاوى أن يكتب لنا فى «سيكولوجيا ما جرى.. وما يجرى»

عن التعليم.. والحريات.. والخصوصية.. والأمل

قراءة فيما جرى!

يحيى الرخاوى

■■ من واقع ما أمارسه فى مهنتى، يعتبر المرض النفسى (العقلى) هزيمة وتناثراً وتراجعاً وانكساراً، وأحيانا يؤدى إلى الجريمة أو الانحراف أو الانتحار. لا أحد يمكن أن يدافع عن المرض لدرجة استبقائه، حتى لو كانت بداياته (بدايات المرض) تشير إلى معنى الاحتجاج والثورة.

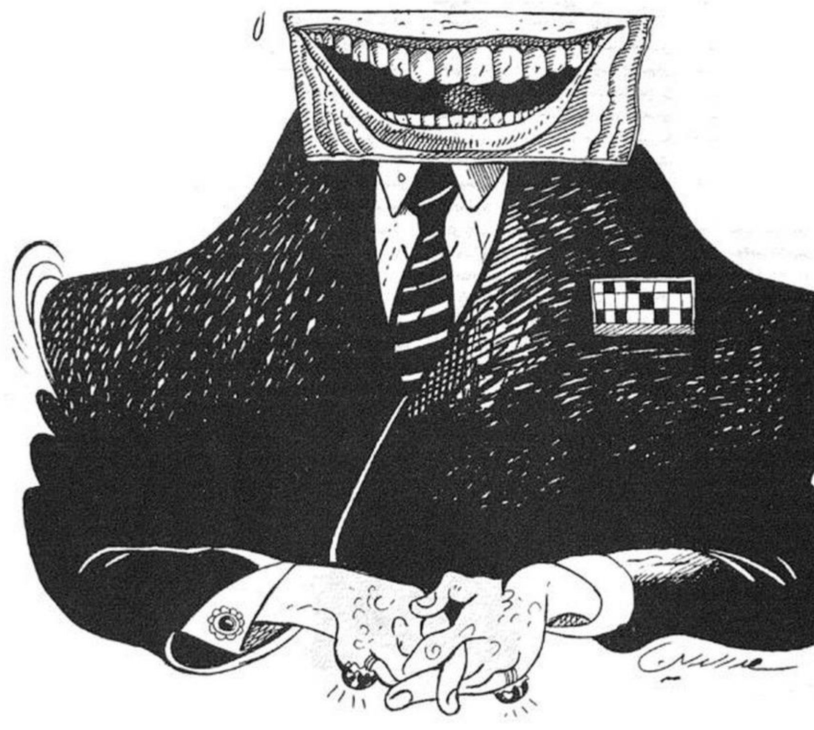
لكن ثمة فرقًا بين التخلص من المرض وبين التخلص من المريض بالمرة. صدام كان مرضًا خطيراً، متأصلاً وحقيراً فى آن، ثم تمادى إلى أن أصبح سرطانًا شائهًا مشوهًا، ينبغى استئصاله، لكن الذى جرى ويجرى هو محاولة استئصال المريض مع المرض. إن الذى يجرى - بموافقة العالم الآن، ولو بأثر رجعى - أنه يتم القضاء على شعب العراق وما يَمثله (من تاريخ ووعود) ضمن استئصال سرطان صدام ومضاعفاته. فكرة الحق الذى يراد به باطل فكرة قديمة وجيهة. التهدئة بالعقاقير المهدئة الجسيمة علاج ناجع لحالات الهياج المرضى والذهان النشط، هذا حق، ولكن إذا تمادينا فى استعمال هذا الحق (العقاقير للتهدئة الدائمة) لصالح شركات الدواء أساسا، دون النظر فى المضاعفات التى تلحق بالمريض ونحن نقضى على أى حركة رافضة أو محتجة مع محاولتنا القضاء على المرض، يصبح الدواء فى هذه الحالة داء جديداً، ربما أخطر.

قرر مجلس الأمن قبل شهر، ربما بعد أن هزته -مثلنا- مناظر المقابر الجماعية، أن أى شر فى الدنيا (حتى لو كان شر الاستعمار) هو أفضل من هذا الذى يراه، فتورط وأعطى ما حدث من جريمة، شرعية ما (برغم تحفظات وتعقيبات السيد دوفيلبان، وزير خارجية فرنسا). أوكَلَ المجلس الموقر الأمر كله لأصحاب الفضل فى الاستعمار التحريرى الديمقراطى المبارك، وقد أوصاهم خيرا بناس العراق وبنيته الأساسية. وأيضا أوكَلَهم بالسلامة- للتصرف فى بترول العراق ومعادنه، وكذلك بالعناية بأمور ناسه من تعليم وتدين وثقافة وعمل وزواج، حتى يعيشوا فى التبات والنبات، وينجبوا صبيانا وبنات. لم يبق إلا أن يفوض المجلس الموقر الغزاة فى التحكم فى أحلام هؤلاء المظاليم، وربما أيضا فى موقعهم فى الجنة دون النار. لم ينس المجلس الموقر أن يعطى دورا للأمم المتحدة فى أن تتابع ما يجرى من باب العلم بالشىء، دون اتخاذ اللازم. قرار مجلس الأمن هذا أخطر من الاستعمار ذاته. إن اختراق القانون يظل اختراقا للقانون مهما بدت نتائجه حسنة، وهو لا يسقط بالتقادم. الجريمة تَمَّت علانية، ومقترفها هو أقوى دولة فى العالم وأغناها وأغباها. ومع ذلك فإن الأمر بدا وكأن ضابطًا مصريا نوبتجيا يقفل المحضر بتأشيرة مصرية واقعية تقول: «يستمر الحال على ما هو عليه، والمتظلم يلجأ إلى القضاء». أى قضاء يمكن أن نلجأ إليه متظلمين بعد ما حدث.

مادام الأمر أصبح كذلك، والاستعمار أصبح مشروعاً بكل هذه الحكمة الدولية، أليس من صميم العقل أن نتعلم ونسمع الكلام بدورنا، ونمشى بجوار الحائط، ونحن على يقين - إن شاء الله - أن تقوم الديمقراطية الأمريكية، الموصى عليها من مجلس الأمن، بالواجب؟

يبدو أن ذلك هو ما يساور كثيراً منا أفراداً وجماعات، حتى لو أعلن غير ذلك. إن ما وصلتْ إليه حالنا، وحال نُظُم حكمنا، وحال تدهور أدائنا، وتمادى كسلنا، وتفاقم كذبنا، واحتمال الجرائم التى يمكن أن يرتكبها بعض حكامنا لمجرد استمرارهم على الكرسى، إن كل ذلك يمكن أن يبرر أى حل حتى لو كان عودة إباحة تجارة العبيد. يبدو أن الحرية المتبقية لنا هى حرية اختيار السيد، لنا كامل الحق أن نختار أن يكون السيد الشارى فى سوق النخاسة هو خواجة يحذق الكذب ويلقى إلينا من فائض موائده ما يقيم الأود أشهى وألذ، أو أن يكون سيدنا الشارى وحشا آدميا يدفننا أحياء بعد الذل والرعب والكذب

يصبح ضروريًا الإعداد «النفسى» لمواجهة من نوع آخر!



والتجويع. بل إنه قد خيل إلىّ أنه لم يعد أمامنا حتى هذا الاختيار بين الدفن أحياء أو برصاصة واحدة فى هذه المقابر الجماعية، وبين أن نكون تابعين مستعمَرين لأسياد أرقى وأرق، هم الذين يقررون لنا ما هو أصلح لنا.

هل الأمر كذلك فعلا، أم أن ثمة بُعداً أعمق للمسألة؟

قبل الإجابة: نعيد صياغة ما حدث بإيجاز شديد.

أولا: لم يكن فيما حدث مفاجأة، بل تعرية للجارى على الجانبين منذ سنين. لم تكن كارثة، بل كاشفة.

ثانيا: لم تكن حربا أصلا، بل قرصنة لص محترف، للتخلص من قاطع طريق قاتل، للاستيلاء على أسلابه، وأيضا على ما تبقى من فريسته. (ثم تم تعيين هذا القرصان نفسه حاكما للجزيرة التى بها الكنز المرسوم فى الخريطة التى تركها جنِّى مجهول بين أنقاض مركز التجارة العالمى يوم القبض على الأمل والعدل والحياء!!)

ثالثا: لم تكن المسألة أسلحة دمار شامل، فالدمار الشامل الحقيقى قد وافق عليه (ولو بأثر رجعى) مجلس الأمن بالسلامة، ثم إن قارئ قرار مجلس الأمن هذا يمكن أن يطمئن لشرط خفى وضع بين السطور، شرط يسمح باستعمال أسلحة الدمار الشامل لناس دون ناس. شرط مكتوب بالحبر السرى لمن يحسن فك رموزه: «يسمح بممارسة التدمير الشامل دون تمييز لكل من يقسم أنه لا يدمر إلا الأشرار وضحاياهم بالمرة (الشىء لزوم الشىء)، على شرط أن يكون هذا المدمر الشامل أقوى وأغنى وأقدر على الكذب والمناورة، وأن يثبت أنه امتلك أسلحة الدمار لأكثر من نصف قرن، وأنه سبق له تدمير البشر والأمل والحرية دون أن يؤاخَذ، وأنه رغم كل ذلك ما زال سيد العالم قوة وجبروتا وظلما وتشويها».

أما من لا يتمتع بهذه الميزات الإنسانية الخاصة فعليه أن يسلم ما عنده من أسلحة ونوايا عدوان من أصله، كما عليه أن يسلم مَن عنده من القادرين على إبداع أى شىء أو فكر يمكن أن يهدد هذا السيد الخاص المسموح له بالتدمير دون غيره،باعتباره المحتكر لحق التدمير وإبادة «الشر» بحسب ما يرى هو.

رابعا: لم يكن الصراع بين نقيضين. بل هما وجهان لعملة واحدة، الوجه الأضعف اختفى مؤقتًا على الأقل، والوجه الأقوى افترى نافشا ريشه ليسن قوانين جديدة تحدد معالم الحقوق، والواجبات، والأخلاق، والتدين، والجنة، والنار، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وذلك باعتبار أن أى منتصر على أمين مخازن المقابر الجماعية هو على درجة من الأخلاق والدراية بحيث يقدر على نفعنا أكثر من أنفسنا، حتى لو كنا الضحايا فى الحالين.

مخاطر التسطيح والاختزال

نعرف أن ما نتصوره قد يكون أهم من الواقع ذاته، وعليه فإن أخطر الخطر ليس فيما حدث، فالمتأمل يمكن أن ينتبه إلى بعض الخير فيما تم رغم سوء النية وسوء المآل الأرجح. أخطر الخطر هو أن نتصور أن النصر الظاهر هو دليل أن صاحبه هو من أهل الخير والرؤية الأسبق، لأنه قضى على شر أكيد. ثم هاهو مجلس الأمن يقره، مع همهمة محدودة، وها هى المظاهرات تتوقف متقززة من النهب والمقابر الجماعية. يمكن أيضاً أن يستتبع ذلك تصور أن الديموقراطية بالصورة التى وعد بها الغازى بكل عيوبها ومزاياها وخداعها وألاعيبها، هى نهاية الأنظمة السياسية بلا بديل. إن تعميم قيم المنتصر على العالم، لمجرد أنه انتصر قد تنتهى بنا - خصوصا ونحن بهذا الكسل والاعتمادية - إلى اعتبار هذه الديمقراطية المشبوهة بالذات نهاية الأيديولوجيات، (بل والحضارات والديانات بالمرة)، أليس هذا هو ما حدث بعد انهيار الاتحاد السوفيتى حين راح هذا المنتصر نفسه يعلن نهاية التاريخ وهو يرفع يده على حلقة ملاكمة الحرب الباردة، باعتبار أنه لم يبق فى الدنيا إلا هذا المنتصر الذى هزم بطل العالم الأسبق.

فمن ذا الذى يجرؤ على نزاله بعد ذلك إلا الصحاف ورسامو الكاريكاتير؟ ما المطلوب إذن؟

قبول التحدى:

أى فرد منا يستقبل خبرا أو يعايش مسألة عامة أو يبلغه رقم رسمى أو علمى أو شبه علمى، سرعان ما يعود لقياس ما وصله بالنظر فى حاله، وحال من حوله، وحال ما حوله، ثم هو يتخذ موقفه غالبا من موقع مهنته ولغته، وحاجاته، وتحيزاته، ودرجة نضجه، ومساحة حريته، مع احتمالات الاختزال أو التعميم.

أعترف أننى لم أجد طريقة لقراءة الأحداث وقبول التحدى إلا «قياسا» من واقع مهنتى. هو مدخل شخصى، لكنه واقع يمكن تطبيقه على سائق التاكسى، وعامل الخرسانة، وعالم الذرة، ومصمم الأزياء. كل منا يقرأ الأحداث من زاويته، ويقيس- بوعى أو بغير وعى - مجريات الأمور كما يفهمها من واقع مرجعيته المعرفية العملية، ومصالحه المباشرة كما تتبدى له فى نفسه، وفيمن حوله أولا وقبل كل شىء. (كان سام ماسح الأحذية يصنف نزلاء الخان فى رواية مستر بكويك «تشارلز دكنز» من واقع أحذيتهم). أثرت مهنتى فى قراءتى لنفسى والناس والأحداث على مستويات مختلفة: فمن ناحية أنا أقرأ أخبار الاقتصاد المحلى من قدرة مرضاى على التداوى، كما أقرأ أخبار الاقتصاد العالمى ومناورات الاحتكار وضم الشركات عابرة القارات من خلال ما تقوم به هذه الشركات من شراء العلماء وتسطيح الأبحاث وغسيل مخ الأطباء بالسفر والمؤتمرات الشكلية وأوهام المعلومات المعروضة فى جداول ومقارنات بعيدا عن وعى المرضى الأعمق. ثم إنى أستشعر الخطر على الجنس البشرى كله من مسيرة تدهور مجنون واحد. ضبطتُ نفسى أستلهم من تدهور مرضاى إلى عهود سحيقة من الحياة، رسالة تقول: «.. إن الجارى، ثم الاستسلام لنتائجه، لا يهدد العراق وفلسطين وسوريا والعرب فحسب، بل هو تهديد لبقاء النوع الإنسانى نفسه».

إن الحديث عن دلالة ما حدث من تهديد بالفناء الشامل (الانقراض) لا ينبغى أن يؤخذ باعتباره هربا. إنه المدخل الذى ربما يؤدى بنا إلى محاولة تحديد دورنا جماعة ثم فردا فردا. لقد وصلتُ، من خلال قراءة صديقى المجنون وهو ينسحب من كل إنجازاته، وأغلب إنسانيته إلى ما يلى:

أولا: نحن لسنا إلا نوعًا من الأحياء، صحيح أننا نتصور أننا على قمة الهرم الحيوى الذى نعرفه، لكننا نظل ننتمى إلى الأحياء الذين تحكمهم قوانين البقاء عامة.

ثانيا: إن بقاء نوعنا لا يرتبط بانتصار فى معركة حربية، أو انحراف مجرم قاتل حاكم، بل هو يرتبط بمدى التعامل مع الزمن والمحيط (البيئة - الوسط - الكون) ثم التعامل مع بعضنا البعض، ثم التعامل مع سائر الأحياء والحياة.

ثالثا: كان ذلك التعامل يتم تلقائيًا دون حاجة إلى وعى ظاهر، أو عقل مخطط. لكن أزمة الإنسان هى أنه أصبح يمتلك هذا وذاك (الإرادة الواعية والعقل المسيطر)، وبالتالى زادت مسئوليته، و زادت فرصه، وزادت أخطاؤه.



رابعا: إن الانحراف التطورى الذى أدى إلى ظهور صدام على ناحية، ثم دبليو بوش على الناحية الأخرى، يعلن أن ثمة خطأ جسيمًا حادث على مسيرة تطور البشر.

خامسا: إن كل هذه الأحداث العابرة (من نصر وهزيمة وظلم وجرائم)، هى أقرب إلى الإنذارات، منها إلى تحديد مَن عنده الحق، ومَن تَجاوَزَ العدل من هذا الفريق أو ذاك.

سادسا: إن المغزى الذى علينا أن نتمعن فيه من هذه الأحداث ذو شقين على طرفى نقيض:

الأول: إن ثم تهديدًا يلاحق الجنس البشرى من اعتماده على إنجازات أقلية ثرية ناجحة، لكنها متحيزة، وظالمة، وقاصرة، وقصيرة النظر، وقيمها لا تمثل ما يعد به تاريخ الإنسان الرائع.

والثانى: أن ثمة أملاً يتزايد فى أن يتمكن البشر- سائر البشر- من التواصل الإيجابى عبر المنجزات الأحدث للتكنولوجيا، ليتعاونوا فى درء خطر الانقراض الذى تجلى أخيرًا ظاهرًا للعيان كما لم يتجلَ من قبل.

من هذا المنطلق

رحت أعيد قراءة موقفنا الخاص لأرى كيف تعلمنا من الدرس الجارى، وماذا يمكن أن نعدله، وماذا يمكن أن نتراجع عنه، وماذا يمكن أن نضيفه. إن الحياة وقتٌ وعمل. يتحدد مصيرنا واحقيتنا بإنسانيتنا بما نملأ به الوقت، وبما يتوجه إليه العمل. إن الوعى البشرى - محنة ما انتهى إليه النوع البشرى- هو الذى يسمح باختيار ما يملأ به وقته، وما يتوجه إليه عمله. لا بد أن يعاد النظر فى هذه البدهيات بعد كل مأزق وجودى يمر به البشر وينذر بالفناء من خلال ظروف الطبيعة أو أخطاء ومغامرات إبداع الإنسان الحسن منها والسيئ (من الحرب العالمية الأولى حتى تفتيت الذرة، ومن الهندسة الوراثية حتى المقابر الجماعية).

من هذا المنطلق، على كل واحد منا عبر العالم، دون استثناء، أن يعيد النظر فى موقفه وموقعه من خلال ما حدث. إن تحديد مسئوليتنا عما حدث ليس كافيا بقدر ما هو لازم تحديد دورنا فيما يحدث. علينا أن نبادر بطرح أسئلة قديمة، تحتاج إلى اجتهادات جديدة. ومن ذلك:

أولا: أين نحن تحديدًا مما جرى ويجرى؟

ثانيا: ما المقاييس التى نقيس بها ما هو نحن، وما نساهم به، وما ننجزه؟

ثالثا: ما القضايا التى تشغلنا، وهل هى من اختيارنا أساسا؟ أم أننا ننساق وراء ما لم نختر؟

رابعا: ما ترتيب أولويات هذه القضايا؟

لا يمكن فى مداخلة محدودة المساحة، أن نجد إجابات وافية على أى من هذه الأسئلة حتى بإجمال مختزل. إذا سألت مسئولاً هذه الأسئلة التى تبدو له بدهية لا معنى لطرحها أصلا، قد ينبرى مشكورا بإجابات حاسمة واعدة متفائلة مجاملة. بل إن الأصعب والأخطر أنك لو قارنت إجابات هذا المسئول عن نفس الأسئلة قبل وبعد ما حدث مؤخرا فى العراق ثم فى مجلس الأمن، فإنك سوف تتلقى نفس الإجابات دون أن تهتز فيه شعرة. الأغرب من ذلك (الذى لم يعد غريبًا) هو أنك لو طرحت نفس الأسئلة على مثل هذا المسئول أو ذاك فى العهود السابقة مع اختلاف نظام الحكم والحكام، فسوف تجد نفس الإجابات.

هذه هى أولى علامات الخطر. إننا لا نتغير!!

مسئولونا يجيبون جدًا، بسرعة، وسلاسة، وبنفس تعبير الوجه، قبل ٥٦ مثل بعدها، وقبل ٦٧ مثل بعدها، وقبل ٧٣ مثل بعدها، وقبل ٢٠٠١ مثل بعده، وقبل ٢٠٠٣ مثل الآن. (مع اختلاف التسميات، وأسماء الأشخاص). إذن ماذا؟

موجز إجابات هؤلاء المسئولين على اختلاف العصور يمكن إيجازها فى: «أننا «كُوَيسون» فى جميع الأحوال، وأنها مهما تفاقمت، فإنها تقترب من الانفراج، وأن التقرير العالمى الفلانى أقر بأننا على الخط الصحيح للتصحيح، وأن التعليم وصل إلى القدوة الحسنة، وأن البحث العلمى فى أروع مراحله بأمارة أن الدكتور زويل أخذ نوبل، وأن إبداعنا الأدبى وصل إلى أعلى مستوياته بدليل نجيب محفوظ، وأن عنق الزجاجة لم يعد عنق زجاجة، بل أصبح «بطن بقرة».

قضايا زائفة، ولاهية

إن ضياع الوقت فى محاولة معرفة أين صدام، وماذا عن الصحاف، وهل حدثت خيانة، وهل تم اختراق، وهل يتولى الأمر الولايات المتحدة أم الأمم المتحدة، إن ضياع الوقت فيما نُستدرج إليه هكذا، هو أولى علامات أننا لم نتعلم بالقدر الكافى. إن أول ما ينبغى تعلمه هو ألا نستدرج إلى مناطق لا تعنينا، إلى قضايا لم نخترها، لم نحدد أولوياتها. بعد ما حدث، علينا أن نعيد النظر فى كل قضايانا مهما بلغت قدسيتها أو تصورنا إغلاق ملفها. علينا قبل أن نُستدرج إلى الخوض فى تفاصيل فرعية لأى قضية مهما بدت عاجلة وملحة، أن نتوقف لننظر فى الأساس، فى رأس الموضوع وحقيقة اختيارنا له قبل الاستدراج لما تحته: هل هى قضيتنا نحن أم أنها مفروضة علينا من واقع الشيوع والتقليد؟ بل ينبغى أحيانا أن نتراجع خطوة سابقة لنتساءل قبلا: هل هى قضية أصلا؟

إن ثمة قضايا كثيرة تلقى فى وعينا فندور فيها وحولها مع أنها - لو أمعنا النظر- ليست قضايا أصلا. قضايا أخرى تستغرقنا جملة وتفصيلا مع أنه قد انتهى عمرها الافتراضى، قضايا ثالثة

هى مُسرّبة إلينا لتشغلنا عن قضايا أساسية أهم، قضايا رابعة انتهت بموت أحد أطراف النزاع، قضايا خامسة وظيفتها اللعب فى الهوامش بعيدا عن المتن لكسب الوقت. وهكذا كثير.

باجتهاد متواضع رحت أنظر - بصفة عامة - فى القضايا المطروحة على وعينا والمستنفدة لوقتنا وطاقاتنا، والتى لم تتغير لا هى ولا ترتيب أولوياتها قبل وبعد ما حدث. تبينت أن أول ما علينا عمله لنتجنب الإلهاء والاستدراج، هو أن نبدأ بتمييز الغث من السمين، الزائف من الحقيقى، ليس فيما يتعلق بما حدث، ولكن بصفة عامة، لأن مصيبتنا عامة، برغم أن مسئوليتنا فردية وعامة معا.

تحصيل حاصل

أغلب قضايانا هى من قبيل «تحصيل الحاصل»، نضع نهايتها مسبقا قبل أن نبدأها، ومع ذلك نضيع وقتنا وجهدنا فيها ناسين أننا حسمنا نهايتها من قبل. تظهر مثل هذه القضايا فى أهم مجالين محوريين كان يمكن أن يكونا هما المغيِّران لما نحن فيه، ألا وهما: البحث العلمى، والفتاوى الدينية. إن كثيرا مما نسميه البحث العلمى هو تحصيل حاصل، نبدأ من حيث بدأوا أو انتهوا، لنكرر ما فعلوا، ونصل إلى ما أوصوا به، وقد نضيف: «عند المصريين». قضايا تحصيل الحاصل فى الفتاوى الدينية (ليست بالضرورة رسمية) هى بلا حصر. مع المبالغة: إنه لا تثار قضية دينية إلا ويكون الحكم فيها فى نهاية النهاية هو ما أفتى به السلف تحديدا. حتى قضية الحوار بين الأديان تنتهى حيث تبدأ تماما. (نبهنا البابا شنودة مخلصا صادقا أنه لا حوار بين الأديان وإنما بين المتدينين، يا ليت!! هذا أفضل من الكذب المجاملاتى). من أشهر القضايا حسنة السمعة بلا فاعلية مسألة «قبول الآخر»، إن أغلب ما يجرى تحت هذه اللافتة، هو نوع من التصالح قصير العمر (واللى فى القلب فى القلب). إن هذه القضية لا تتم بقبول للآخر بقدر ما تتم بمحاولة «فض الاشتباك». لا بأس، ولكن أليس الأولى أن تُسمى باسمها. نحن والعالم اليوم فى حاجة إلى الالتحام بالآخر المخالف لتخليق ما يخرج منّا معا. مجرد فض الاشتباك يسمح باشتعال النيران من أول شرارة.

ثمة قضايا ليست تحصيل حاصل، لكنها استُهلكت حتى انتهى عمرها الافتراضى. قد تكون قد أُنهكت حتى شاخت دون حل، أو تكون قد سُويت بطريقة تلفيقية لا تحمل مقومات بقائها، أو تكون غير قابلة للحل أصلا. ومع ذلك فنحن لا نفعل شيئا إلا أن نعود إليها، أو لا نغادرها ابتداء. على حساب ما هو أولى. خذ مثلا قضية «الأصالة والمعاصرة»، (أو التراث والحداثة..إلخ) لا جديد.

ثمة قضايا أخرى سقطت بالتقادم أو بموت أحد أطراف النزاع مثلما سقطت قضية الحرب الباردة بوفاة الاتحاد السوفيتى إثر حادث أليم، لكننا مازلنا نُستدرج بوعى أو بغير وعى إليها، أو إلى ما يعادلها، يبدو أننا مازلنا لا نصدق ما حدث، مازال فريق منا يواصل تطهير الجيوب من عدو مجهول على أحد الجانبين، وكأن أوروبا الشرقية مازالت شرقية، وكأن بلير مازال زعيما لحزب اشتراكى يسمى حزب العمال (تصور!).

القضايا الزائفة هى نوع آخر مما نُستدرج إليه، وهى قضايا مُبتدعة على أساس واهٍ، أو بغير أساس. ليس المقصود من إثارتها هو حلها، وإنما المقصود هو تبرير أمور أخرى تقع خارجها. مثال ذلك ما ظهر مؤخرا مما يسمى «صراع الحضارات»، وتحديدا: الصراع بين الإسلام والغرب. هذه قضية زائفة من أساسها، ليس لأنه لا يوجد اختلاف بين منظومة الحياة ونوعيتها على الجانبين، إن الاختلاف موجود بين الوجود الإيمانى المرتجى فى الإسلام، وبين الوجود الغربى الذى بدا أنه مكثف فى مركز التجارة العالمية. لكن أين الصراع؟ إن ابتداع قضية تسمى صراع الحضارات هو محاولة لاهثة ومتمادية لتبرير الإغارة والظلم والإبادة. واقع الحال يقول إنه لا يوجد شىء واحد يمكن أن نتفق على أنه «الإسلام»، كما نزل الإسلام، كما لم يعد يوجد شىء واحد اسمه الغرب كما يشاع عنه، خاصة بعد أن أصبح وجهه الآخر هو روسيا والصين وهما فى عز الشمال والشرق. الغرب نفسه أصبح أكثر من غرب. هناك الغرب فرنسا، والغرب أمريكا، والغرب السويد بل فى داخل أمريكا نفسها لم يعد الغرب واحدا، هناك غرب لاكوف وغرب تشومسكى. كما أن هناك غرب دبليو بوش، وغرب تشينى، ثم غرب شارون، وغرب بيريز، وغرب اليونان، وحتى غرب تركيا!!

نفس الحكاية بالنسبة للإسلام: إسلام جارودى غير إسلام الشيخ الشعراوى، وإسلام مالكولم إكس غير إسلام القرضاوى، وإسلام إيران غير إسلام المغرب، وإسلام ابن عربى غير إسلام ابن رشد. فأين القضية؟ ومن هم المتصارعون؟

هناك أيضا قضايا خادعة مغلوطة إذا نظرت فى عمقها قبل أن تُستدرج إليها تلاشت تحت الفحص، إذ سوف تكتشف أنه لا فرق بين الجانبين. خذ مثلا بن لادن ضد بن باز، واحد يمثل الأصولية الراديكالية، والآخر يمثل الأصولية الرسمية، ولا فرق إلا فى الوسيلة. لا فرق بين صدام، ودبليو بوش، فى عمق إلغاء الآخر، واختراق القانون وقتل الأبرياء بلا محاكمة، ولا فرق بين الاثنين وبين شارون. فأين القضية؟



نذكر أيضا احتمال خدعة المواجهة بين الصين والولايات المتحدة. لو أنك نظرت أعمق (مع الاعتذار للدكتور أنور عبد الملك وأمله فى طريق الحرير، وعلاقة كونفوشيوس بالإسلام!!)، ثم تأملت الصفقات المعلنة والخفية بين أمريكا والصين، وكذلك نموذج التنمية والحياة الكمية عند كلٍّ، فسرعان ما ستتبين أنهما واحد، وليسا على طرفى نقيض.

كذلك علينا أن ننتبه إلى التوحد الظاهر والخفى بين روسيا والولايات المتحدة، خصوصا فى مواجهة الشيشان على ناحية، والقاعدة والفلسطينيين على الناحية الأخرى.

ثمة قضايا مؤقتة مائعة (خادعة أيضا)، مثل تصور المستضعفين لفترة مشرقة آملة أثناء حدة الأزمة أن أوروبا تستطيع أن تختلف مع أمريكا حتى المواجهة، لكن المتتبع للاستسلام اللاحق للكارثة لابد أن يتبين أنه كان اختلافا أقرب إلى عتاب الشركاء منه إلى اختلاف مواقف وجودية جوهرية يمكن أن تحفز جدلاً حقيقياً.

نوع آخر، ليس أخيراً، ما زلنا نُستدرج إليه، وندور حوله مثل المسرنَمين. السائرين نياماً. ثم لا نفيق إلا بعد انتهاء الوقت الأصلى لدورنا فى الحياة، مع أننا لم نُدرج حتى فى قائمة الاحتياطى. إنها القضايا التى يمكن أن تسمى قضايا الإلهاء، وهى تتم إما بالإزاحة، أو بالتهميش، أو بالإغراق فى التفاصيل التى ليس لها نهاية. إن المتابع لمناورات التفاوض منذ هدنة ١٩٤٨ وحتى خارطة الطريق، يمكن أن يدرك كم قضية أثيرت للإلهاء عن الأصل، وعن المتن، وعن الحق، وعن العدل. كل المفاوضات تقريباً كان هدفها الأول والأخير، كسب الوقت لا حل القضية، كل المفاوضات تقريباً لم تخرج عن أحد هذه الألاعيب الثلاثة (الإزاحة، والتهميش، والتفاصيل التى لا تقدم ولا تؤخر).

هناك ألاعيب أخرى، نقع فيها بمحض غبائنا، فنتلهى عن أصل المواجهة، وذلك حين تلقى إلينا مصيدة إحياء النعرات التعصبية بظاهرها الدينى. انظر كيف وضعوا، فوضعنَا، الدين اليهودى (وليس شارون)، فى مقابل الدين الإسلامى (وليس حماس)، وكأن الخلاف على أى الفريقين يدخل الجنة وأيهما يدخل النار. ثم يمتد الإغراء بالتعصب فنجد أنفسنا فى قضية أخرى على مستوى أوسع حين يصدرون دين الإسلام (لا المسلمين) فى مواجهة الأصولية المسيحية الجديدة فى أمريكا. وهى تتلو أساطير الأولين.

هذه قضايا تشعل النار بسهولة، مع أنها قديمة قدم التاريخ، إن إحياءها سرا أو علانية، صراحة أو من وراء ستار. هو أيضا من قبيل الإلهاء.

عند الأزمات المفاجئة، أو الكاشفة، تقفز مثل هذه القضايا الفرعية أو القديمة، كنوع من التسكين للتأجيل إلى ما لا نهاية. إن إثارة مثل هذه القضايا يعيد إحياء القضايا القديمة لنتلهى بالماضى عن مواجهة الحاضر وصناعة المستقبل. بعد هزيمة ١٩٦٧ ظهر شعار يقول إن «الرجوع إلى الدين، هو الحل. المتابع مؤخراً لخطاب كلٍّ من صدام ودبليو بوش أثناء حدة المواجهة (ولو لأيام قليلة) لا يخفى عليه المحتوى الدينى للخطاب على الجانبين، ليس فقط بالحديث عن محور الشر فى ناحية، وعن الجهاد

والاستشهاد فى الناحية الأخرى، ولكن فى كثير مما ظهر فى السطور، وأكثر فيما غاب بين السطور.

«نهاية، و، بداية»

ما علاقة كل ذلك بما آل إليه أمرنا بعد حرب العراق، وتوقيع العالم - ممثلا فى مجلس الأمن - على الأمر الواقع (قرار ١٤٨٣)؟ إذا كنا حقاً نريد أن نتحمل مسئولية المواجهة، علينا أن نبدأ بأنفسنا (ولو فرادى)، فى كل مجال، بما يلى، كما يلى:

أولاً: تحمل مسئولية ما حدث، بدلاً من إلقاء اللوم.

ثانياً: إعادة النظر فى واقعنا حالاً بمقاييس أخرى.

ثالثاً: تحديد مبدئى لموقفنا مما يمثله كل من صدام وبوش معا (باعتبارهما وجهين لنفس العملة).

رابعا: تحديد حجم ثروتنا الحقيقية: عمق الوعى ومساحته، مضروب فى حجم الوقت وحركيته، مضروب فى طريقة الأداء (والأدوات). هذه ليست مسائل نظرية.

خامسا: قياس هذه الثروة مقارنة بواقع الناتج اليومى، نوعاً وكماً، لتحديد الفاقد الفعلى لوجودنا البشرى.

سادسا: تجنب القضايا الزائفة لمواجهة قضايانا الحقيقية.

سابعا: تحديد أولويات هذه القضايا الحقيقية.

ثامنا: إشراك كل الناس عبر العالم فيما هو مشترك.

تاسعا: الاستعداد لتحمل مزيد من الهزائم والتعلم منها.

كيف السبيل إلى تحقيق بعض ذلك، أو البدء فى مثل ذلك. لا يكفى أن نعدد الأسباب أو نفسر الأحداث أو نرصد السلبيات أو نتبادل الآراء. الأمر أصبح أخطر من كل ذلك.

أولى بنا أن نتوقف عن الكلام والتفسير والتبرير إذا لم يكن لدينا إلا تكرار ما سبق أن قررناه بحسن نية أو بمثالية عاجزة. أولى بنا أن نعلن أننا قبلنا أن نتبع الأقوى جملة وتفصيلا، من أن ندعى أن «الإسلام هو الحل»، ثم لا نفعل شيئا إلا أن نمارس نفس قيمهم التنموية، ونسعى نفس السعى إلى مجتمع الرفاهية، سواء فى الحياة الدنيا أم فى الآخرة. ولا ننتبه إلى أن النموذج الذى يطرحه هذا الشعار قد يكون هو هو نموذج التنمية الكمية دون اختلاف لا نرفضه إلا فى اتجاه القبلة وشكل الصلاة.

إذا كنا نختلف فلنختلف، ونعمق، وننجح. وإذا كنا نتفق، فلنجتهد، ونتبع، ونتقن. وفى الحالين لن يتكرر ما حدث. أما أن نظل فى موقفنا، نكرر أننا لا نتبع، ونحن لا نفعل شيئا إلا أن نتبع تحت لافتة أخرى، فنحن لا نفعل شيئا إلا أن نبرر لهم ما فعلوه، وما سوف يفعلونه.

القضايا الحقيقية

القضايا الحقيقية ليست ثابتة ولا منغلقة، إنها قضايا تتجدد من واقع إعادة التقييم على أرض الواقع المتغير، حتى لو حملت نفس الاسم. لا بد من إعادة التقييم - ليس من فوق المكاتب أو بالنظر فى الأرقام دون الشارع وداخل البيوت. الجديد أيضا فى تناول قضايا قديمة هو أن المشاركة فيها لم تعد مقصورة على مكان جغرافى بعينه. إن الناس الآن قد انتبهت إلى خطر مشترك. هذا هو الذى سوف يخلق شبكة من الناس تتكاتف وهى تشعر بخطر تهديد البقاء بأسلحة الدمار من قادة الدمار العميان الأقوى. إن هذا الوعى المشترك بالخوف من الفناء هو الذى يمكن أن يدفع الناس من واقع الفعل اليومى إلى العمل على درء هذا الخطر للحفاظ على النوع، مثلما يتكاتف النمل لجر قالب السكر إلى مخزن البيات الشتوى، أو حتى مثل هجرة الطيور معا سعيا إلى التلاؤم مع احتمال الانتحار الجماعى.



وثيقتان

حتى لا يكون الكلام نظرياً تماماً، أشير، بكل الاحترام، إلى وثيقتين اعتبرتهما مدخلين لما أريد توصيله. وقد كتبتا قبل ما حدث، وقيل فى إحداهما أنها تنبأت بما حدث جداً، وقيل فى الأخرى أنها لم ينتبه إليها أحد برغم بالغ خطورتها. لن أتناول أياً منهما بالنقد أو التعليق بالتفصيل، فقط سوف أورد بعض إشارات يمكن أن تكون المنطلق للمنهج الذى أريد التنبيه إليه.

الوثيقة الأولى: كتاب أصدره وزير التعليم. وهو مسئول كبير فى موقع التنفيذ، باسم «مفترق الطرق»، وهو كتاب حظى بتقريظ معظم (إن لم يكن كل) الذين علّقوا عليه، وقد وقفت من الكتاب موقفاً حذراً حتى قبل أن أقرأه لعدة أسباب، منها أننى أعرف كاتبه طبيبا حاذقا، وأستاذا جامعيا مرموقا، ولا أعرفه بالقدر الكافى وزيرا أو سياسيا، ومنها أننى قرأت كتابه السابق ولم أجد فيه جديداً، ومنها أن الكاتب فى موقع التنفيذ، ومنها أننى فى ممارستى مهنتى طبيباً نفسياً، وأستاذاً جامعياً، أتابع مستوى التعليم (الرسمى خاصة) وقد وصل إلى أدنى مراتبه، سواء من الناحية الخلقية (الغش الفردى والجماعى)، أو من الناحية الإبداعية (التسميع والانغلاق داخل النص المقرر) أو من الناحية المنهجية (العجز عن الإتقان والسطحية والتقريب وفساد اللغة وغياب الحبكة). ثم قرأت الكتاب والأرقام، والاستشهادات بالشعر، والتفكير الأمل، ولم أغير رأيى. بل زدت حزناً وتوقعاً للكوارث، خاصة بعد تصريح لاحق للمؤلف منذ أيام يقول فيه إن التعليم عندنا أصبح قدوة للبلاد من حولنا، وأن قيم الحرية والديمقراطية تمارس وتدرس فى كل المراحل باستقلال كامل دون توجيه من أمريكا..إلخ.

الوثيقة الثانية هى التقرير الذى قدمه الدكتور جودت الملط رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات إلى مجلس الشعب حول ملاحظات الجهاز عن الحسابات الختامية للسنة المالية ٢٠٠٠ - ٢٠٠١. فى هذه الوثيقة ملاحظات «رسمية» اقتصادية شديدة الخطورة، خلاصتها أن البنية الأساسية الاقتصادية، حتى منذ سنتين (فما بالك الآن)، قد وصلت إلى درجة منذرة لا تفسر أى مبرر لاستبدال حجارة رصيف لم تتآكل حجارته، أو إعادة تأثيث مكتب مسئول ما. الأخطر من كل ذلك أن هذا التقرير لم ينل أى عناية لا من السلطة التشريعية، ولا من وسائل الإعلام، ولا من الشارع من أصحاب المصلحة الذين يدفعون ثمن ما جاء فيه، وثمن ما يترتب عليه، وثمن إغفاله.

قدرت بينى وبين نفسى، وقد أكون مخطئاً، أن عدم التعلم من هاتين الوثيقتين لا يقل عن عدم التعلم من كارثة/كاشفة العراق، ثم قدرت، وأنا أكثر ألماً أنه لو حدث أن دخلنا امتحاناً مثل هذا الامتحان العراقى، فسوف يظهر مغزى عدم التعلم من الوثيقتين بما يفسر ما سوف يجرى، لا قدر الله، دون حاجة لاتهامنا بامتلاك أسلحة الدمار الشامل.

بعض القضايا الجوهرية،

لإعادة النظر،

(١) قضية التعليم

انطلاقا من الملاحظات العابرة على «مفترق الطرق»، الذى لا ننفى عن كاتبه الفاضل حسن النية ووفرة الحماس، نقول: إن التعليم هو المدخل الأول لأى تغيير. حتى الإعلام بجبروته وإغارته، لا يمكن التوقى من أضراره أو مواجهته بما ينبغى إلا من خلال التعليم الصحيح. لكن علينا ألا ننخدع فى مجرد التكرار. المطلوب هو التوقف الموضوعى المسئول عند كل ما يبدو بديهياً، أو ما يلوح لنا آملين.

خذ مثلا محو الأمية: إنها تتيح لمن يقرأ ويكتب أن يحصل على معلومات مرئية بدلا من اقتصاره على المعلومات السطحية، ثم إنها تتيح له التعبير عما يريد، وإعادة تشكيل ما وصل إليه، بشكل مكتوب، يمكن للآخر أن يصله حتى لو لم يلقَ صاحبه أو يسمعه.

لكى نقيم قيمة «محو الأمية» فى الحيلولة دون كارثة مثل كارثة العراق، علينا أن نسأل أنفسنا عن تعريف «الأمية»، وجدوى محوها من حيث مدى إفادة من تخلص منها فى تحقيق الهدف من تعلمه القراءة والكتابة. هل تعلم طالب الجامعة (المفروض أنه انمحت أميته) كيف يقرأ صحيفة يومية قراءة ناقدة؟ هل نفعه هذا المحو فى قراءة صفحة من كتاب «مفترق الطرق»، مثلا: الجدول (٣) ص ٢١٨ بعنوان «العلماء والمهندسين فى البحث والتنمية»، (لاحظ: المهندسين، لا: المهندسون!) بحيث أتاحت له القراءة المرة تلو المرة أن يتساءل عما يجمع العلماء مع المهندسين تحديدا، ومن هو العالم فى البحث والتنمية؟ وماذا يعمل المهندس فى البحث والتنمية؟ وهل المهندس يعتبر عالماً أم حرفياً؟ ولماذا لم يرتب الجدول الأرقام ترتيباً تنازلياً أو تصاعدياً أو يرتب الدول أبجدياً؟ إذا لم يتساءل القارئ العادى (ناهيك عن الناقد الأريب) مثل هذه التساؤلات حول جدول عابر فى كتاب لمسئول كبير، فما فائدة أنه تعلم القراءة والكتابة؟

بنفس القياس: إذا لم يستفد القارئ من قراءة تقرير الدكتور الملط (الجهاز

المركزى للمحاسبات) المرة تلو المرة. فما فائدة تعلمه القراءة والكتابة؟

هذا عن محو الأمية. فإذا انتقلنا إلى أعلى الهرم لننظر فى ما آل إليه حال ما يسمى شهادة درجة الدكتوراه، فكل أمين متابع لبعض ذلك يمكن أن يعرف مدى الانفصال الذى تم بين هذه الدرجة الأكاديمية الأعلى وبين التطبيق المفيد لمجتمع الحاصل عليها من جهة أخرى.

ثم إذا نظرنا فى الخلفية المشتركة لكل من محو الأمية والحصول على درجة الدكتوراه فيما يتعلق بأمرين: الإتقان، والأخلاق. إذن لوجدنا أن القاعدة فى محو الأمية (تعلم القراءة والكتابة) هى عدم الإتقان، وعلى من لا يصدق أن يقوم بعمل بحث من واقع أوراق إجابة طلبة كلية الآداب أو الحقوق أو غيرهما ليرى عدد التاءات المفتوحة المفروض أن تكون مربوطة وبالعكس. ثم يتساءل: هل هؤلاء هم الذين سوف يتخرجون مدرسين أو أساتذة أو قضاة؟ وهل امّحت أميتهم أصلا. الإتقان فى أبحاث الدكتوراه أصيب فى مقتل خاصة بعد إسهام ما يسمى بالبحث عبر الإنترنت فى الاختزال، والتسطيح، والتلفيق، والكذب جميعا.

أما ما آلت إليه الأخلاق باعتبارها البنية الأساسية التى ينبنى عليها التعليم والبحث العلمى، فالقاعدة أصبحت هى الغش الفردى والجماعى، بالطول وبالعرض. لم يعد يجرى أى امتحان (تقريباً) إلا على خلفية من الغش المباح من السنة الثانية الابتدائية حتى درجة الدكتوراه. صرت حين أحاول أن أقيم درجة ذكاء بعض مرضاى من خلال تحصيلهم الدراسى لا أكتفى بالسؤال عن تقديرهم المئوى فى هذه الشهادات العامة (دع جانباً سنوات النقل) بل لا بد أن ألحق ذلك بسؤال إضافى يستفسر عن ظروف أداء الامتحان فى هذه الشهادة أو تلك «..إن كان بغش أو دون غش». الغريب فى الأمر أن الطالب، أو أهله لا يستغربون السؤال، بل إنهم يصلون إلى درجة من «الأمانة» تجعلهم يجيبون بصدق أن ذلك كان «..بغش طبعا»، وبعضهم يبتسم قائلا «..ما سيادتك عارف». وقد أطلب من بعض الحاصلين على الإعدادية أن يقرأ صحيفة يتصادف وجودها على مكتبى، فلا يستطيع قراءة العناوين الكبيرة، وقد أطلب من حاصل على الابتدائية أن يكتب اسمه فلا يستطيع. (راجع بعض ما جاء فى كتاب مفترق الطرق عن روعة ما وصل إليه حال التعليم من إحاطة وإيجابية وكمبيوترية، وإبداع!!).

على القارئ أن ينظر فى بعض ذلك، ويربطه بأحداث العراق، وما يمكن أن يصيبنا مثله حين يشتعل الحريق من «مستصغر الشرر».

(٢) قضية الحرية

يبدو أنه لم تُقدس كلمة فى تاريخ البشرية مثلما قدست كلمة الحرية. كلمة أخرى كادت تكتسب نفس القدسية، هى «الديمقراطية»، لنفس الأسباب، مع أنها ليست مرادفة للحرية، برغم كل ذلك، فنحن- عبر العالم- أبعد ما نكون عن الحرية، حتى فى تجليها السياسى فيما هو «ديمقراطية».

كل الاستطلاعات، والتصريحات، والهجوم، والدفاع، والقتل، والسحل، والإذلال، تم ويتم تحت نفس اللافتة «الديمقراطية». التهمة الأولى فى جرائم صدام هى أنه انتهك الديمقراطية، والتجاوز الأكبر الذى قامت به أمريكا وهى تضرب برأى أغلبية مجلس الأمن، وأغلبية مظاهرات الشوارع عرض الحائط هو ضربُ الديمقراطية فى الصميم.



عندنا: ما إن انتهت الإغارة الكارثة حتى راح كل الناس، والصحف، والمثقفون خاصة، يتبارون فى إثبات أن غياب الديمقراطية هو المسئول عن كل ما حدث.

كل هذا يحتاج مراجعة متأنية. علينا أولا: ألا نتصور أن الديمقراطية هى المرادف للحرية، وثانيا: ألا نجعل نقدنا لما يسمى الديمقراطية يساوى رفضنا لها، وثالثا: ألا يدفعنا يقيننا من أنه ليس ثم بديل لها إلى التسليم لها بلا شروط، وبلا وعى، وبلا مراجعة، وبلا نقد. ورابعاً: أننا إذا فضلناها بحق، فعلينا أن نستعد لتحمل نتائجها مهما كانت، وأول من يستعد لذلك هو من نادى بها وألح فى النداء باعتبارها الحل الأوحد.

إن ترديد شعار «الديمقراطية هى الحل» دون قبول كل التحفظات والشروط السابقة، يصبح أشبه بترديد شعار أن «الإسلام هو الحل»، دون تفصيلٍ كافٍ يشير إلى «حل ماذا»، و «كيف».

إذا كنا نريد أن نتعلم مما حدث، علينا أن نغامر بفتح ملف الحرية، وليس فقط الديمقراطية، وأن نسعى جاهدين إلى إبداع ما يتجاوز تقديس ما كان سببا فى إذلالنا سواء بالاستعمال الزائف من صدام أم بالتسويق المغشوش.

(٣) قضية المنهج واللغة:

قضية المنهج ليست قضية أكاديمية بحتة، ولا هى منفصلة عن قضية التعليم أو الحرية. لا توجد معرفة بدون منهج، ولا تستمر حياة بدون منهج. حتى قبول الحياة بدون منهج هو منهج فى ذاته. إن طرح قضية المنهج فى هذه اللحظة لا يعنى الدعوة إلى اتباع منهج محدد، أو تفضيل منهج على منهج، وإنما هو للتذكرة بأن المنطق البسيط، والمنطق العام هو منهج فى ذاته، وأننا نفتقر إلى هذا المنطق بشكل لا جدال فيه.

لابد- خاصة بعد ما حدث- أن نعود إلى النظر فى منهج كل شىء، وأن نقيس جدوى أى منهج ليس بمدى رضاهم عنه، أو شيوع موضوعيته (المحددة بمقاييسهم) ولكن بحقيقة جدواه لنا الآن وبعد. إن مجرد إحياء المنطق البسيط، والحرص على تنويع المناهج، وتعلم حسن قراءتها، يمكن أن يعرفنا كيف كتب تقرير الدكتور الملط، وكيف نقرأه.

أما قضية اللغة فهى أكبر من أن تحتويها هذه المداخلة فى هذا الحيز. اللغة العربية بوجه خاص هى التاريخ الحى لحضارة العرب، ليس فحسب لثراء ألفاظها ووفرة معانيها، وإنما بحركيتها ومرونتها وقدرتها على الإبداع. لا يمكن أن تكون هذه اللغة قد تخلقت حتى صارت بكل هذا الحضور من قوم لا ينتمون إليها. العرب الذين أنتجوا العربية حتى تجلت بصورتها الحالية هم أقدر الناس على إعادة إنتاج حياتهم من واقع الآن مهما كان مظلما أو مراً. ليس مطلوباً التغنى بجمال اللغة العربية أو الغوص للعثور على لآلئها، وإنما المطلوب والمأمول هو أن تجمعنا هذه اللغة مسئوليةً. لا فخراً، وإبداعاً لا تفسيراً.

حتى اللهجات العامية، المفروض أن نحترمها لنتعلم الاختلاف ثم نلتقى فى رحاب الفصحى دون استهانة بغيرها.

لن يجمع العرب إلا لغتهم واقتصادهم وإبداعهم، قبل أسلحتهم وخطبهم وجامعتهم، اللغة منهج حياة، ونبض وجود بقدر ما هى أداة تواصل. إن ما لحق بلغتنا العربية ولهجاتنا العامية هو أخطر دليل على مسئوليتنا عن ما وصلنا إليه من هشاشة وتراجع عما نحن عليه. إن لم نستطع أن ندافع عن لغتنا، الكيان، الأصل، فلن نستطيع أن ندافع عن أرضنا ولا عن كرامتنا مهما امتلكنا من أسلحة أو بترول أو أموال.

ضع شعباً فى السلاسل، جرّدهم من ملابسهم سِد أفواههم، لكنهم مازالوا أحراراً.

خذ منهم أعمالهم، وجوازات سفرهم والموائد التى يأكلون عليها والأسرة التى ينامون عليها لكنهم مازالوا أغنياء .

إن الشعب يفتقر ويُستعبد عندما يُسلب اللسان الذى تركه له الأجداد يضيع إذاً للأبد: (الشاعر الصقلى إجنازيو بوتيتا من قصيدة لغة وحوار اقتطاف عبد السلام المسدى)

(٤) قضية الدين والإبداع والتدين

العودة إلى الدين هى حقيقة جارية عبر العالم، من أول قراءة معنى اندفاع الناس للكنائس بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، حتى انتشار الحجاب عندنا، مروراً بالحركة الأصولية الإنجيلية فى الولايات المتحدة. بل إنه حين لا تفى الأديان التقليدية فى صورتها الكلاسيكية الثابتة بمتطلبات هذه العودة تُخترع ملل صغيرة جديدة هنا وهناك، بنبى يقول بهبوط وحى ما عليه، أو حتى دون ذلك.

الدراسات البيولوجية التطورية الأحدث لا ترى الدين اختراعاً اخترعه الإنسان ليسد به حاجته (كما يزعم فرويد)، بل هى تتناول التدين والإيمان والله سبحانه وتعالى كحقائق بيولوجية كونية تجلت عبر تطور الأحياء حتى وصلت إلى الإنسان فى صورتها الراهنة. إن ذلك لا يُرجع الأديان للطبيعة، ولكنه يؤكد غور الحقائق الأزلية التى جاءت بها الأديان لتعمق إنسانية الإنسان وتطلق إبداعه.

إن إنكار هذه الحقيقة الكونية الإلهية كشرط أساسى ليكون البشر بشراً قد ترتبت عليه مصائب متنوعة تترجح من الضياع الفردى إلى الانهيار الاقتصادى والحربى. يتم هذا الإنكار بطرق مختلفة: إما بنفىٍ صريح مثلما حدث فى أوج ازدهار الشيوعية حين اعتبر الدين مخدرا للشعوب، وقاموا بتدريس الإلحاد فى المدارس للوقاية من أى تخدير، وإما بتزييف حقيقة الإيمان بقشور دينية بواسطة سلطة كهنوتية لصالح السلطة السياسية، أو الطبقة الثرية، وإما باختزال

الدين إلى جزء منه دون كلية حضوره، وإما بابتداع أديان مستحدثة تحل محل الحقيقة الأصلية المنغرسة فى الوجود، وإما بالجمود عند تفسيرات لفظية ساكنة، وإما بحشر ما تصوروه الدين فى قالب لم يصنع له أصلا تحت مزاعم التفسير العلمى للنصوص الإلهية.

لاحظنا أثناء حدة الأزمة وقبلها، وتبريرا لها، وضدها، أن نبرة الخطاب الدينى قد ارتفعت من الجانبين، وهما واحد، لكنها ارتفعت لتستعمل الدين لا لتطلق عنان إبداعاته.

إذا كان لنا أن نتعلم من ذلك، فلندرك أولا أن كل التسطيح والتزييف والاختزال الذى لحق بالدين الحقيقى لم ينجح أن يملأ وعى الناس. إن علينا فتح هذا الملف من واقع ما تجلى لنا فى هذا المشهد الكارثى الأخير بأسلوب آخر لهدف آخر. إنهم -على الجانبين- استعملوا الدين تبريرا للقتل، والتدمير، والانتحار. علينا نحن أن نتحمل مسئولية إحياء الدين والإيمان بالإبداع الحقيقى، إذا كنا نحترم جذور المسألة حقا، ونسعى لنتعلم من المعنى الجذرى للكارثة.

إن جارودى دخل إلى الإسلام من باب الإبداع سعيا إلى تجاوز القيم التى يمثلها الغرب المغترب، وهو يصر على فتح باب الاجتهاد والجدل بين المتدينين حتى لا يكون الحوار فى النهاية من قبيل «فض الاشتباك» كما ذكرنا، أو كما وصف هو الحوار بين الإسلام المغلق، والمسيحية المغلقة بأنه «حوار بين مريضين». إن إسلام جارودى يذكرنا بضرورة النهل من ابن عربى والسهروردى والفارابى أكثر من الاقتصار على ما سجننا فيه الغرب من بعض ابن رشد باعتبار أنها بضاعتهم ردت إليهم، لا أكثر.

هذه قضية تحتاج إلى أن نستلهم جذورها وحقيقة أبعادها ليس من السلطات الوصية، وليس من التاريخ اللاهوتى وتجميد النص لا استلهامه، ولكن من واقع الممارسة على طيف متسع من الإبداع إلى الإيمان ملتزمين. إن عجزنا عن الإنصات للممارسات المتنوعة، وكذلك عن الوفاء بمواكبة طبيعة هذا الأصل الممتدة جذوره إلى ما قبل التاريخ، المفتوحة نهايته إلى الغيب، لن يترتب على ذلك إلا اختزال أى دين إلى ما ليس هو، وبالتالى استعماله فى كل أنواع الدمار والتدمير والقهر ضد الإبداع. وهذا بعض ما حدث.

إذا أحسنا الإنصات لما جرى، وأردنا أن نتعلم، فلا مفر من أن نفتح هذا الملف من مدخله الصحيح، وأن نحسن قراءته بحقيقته، وليس بمنظومة من خارجه، أو وصاية تراثية أو سلطوية؟ إن إغفال هذه القضية أو تهميشها أو تسليمها لغير أهلها سوف يؤدى إلى مثل ما جرى وأكثر.

(٥) عن الإعلام، والمعلومات، والعلم، والثقافة، والتنوير

هل كل هذا قضية واحدة؟

نعم، من المنطلق الذى أرادته هذه المداخلة. إن الذى يجمع هذه المجموعة فى قضية واحدة هو أنها جميعا تمثل إنجازات عصرية لها فاعلية يومية رائعة متلاحقة وملاحقة، كذلك فإنها جميعا تشترك فى أنها تُستعمل من باب التباهى بالتقدم بحيث إن من يتصف بها يعتبر معاصرا، أو عصريا، أو متمدنا، أو متحضرا، ثم إن علاقتها بآلياتها التكنولوجية الأحدث، وثيقة بحيث يصعب فصلهما.

الأمل الحقيقى بالنسبة لدور الإعلام الجديد هو أن تتزايد فرص الإعلام خارج السلطات، أى الإعلام المتجاوز للدول والمال، لا بد أن نحرص على الترويج لحق كل الناس فى التواصل بشبكة عالمية تنقل إنذارات الفناء، وتنظم سبل المواجهة. هذا بعض ما ينبغى أن نستثمره مما تعلمناه أثناء الأزمة وبعدها.

أما بالنسبة لمسألة المعلومات فإن ماجرى لا بد أن ينبهنا إلى خطورة التسليم لـ، أو الفرحة بـ «كمّ المعلومات» دون التدريب على مسئولية انتقائها وإعادة تشكيلها. إن تواصل عدد أكبر فأكبر من البشر مع بعضهم البعض بعيدا عن السلطات الوصية يمكن أن يسهم فى تنمية الجوانب الإيجابية المتجادلة بالمعلومات على حساب الممارسات السلبية المتلقية للمعلومات، وهو هو الذى يمكن أن ينقذ الجنس البشرى من الانخداع بكم المعلومات على حساب انتقاء الدال منها «معا».

أما عن تقديس العلم، الذى نتباهى به بأقل قدر من المسئولية، فهو دليل على جهل أخطر. العلم كيان متغير مفتوح النهاية لا يحتمل أن يختزل إلى صنم ثابت قابل للعبادة، لاحظنا فى الكارثة الأخيرة أن ما سمّى علما قد استُعمل بشكل سهّل مهمة التكنولوجيا لتوصف القنابل القاتلة بالذكاء مرة، وبالإبداع مرة، وبالقدرات الخارقة مرات. إن إعادة النظر فى استعمالات معطيات العلم والتكنولوجيا لصالح البشر أم ضدهم لا يكفى بعدما حدث. لا بد أن تمتد المراجعة إلى الانتباه إلى خطورة اختزال المعرفة إلى العلم، وأيضا إلى خطورة تقديس العلم وجعله وصيًا على منظومات أخرى موازية، أقدم، وربما أكثر فائدة. بعدما حدث، علينا أن نقيم موقفنا من العلم ليس فقط من حيث إننا نقدسه حتى نمسخه إلى ما ليس هو، ولكن من حيث إننا لا نعرفه ولا نمارسه غالبا (ومع ذلك نقدسه). إن الناظر الأمين إلى ما يجرى فى مجال البحث العلمى عندنا لا بد أن ينتبه إلى أن كثيرا من ذلك لا يمت إلى البحث بصلة، بل لا يمت إلى العلم بصلة.

إعادة النظر فى هذه الجزئية من هذه القضية يحتاج منا إلى دراسة جدوى الأموال والوقت والعقول التى تستهلك فى هذا المجال، وأن نكف عن المقارنات مع الأعداء (إسرائيل بالذات) بالأعداد، وبراءات الاختراع، وما ينشر من أبحاث بشكل كمّى إجمالى ننتهى منه إلى الشعور بالنقص الذى لا يترتب عليه إلا مزيد من التقديس دون الفعل، ومزيد من التسطيح دون فائدة تطبيقية حقيقية. إذا كان لنا أن نتعلم مما حدث، فعلينا أن نضع العلم فى موقعه النسبى بين وسائل المعرفة الأخرى التى يمكن أن نتميز بها أكثر (من حيث إن الدين، والإيمان، والحس الكلى، والوعى الشعبى، والتراث الشعبى، والفن والتجربة اليومية كلها مصادر موازية ومتكاملة مع العلم لتحقيق المعرفة). لعل فى ذلك نقطة انطلاق إلى ما يميزنا. ولو على مستوى يبدو بدائيًا أو كليًا أو خبراتيًا، لكنه نوعى ضرورى قد يؤدى إلى أهداف أخرى إذا كنا جادين فى البحث عن فروق دالة بيننا وبينهم.



أما عما يسمى بالثقافة (بمعنى النشاط الثقافى، وليس بمعنى شبكية الوعى الجماعى) والنشاط التنويرى، فإنه يسرى عليه من حيث التحفظات والحرص على عدم التقديس بعض ما سبقت الإشارة إليه فى فقرة العلم مع اختلاف المحتوى والشكل. إن دور المثقف (والتنويرى) لا بد أن يعاد النظر فيه بعد ما كان، حتى لا يصبح عبئا على تطور ناسنا فى اتجاه ما هُم، وما تعد به طبيعتهم. إن لم يتغير دور المثقف بعد ما حدث ليحمل مسئولية مباشرة فى الإسهام فى التصحيح والإبداع، فنحن لم نستفد شيئا.

إننا أحوج ما نكون فى كل هذه القضايا إلى أن نعيد النظر فى دور المثقف المكتبى لحساب المثقف المبدع الملتحم بالناس المخترق للمشاكل (خصوصا المشاكل المستحيلة، أو التى تبدو بلا حل) خذ مثلا قضية الديمقراطية، نحن فى حاجة إلى ديمقراطية أخرى حتى لا يكون البديل هو الشمولية. خذ قضية الدين والإبداع والإيمان، لا أقول إننا فى حاجة إلى دين جديد، ولكننا فى حاجة إلى إبداع يوصل الأديان ببعضها البعض فى توجه ضام، وهو ما كان على مدى تاريخنا كله، بين الأزهر «المصرى» والكنيسة «الوطنية»، لا يبعدهما عن بعضهما البعض بما أسميته فض الاشتباك، ولا يعمق تفضيل بعضهما على بعض. من الذى يستطيع أن يغامر بفعل ذلك إلا مثقف مسئول بالمعنى الإبداعى، وليس بالمعنى الموسوعى أو الشكلى من أعلى.

خلاصة هذه الفقرة هى التنبيه على ضرورة إعادة النظر فى خدعة تصور حذق الشكل دون حقيقة الجدوى وصواب التوجه. يمكن أن يوصف بعضنا بأنه مبدع لمجرد حصوله على جائزة أو أن نصًا له قد تمت ترجمته إلى لغة قوم أرقى منا وأسبق. كل هذا على العين والرأس، ولكن بغير أن نتجاوز الفرحة بالمظهر إلى الإسهام فى جوهر قضايانا الملحة. فإننا نسهل لهم مهمة استعمالنا طوعا أو كرها. ومن ثمّ تكرار ما حدث.

(٦) قضية الحروب التقليدية

تبدو هذه القضية أقل شمولا من القضايا السابقة، لكنها أكثر ارتباطا بما حدث بشكل يكاد يكون مباشرا. هذه الكارثة التى سميت حربا قد حسمت أمر نتيجة الحرب التقليدية لصالح القوى العمياء المدمرة شمولا. بل إنها جعلت هذه القوى أكثر غرورا وبجاحة. إن ما حدث، خصوصا بعد أن اكتسب نوعا من الشرعية بأثر رجعى (قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣)، يجعل حسابات الحرب والسلام تنتقل من حسابات قوة محلية مقابل قوة محلية (كذا طائرة وكذا دبابة مقابل كذا طائرة ودبابة عند العدو) إلى حسابات تربيطات عالمية، وتجاوزات إجرامية محتملة. أتصور أن النتيجة الحقيقية المباشرة التى ينبغى أن نتوقعها (إذا ما أحسنا قراءة ما حدث)، أن علينا

أن نعيد تسليح أنفسنا للدفاع بشكل مختلف. لم يعد ثَم مبرر أن تخصص البلاد العربية ثلث أو نصف دخلها، لشراء أسلحة تقليدية لن تستعملها إلا بإذن البائع ومشورته (بشكل ما). ما دام البائع قد كشف وجهه هكذا حتى أصبحت تربيطاته وصفقاته ظاهرة للعيان، فإنه لن يسمح لنا أن نستعمل أسلحته ضد حلفائه وشركائه، بل إنه سوف يتدخل بنفسه لحسم المعركة لحساب حليفه متى تجاوزنا شروطه المعلنة أو الخفية. إنه حتى لم يعد بحاجة إلى مبرر.

ليس معنى ذلك أن نسرّح جيوشنا، أو نستغنى عن أسلحتنا قبل أن تصدأ. إن تراجع دور الحرب التقليدية يمكن أن يترتب عليه نتيجتان: إحداهما سلبية، مثلما حدث من تدمير وضحايا فى الرياض والمغرب بعد كارثة العراق مباشرة، بمعنى أنه مادام القانون قد نُحى جانبا، والغدر وارد، والأبرياء ليس لهم اعتبار من جانب الأقوى، والحرب التقليدية أصبحت محسومة قبل أن تبدأ، فلا سبيل للمواجهة إلا بما أسموه الإرهاب الذى يمكن أن يعتبر حربا غير تقليدية بشكل أو بآخر.

الجانب الإيجابى للمسألة قد يأتى حين يدفعنا إدراكنا لضمور دور الحرب التقليدية إلى البدء فورا، وبمنتهى الجدية، فى الاستعداد الدائم لحرب المقاومة المستمرة سنين، وعقودا، وحتى نهاية العالم. هذا لا يتطلب فقط اقتناء أسلحة خفيفة، والتدريب على كل أنواع المقاومة من أول الدفاع الذاتى حتى القنص المحسوب حتى الاستشهاد المستمر، وإنما يحتاج سيكولوجيًا إلى تنمية نوع جديد من الشعور بالكرامة، وعلاقة جديدة بالموت والحياة، وثقة جديدة بالتطور وحتم النصر، ونوع جديد من الثقة فى الزمن والقدرة على تأجيل الحصول على نتيجة سريعة حاسمة. هذا الموقف الذى ينبغى أن يصبح جزءًا لا يتجزأ من التعليم والإبداع والتدين والإيمان لا بد أن يغير نوع الحياة من أساسها، هو موقف معلن لا تتبناه جماعات سرية، وإنما يمكن أن يصبح أسلوب الدفاع عن الوطن بشكل واضح ومعروف مسبقا للعدو. وعليه بدوره - لو بلغه مدى جدية الناس عبر العالم فى هذا الصدد- ألا يفرح بنصر مبدئى. لأنه سوف يتيقن أن الملايين الفلانية، فى الأرض العلانية، قد تدربوا من سن ١٦ إلى خمسين (مثلا) على أن يتصرفوا بشكل تلقائى (ربما يصل إلى درجة الانعكاس البقائى) بمجرد أن يطأ أرضهم محتل ما، حتى لو استولى هذا المحتل على ما يشاء من أرض وسلطة خلال ٢٤ ساعة. إنه بفضل هذا الدفاع الجاهز القادر على الاستمرار أربع وعشرين شهرا فأربع وعشرين عاما فمائة فألف..سوف تختلف الحسابات. هذه ليست دعوى أن تنقلب الحكومات الأضعف أعضاء فى نادى الإرهاب، إن حرب الاستنزاف التى تلت هزيمة ١٩٦٧ هى النموذج الباكر لهذه الدعوة، كما أن أغلب المقاومة الباسلة فى فلسطين يمكن أن تكون كذلك.

العائد من هذا التحول لن يقتصر على كسب الحرب على المدى الطويل، بل إنه جدير أن ينقذ اقتصاد كثير من دولنا، وفى نفس الوقت سوف يغير نموذج حياتنا إذ سوف نعيش حالة استنفار لا تتوقف، وأيضا قد ينمى قدراتنا الإبداعية لاختراع أساليب جديدة للمقاومة لا تخطر على بال.

(٧) قضية البنية الأساسية والاقتصاد

أعلم جيدا أنه ما كان ينبغى أن أؤجل هذه القضية حتى تأتى فى النهاية هكذا. كيف يمكن أن نتناول أى قضية مما اعتبرناه قضايا حقيقية وجوهرية دون أن نوفر الحد الأدنى للناس من مسكن ومواصلات وعمل؟ لكن علينا أيضا أن نتذكر أن الاكتفاء بتوفير الضرورة لا يعنى تلقائيا الانتقال إلى ما هو حرية. إن التوقف عند ترديد أن كل سلبياتنا (بل والسلبيات عبر التاريخ) لا بد أن تكون نتيجة مباشرة (أو غير مباشرة) للافتقار إلى الاحتياجات الأساسية، أو سوء التوزيع، أو للاستغلال والاستعمال، هو قول حق لا جدال حوله، أما أن يكون هو كل الحق، فهذا ما جعلنى أضع هذه القضية فى النهاية دون الإقلال من أهميتها.

فى هذا الصدد ثمة أمور خطيرة ينبغى أن تقدم عليها الحكومات من أول سحب الأموال من بنوكهم حتى حتم الاكتفاء الذاتى ثم التبادل من موقع القوة.

ثمة أمور أخطر تنتظر الناس - إذا تيقنوا من ثمن الكرامة والحرية - أمور تتعلق بتغيير نمط الاستهلاك، وعلاقات الإنتاج مما لا مجال لتفصيله هنا الآن وبعد.

لا أتصور أننى قلت شيئا جديدا أصلا، وفى نفس الوقت أعتقد أن كل ما قلته جديد.

الأرجح عندى أن هذه الجِدة التى تصورتُها فى هذا التناول لا تأتى من ظهور فكرة كانت غائبة عنى أو عن غيرى، لكن الفكرة إذا اقتربت من الوعى حتى لم تعد فكرة، فإنها تصبح شيئا آخر، لا أملك توضيحه أكثر.

الا هل بلغت.. اللهم فاشهد. ■

كتاب الزاوية



أوراق مصطفى كامل

لم يكن الزعيم الوطنى مصطفى كامل رجل سياسة وخطابة ونضال فقط، بل كان كاتبًا وصحفيًا ومثقفًا من طراز نادر. وقد استخدم مصطفى كامل كل وسائل النضال من أجل تحقيق هدفه الأثير وهو خروج البريطانيين من مصر. نشر مصطفى كامل مقالاته فى صحف عديدة أهمها «المؤيد» التى كانت وثيقة الصلة بالخديو عباس الثانى. لكنها أبدت نوعًا من الفتور فى نشر بعض مقالاته بعد فتور علاقاته مع الخديو. وقد نجح مصطفى كامل فى إصدار جريدة اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠. وبصدور اللواء دخل نضال الزعيم الوطنى منعطفًا خطيرًا حيث انتقل مصطفى كامل من كاتب وخطيب وطنى إلى زعيم حزب سياسى هو الحزب الوطنى فقد خرج الحزب الوطنى فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ من عباءة صحيفة اللواء.

وقد هدف مصطفى كامل من مقالاته إلى بث الروح الوطنية فى الشعب المصرى وعرض لتاريخ الأمم الناهضة والمكافحة وعمل على تربية الأمة المصرية تربية سياسية وقومية سليمة وتبنى فكرة إنشاء الجامعة وتناول قضايا اجتماعية عديدة، كالصرف على الملذات أو صرف الأموال فى الخارج فى المصايف والرحلات السياسية وتحرير المرأة وإن كان له رأى مختلف عن قاسم أمين الداعى لذلك.

وقد قام فريق من الباحثين المصريين تحت إشراف الدكتور يواقيم رزق مرقس بجمع هذه المقالات ونشرها على أجزاء من خلال مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر. ويتناول هذا الجزء المقالات المنشورة فى الفترة من ١٩٠٠ حتى ١٩٠٤.



مستقبل النظام العربى

تمهيد:

■ مثل العدوان الأمريكى الأخير على العراق والذى انتهى باحتلاله عسكرياً كارثة حقيقية للنظام العربى تهدد بقاءه فعلاً لا قولاً. لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يواجه النظام العربى فيها تحدياً جسيماً ومخاطر فادحة، غير أنها دون شك. كما سيحاول التحليل التالى أن يثبت. تمثل أخطر أزمة تعرض لها النظام العربى منذ نشأته الرسمية فى ١٩٤٥، ولذلك فإن إمعان النظر مطلوب فى الأزمة الراهنة، غير أنه مطلوب بالدرجة نفسها فى دلالات الخبرة الماضية لهذا النظام فى مواجهته للأزمات الخطيرة التى تعرض لها، فمن تلك الدلالات ومن إدخال متغيرات الحاضر عليها نستطيع أن نجرى محاولة لاستشراف المستقبل. وسوف يعرض التحليل التالى أولاً لخبرة النظام العربى فى مواجهة أخطر أزماته الماضية، ثم يتوقف ثانياً عند الأزمة الراهنة للنظام، والتى انتهت بالعدوان العسكرى الأمريكى على العراق فاحتلاله، ذلك أن أداء النظام فى مواجهة هذه الأزمة سوف يكشف عن دلالات مهمة بالنسبة للمستقبل وأخيراً ينتهى التحليل بمحاولة للتفكير فى سيناريوهات المستقبل.

أولاً. النظام العربى وخبرة الأزمات الماضية:

عندما وقعت كارثة احتلال العراق كان من الطبيعى أن يغمر إحباط هائل كل من هو عربى، وأن ينتشر الاعتقاد بأن الضياع والمستقبل كلمتان تحملان المعنى ذاته فى السياق العربى. لا يفكر الناس العاديون فى مثل هذه اللحظات فى الماضى ودلالات خبرته، ولا هم مطالبون أصلاً بذلك، غير أن واجب المتخصصين يتجاوز بالتأكيد منطق لطم الخدود وشق الجيوب وتوزيع الاتهامات واستمطار اللعنات إلى محاولة الفهم واستخلاص الدروس ومن ثم توجيه المستقبل.

لم يكن احتلال العراق هو الأزمة الأولى التى واجهها النظام العربى، ذلك أن سجله حافل بأزمات بعضها بالغ الخطورة، ومن الواضح أنه. أى النظام العربى. قد تمكن من الخروج من تلك الأزمات بشكل أو بآخر على نحو ما سنرى، ولذلك فإن تذكيراً سريعاً بها وبآليات تجاوزها سوف يكون شديد الدلالة بالنسبة للحاضر والمستقبل. وقد يكون ممكناً الاتفاق على أن أخطر الأزمات التى واجهها النظام العربى منذ نشأته الرسمية فى ١٩٤٥ يتمثل فى هزيمة ١٩٤٨ فى الحرب العربية. الإسرائيلية الأولى وآثارها عليه، والشىء نفسه بالنسبة لهزيمة ١٩٦٧، ثم الانقسام المصرى. العربى حول نهج التعامل مع إسرائيل اعتباراً من زيارة السادات للقدس فى ١٩٧٧ ووصولاً إلى توقيع أول معاهدة سلام إسرائيلية. عربية فى ١٩٧٩، وأخيراً تداعيات الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠.

ليست هذه بطبيعة الحال هى كل الأزمات الخطيرة التى واجهها النظام العربى منذ نشأته، ولكن الادعاء ممكن بأنها تمثل أخطرها. ويمكن التذكير على سبيل المثال بأزمتين أخريين أولاهما الأزمة التى ترتبت على الانفصال السورى عن الجمهورية العربية المتحدة فى سبتمبر ١٩٦١ وما ترتبت عليها لاحقاً من تداعيات على النظام العربى عادة والجامعة العربية خاصة، حين وصلت الأمور إلى انسحاب مصر (الجمهورية العربية المتحدة فى ذلك الوقت) من اجتماعات المجلس الوزارى لجامعة الدول العربية المنعقد فى شتورا فى أغسطس ١٩٦٢ بسبب الاتهامات السورية الموجهة لمصر بأنها تتدخل فى شئونها الداخلية، وكذلك بأزمة الصدام بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية فى سبتمبر ١٩٧٠.

وقد يعطى هذا السجل الحافل بالأزمات انطباعاً بأن النظام العربى مأزوم منذ نشأته بحيث يمكن الاستنتاج بأن ما وصل إليه حاله الآن أمر طبيعى، غير أن إمعان النظر فى تطور النظام العربى لا يعزز هذا الانطباع، وقد يكون من الأدق القول بأن النظام العربى كان دوماً معرضاً للهجوم من خارجه فضلاً عن عوامل ضعفه البنيوية الذاتية، ومع ذلك فقد تمكن دائماً من تطوير آليات بشكل أو بآخر للتعامل مع كافة الأزمات التى مثلت تهديداً له بدرجة أو بأخرى، بحيث تمكن من اجتيازها وإن على نحو يستحق التوقف والتحليل.

فى أعقاب هزيمة ١٩٤٨ على سبيل المثال يلفت النظر أن النظام العربى الرسمى حاول أن يصلح من شأنه فتوصل إلى اتفاقية الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى فى ١٩٥٠، وقد أتت هذه المعاهدة بآلية معقولة للحفاظ على الأمن القومى العربى بالنص فى مادتها السادسة على تكوين مجلس للدفاع المشترك من وزراء الخارجية والدفاع الوطنى للدول المتعاقدة أو من ينوبون عنهم، وما يقرره هذا المجلس بأكثرية ثلثى الدول الأعضاء يكون ملزماً لجميع الدول المتعاقدة، عكس الحال فى ميثاق جامعة الدول العربية الذى تتمثل معضلته لدى الكثيرين فى أن قراراته المتخذة بالأغلبية لا تلزم سوى من يوافق عليها، وقد أمكن الاستناد إلى هذه الاتفاقية لدعم حركة النظام لاحقاً فى مواجهة إسرائيل فى قمتى ١٩٦٤ فى القاهرة والإسكندرية على سبيل المثال، وهما القمتان اللتان انعقدتا لمواجهة التهديدات الإسرائيلية لمياه نهر الأردن، غير أنه لا يخفى أن ثمة مواقف أخرى كثيرة لم يمكن فيها وضع هذه الاتفاقية موضع التنفيذ أو حتى التصرف وفقاً لجوهرها وروحها كما يشى بذلك أداء النظام العربى فى مواجهة الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠ على سبيل المثال.

وعندما وقعت هزيمة ١٩٦٧ كانت تداعياتها النفسية شديدة الوطأة ربما لأنها جاءت. على عكس هزيمة ١٩٤٨. فى ذروة مشروع نهضوى عربى متكامل، وساد الانطباع حيناً بأن كل شىء قد انهار ومع ذلك فلم تمض سوى أيام حتى بدأت عملية إعادة البناء العسكرى ومقاومة الاحتلال الإسرائيلى فى مصر، غير أن الأهم من منظور النظام العربى أن قمة الخرطوم قد انعقدت فى أغسطس ١٩٦٧

أحمد يوسف أحمد

بعد أكثر قليلاً من شهرين على وقوع الهزيمة، وتوصلت إلى ما يمكن القطع بأنه معادلة سليمة للأمن القومي العربي وظلت هذه المعادلة فاعلة حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣. تمثلت المعادلة فى التمييز بين التناقضات الرئيسية وتلك الثانوية من منظور أمن النظام العربى فى ذلك الوقت كانت آثار الحرب الأهلية فى اليمن ماتزال متمثلة عربيًا فى استقطاب مصرى. سعودى حاد، وهنا توصلت القمة إلى إنهاء ذلك الاستقطاب بما مكن من تصفية بؤرة التناقض الثانوى فى النظام بين مصر والسعودية كى يمكن له مواجهة التناقض الرئيسى المتمثل فى الاحتلال الإسرائيلى لأراض عربية.

ينقلنا هذا إلى أزمة العلاقات المصرية. العربية فى أعقاب زيارة القدس التى سبقت الإشارة إليها، وفى هذه الأزمة علقت عضوية مصر فى جامعة الدول العربية وكافة المنظمات المتخصصة المرتبطة بها، ونقلت مقارها الموجودة فى القاهرة، وقطعت كافة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والدول العربية عدا ثلاث رفضت الالتزام بقرارات قمة بغداد ١٩٧٨ هى عمان والصومال وجيبوتى، ومع ذلك فلم تكد تمضى شهور على تلك الأزمة الطاحنة حتى بدأ يتضح أن عوامل التمسك فى النظام العربى قد أخذت تؤتى أكلها.

كانت الحرب العراقية. الإيرانية قد نشبت اعتباراً من سبتمبر ١٩٨٠ أى بعد حوالى سنة ونصف سنة من التطورات السابقة، وفى إطار تلك الحرب كان لدى العراق برنامج تسليحى ضخم بالإضافة إلى حاجته لقطع غيار ما هو موجود لديه من الأسلحة، وكذلك للذخائر، وفى ذلك الوقت رفض الاتحاد السوفيتى تزويده بما يحتاجه على أساس تقييمه الإيجابى للثورة الإيرانية ودورها فى تصفية النفوذ الأمريكى فى إيران، وربما راودته الآمال حينذاك فى أن يتمكن حزب توده الشيوعى من تثبيت أقدامه فى إيران فى هذا السياق، أو كان يتمنى على الأقل أن ينجح الدور الإيرانى المعادى للولايات المتحدة فى الانتشار خارج حدود إيران. هنا برز دور مصر كمصدر بديل لتزويد العراق ببعض أنواع الأسلحة وقطع الغيار والذخائر التى يحتاجها فى إشارة. وإن غير مباشرة. إلى مفهوم الأمن القومى العربى، بمعنى أن العراق الذى قاد حملة مقاطعة مصر لسياستها تجاه إسرائيل بات يدرك أن ثمة حاجة لمؤازرتها له إزاء الخطر الإيرانى، ولذلك طرق الباب المصرى فى ظل حكم السادات للعمل على تلبية هذه الحاجة، وهو ما فعله الرئيس السادات بما غرس بذور عودة الالتحام للصف العربى من جديد منذ عام ١٩٨١.

ثم مثل غزو العراق للكويت أزمة غير مسبوقة فى النظام العربى ذلك أنها كانت المرة الأولى التى تغزو فيها دولة عربية دولة عربية أخرى ولتحقها بها. كان قد سبق للنظام العربى أن شهد مطالبات إقليمية من دول عربية تجاه أخرى، وشهد كذلك مصادمات حدودية عسكرية بين دول عربية اتسع نطاق بعضها، لكنها كانت المرة الأولى التى يشهد فيها غزواً كاملاً وإلحاقاً إكراهياً من دولة عربية لأخرى. من ناحية أخرى كان نموذج الصراعات الكبرى بين وحدات النظام قبل الغزو العراقى للكويت يشير إلى أن تلك الصراعات مثلت بأحد المعايير وجهاً آخر من وجوه التماسك والوحدة، فقد كان معظمها يشير إلى حالة توحد للنظام فى مواجهة دولة بعينها خارجة عن مألوف سلوك النظام. هكذا كان نموذج الخلاف بين الأردن وباقى الدول العربية حين ضم الأمير عبد الله الضفة الغربية الفلسطينية لنهر الأردن إلى إمارته فى ١٩٥٠، ونموذج الخلاف بين العراق وباقى الدول العربية بمناسبة انخراط الأول فى مشروع حلف بغداد عام ١٩٥٥، وكذلك نموذج الخلاف بين العراق أيضاً وباقى الدول العربية عندما طالب رئيس وزرائه عبد الكريم قاسم فى ١٩٦١ بعودة الكويت. التى كانت تتأهب لاستكمال مقومات الدولة بعد خلاصها من التبعية لبريطانيا . إلى حضن الأم العراقية، ونموذج الخلاف بين الأردن وباقى الدول العربية بمناسبة الصدام بين السلطات الأردنية والمقاومة الفلسطينية فى ١٩٧٠، ونموذج الخلاف بين السادات وباقى الدول العربية حين قام بزيارته الشهيرة إلى القدس وما ترتب عليها من تداعيات. أما فى حالة غزو العراق للكويت فقد انقسم النظام العربى إلى قسمين متساويين تقريباً على النحو الذى أظهره سلوك الدول العربية تجاه واقعة الغزو وتداعياتها، وهو ما بدا واضحاً فى السلوك التصويبى لتلك الدول فى قمة القاهرة فى أغسطس ١٩٩٠. لم يكن الخلاف بطبيعة الحال يدور صراحة حول الموافقة على غزو الكويت من عدمه، ولكنه كان متعلقاً بكيفية مواجهة تداعيات هذا الغزو بين من يرون بأن مواجهة هذه التداعيات ممكنة فى إطار النظام العربى، وهم الذين صنفوا باعتبارهم أنصاراً لصدام حسين، وأولئك الذين اعتقدوا بأن إنهاء الغزو غير ممكن إلا عن طريق الاستعانة بقوات دولية، وهم الذين صنفوا مؤيدين لدولة الكويت. هكذا تبلور معسكران متضادان بمناسبة تلك الأزمة أحدهما يتكون من دول مجلس التعاون الخليجى الست بالإضافة إلى مصر وسوريا وإلى حد ما المغرب والثانى تدخل فيه باقى الدول العربية بدرجة أو بأخرى حيث إنه كان منطوياً على درجة من درجات التمايز فى المواقف.

فى الواقع العملى رجحت كفة المعسكر المناصر للكويت كما هو معلوم، فانتزع قراراً بالأغلبية من قمة القاهرة بالموافقة على الإجراءات التى اتخذتها دولة الكويت والمملكة العربية السعودية لحماية أمنيهما، أى بعبارة أخرى على الاستعانة بقوات أجنبية لإخراج القوات العراقية من الكويت ومنعها من الامتداد خارجها، وهكذا لم يتكون التحالف الدولى الذى قادته الولايات المتحدة الأمريكية استناداً إلى شرعية قرارات مجلس الأمن فحسب، ولكنه تمتع أيضاً بشكل أو بآخر بشرعية عربية وإن مجروحة، ومثل ذلك دون شك خرقاً ثانياً فاضحاً فى مفهوم الأمن القومى العربى بعد الخرق الأول الذى مثلته واقعة الغزو ذاتها: بعبارة أخرى انقلبت معادلة الأمن القومى العربى رأساً على عقب: كان مصدر التهديد عربياً وآلية الحماية دولية.

فى تلك الأثناء روج البعض لمفهوم نهاية النظام العربى، بل لقد راح فريق آخر يتساءل عما إذا كان مثل هذا النظام قد وجد فى أى وقت من الأوقات، لكن الأمر اللافت أن تداعيات الأزمة على الرغم من فداحتها أخذت فى التلاشى تدريجياً وإن بوتيرة بطيئة. فى البداية حدثت مصالحات بين الأطراف غير المباشرين فى معسكرى الأزمة، أى بين من صنفوا أنصاراً للكويت ومن كيفت مواقفهم باعتبارهم أعداءً لها، فقد كان طبيعياً أن تتوتر العلاقات بين حلفاء الكويت وخصومها (حالة مصر واليمن على سبيل المثال)، وبعد أن تم تجاوز التداعيات على هذا المستوى بدأت تصفية آثار الأزمة على مستوى علاقة العراق بأنصار الكويت كسوريا أو مصر وعلاقة الكويت بأنصار العراق كالأردن واليمن من ناحية أخرى، ثم بدأت بعد ذلك مواجهة جوهر المشكلة العراقية. الكويتية. صحيح أن ذلك قد تأخر لعدة سنوات، لكنه كان تأخيراً مفهوماً بالنظر إلى فداحة واقعة



النظام العربى كان دوماً معرضاً للهجوم من خارجه فضلاً عن عوامل ضعفه البنيوية الذاتية، ومع ذلك فقد تمكن دائماً من تطوير آليات بشكل أو بآخر للتعامل مع كافة الأزمات التى مثلت تهديداً له بدرجة أو بأخرى، بحيث تمكن من اجتيازها

الغزو. هكذا تعطلت القمم العربية منذ أغسطس ١٩٩٠ وحتى يونيو ١٩٩٦. وعندما عقدت قمة فى ذلك التاريخ فى القاهرة لمواجهة تداعيات وصول اليمين الإسرائيلى إلى الحكم بزعامة بنيامين نتانياهو رأى الداعون لتلك القمة أن حضور العراق لها قد تكون له تداعيات سلبية على مداولاتها، ولذلك لم يدع لها أصلاً، غير أنه دعى فى قمة الأقصى التى انعقدت فى القاهرة فى أكتوبر ٢٠٠٠، وإن لم تناقش المسألة العراقية لإتاحة الفرصة للتركيز على الهدف الأصلى للقمة المتمثل فى دعم الانتفاضة، غير أن محاولة جادة جرت بعد ذلك لإنجاز خطوة نوعية فى طريق المصالحة العراقية ـ الكويتية فى قمة عمان الدورية الأولى فى مارس ٢٠٠١، وإن لم تتوصل إلى غايتها، وقيل فى حينه أن تشدداً عراقياً قد عوق نجاح تلك المحاولة.

وفى مطلع ٢٠٠٢ قام الأمين العام لجامعة الدول العربية بزيارة إلى العراق وأعلن فى نهاية زيارته أن الرئيس العراقى حمله أفكاراً معينة إلى القادة العرب بشأن النزاع بين العراق والكويت، وعندما عقدت قمة بيروت فى مارس ٢٠٠٢ توصلت إلى أساس حقيقى لمصالحة عراقية ـ كويتية بإعلان نائب الرئيس العراقى أن بغداد قد تعهدت خطياً بعدم تكرار اجتياح الكويت واحترام سيادتها ووحدة أراضيها، فضلاً عن توصل القمة لعدد من القرارات المحددة بخصوص تصفية القضايا العالقة بين البلدين.

غير أن ذلك الإنجاز المهم الذى تمكنت قمة بيروت من تحقيقه أخذ فى التآكل تدريجياً مع تصاعد النبرة العدوانية الأمريكية إزاء العراق، وكان واضحاً من البداية أن الإدارة الأمريكية لم تكن مستريحة لتلك الخطوة التى تحققت، وأنها تعمل على تخريبها، وفى هذا الإطار شهد الأسبوع الثانى من شهر يونيو ٢٠٠٢ جولة لوزير الدفاع الأمريكى فى دول الخليج كشف فيها بوضوح عن نواياه التخريبية إزاء المصالحة العراقية ـ الكويتية، فوصف فى تصريحات علنية دولة الكويت بأنها «دجاجة»، متعجباً كيف تبيت الدجاجة فى حضن الأسد؟ وبمرور الوقت واتضاح الإصرار الأمريكى على العدوان على العراق، وتمركز القوة الأمريكية البرية الضاربة فى أراضى الكويت ذهب إنجاز المصالحة العراقية ـ الكويتية أدراج الرياح. صحيح أن الاحتلال العسكرى الأمريكى للعراق بدا وكأنه فتح صفحة جديدة تماماً فى العلاقات العراقية ـ الكويتية لكنها للأسف لم تمثل إضافة لتماسك النظام العربى وإنما أكدت واقع الهيمنة الأمريكية على المنطقة.

مثل غزو العراق للكويت أزمة غير مسبوقة فى النظام العربى ذلك أنها كانت المرة الأولى التى تغزو فيها دولة عربية دولة عربية أخرى سبق للنظام العربى أن شهد مطالبات من دول عربية تجاه أخرى، لكنها كانت المرة الأولى التى يشهد فيها غزواً كاملاً وإلحاقاً إكراهياً من دولة عربية لأخرى

لم يكن التحليل السابق لبعض من كبريات الأزمات التى واجهها النظام العربى سوى وسيلة للتأكيد على أن ما يواجهه النظام العربى الآن من أزمة طاحنة تهدد بقاءه ليس بجديد، وأن ثمة قوى موضوعية داخل النظام العربى كان بمقدورها دائماً أن تدفع فى اتجاه إعادة التماسك والالتحام إلى صفوف النظام، ومن الضرورى أن نستخلص الدروس من الكيفية التى خرج بها النظام من أزماته السابقة، وفى هذا الإطار يمكن تسجيل الملاحظتين الرئيسيتين التاليتين:

تشير الملاحظة الأولى إلى أن النظام العربى قد تجاوز أزماته السابقة بنوعين من الآليات: الأول آليات تغيير والثانى آليات إصلاح. ومن اللافت أن السبق الزمنى كان لآليات التغيير لتتوقف بعد ذلك وتحل محلها آليات الإصلاح التى يبدو وكأن قدراتها قد أخذت فى التآكل بدورها عبر الزمن مع بروز متغيرات داخلية (عربية) وخارجية (عالمية) جديدة، وسنعود إلى هذه النقطة لاحقاً لكننا نكتفى الآن بقدر من التفصيل عن آليات تجاوز النظام العربى لأزماته.

فى الأزمة التى وجد النظام العربى فيها نفسه فى أعقاب هزيمة ١٩٤٨ جرب النظام فى البداية كما سبقت الإشارة آليات الإصلاح (تقوية النظام العربى باتفاقية الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى) لكن ضآلة الآثار التى ترتبت على هذا الإنجاز أفسحت الطريق تاريخياً لقوى التغيير داخل النظام والتى تزعمتها مصر بالمشروع التحررى القومى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكان لآلية التغيير هذه إنجازاتها الواضحة على نحو ما سبقت الإشارة إليه. ويمكن أن نشير أيضاً إلى أن الأزمة التى واجهها النظام بانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى ١٩٦١، والاستقطاب الحاد الذى نشأ بين سوريا ومصر فى أعقاب نجاح الانفصال وتداعياته على الجامعة العربية قد انتهت بآليات تغيير أيضاً بقيام الثورة فى شمال اليمن فى ١٩٦٢ ثم فى جنوبه لاحقاً فى ١٩٦٣ وصعود الدور المصرى فى النظام العربى من جديد، أو بسقوط النظام الانفصالى فى سوريا فى ١٩٦٣ بما أعاد الشرعية إلى ذلك الدور.

أما أزمة ما بعد هزيمة ١٩٦٧ فقد اتخذ تجاوزها طابعاً إصلاحياً بمعنى أن عوامل التضامن بين وحدات النظام بغض النظر عن التناقضات فيما بينها قد تمكنت من إيجاد معادلة سليمة لمواجهة تداعيات الهزيمة فى إشارة واضحة إلى وحدة النظام فى مواجهة الخطر الخارجى، وحدثت الآلية الإصلاحية نفسها بالنسبة لأزمة العلاقات المصرية ـ العربية اعتباراً من ١٩٧٧ وحتى ١٩٨٧. فقد وضعت قمة عمان ١٩٨٧ على نحو ما رأينا أساساً لعودة العلاقات المصرية ـ العربية الثنائية، ثم أكملت قمة الدار البيضاء ١٩٨٩ خطى المصالحة العربية ـ المصرية بحضور مصر للقمة وعودتها إلى مكانها الطبيعى فى منظومة العمل العربى المشترك. ومن المهم للغاية فى هذا السياق أن نلاحظ أن قوى التغيير فى النظام العربى فى ذلك الوقت حاولت أن تتجاوز أزمة النظام بآليات تغيير سواء بتكوين جبهة الصمود والتصدى من الدول العربية المتشددة فى رفضها للمسلك المصرى إزاء إسرائيل فى حينه، أو بوضع أساس لوحدة سورية ـ عراقية فى أكتوبر ١٩٧٨، لكن المحاولة باءت بالفشل بتفكك الجبهة وانهيار مشروع الوحدة السورية ـ العراقية بعد شهور قلائل.

ومن الواضح أيضاً أن الخطوات التى تمت على طريق تجاوز تداعيات الغزو العراقى للكويت ذات طابع إصلاحى، بمعنى أنها انطوت على محاولة لاتفاق وحدات النظام ككل على حلول للأزمة فى إطار الوضع الراهن.

أما الملاحظة الثانية فتتمثل فى أن تجاوز النظام العربى لأزماته لم يكن يعنى دائماً الانتقال إلى حالة من القدرة على الفعل والتأثير، وإنما تفاوتت قدرة النظام فى هذا الصدد، ومن المهم محاولة معرفة الظروف التى تجاوز فيها النظام العربى أزماته منتقلاً إلى حالة من حالات الفعل، وتلك التى تجاوز فيها الأزمة وكفى.

فى الأزمة التى أعقبت هزيمة ١٩٤٨ تمكنت قوى التغيير كما سبقت الإشارة من أن يكون لها فعل مؤثر ترتب عليه إنجاز بعض الخطوات المهمة داخل النظام من جانب وفى مواجهة خصومه الخارجيين من جانب آخر، ويبدو هذا واضحاً بصفة خاصة فى إنجاز تصفية الاستعمار الأوروبى فى الوطن العربى، ويلاحظ بطبيعة الحال أن القدرة على الفعل لم تكن مطلقة، فقد بقى الاستعمار الصهيونى لفلسطين كما أن قوى التغيير لم تتمكن من حماية الوحدة المصرية ـ السورية، وهكذا.

فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ أيضاً تمكنت الصيغة السليمة التى وضعتها قمة الخرطوم من أن تنجز فعلاً مؤثراً فى ساحة المواجهة مع إسرائيل تمثل فى حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣، غير أنه من الأهمية بمكان أن تجاوز النظام لأزمة العلاقات المصرية ـ العربية بآلية إصلاحية ما بين عامى ١٩٨٧ و١٩٨٩ قد انطوى على تقديم تنازلات عربية جوهرية فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وإن كان قد ارتبط من ناحية أخرى بتفعيل أداء النظام فى الحرب العراقية ـ الإيرانية، أى أن القدرة على الفعل كانت محدودة أو ناقصة، وبالذات فى اتجاه التهديد الرئيس للنظام النابع من الكيان الصهيونى. أما فى الحالة الأخيرة (أزمة تداعيات الغزو العراقى للكويت) فإن آليات الإصلاح لم تستطع أصلاً أن تكمل إنجاز غايتها المباشرة.

ويلاحظ أن الخروج الفاعل للنظام العربى من أزماته من عدمه قد ارتبط بشرطين أحدهما داخلى (عربى) والثانى خارجى (عالمى)، أما الشرط الداخلى فهو وجود قيادة واضحة للنظام تمثلت فى حالتى الخروج من تداعيات هزيمتى ١٩٤٨ و١٩٦٧ فى القيادة المصرية للنظام من خلال مشروع تحررى قومى، وعندما حدث انتشار أو تشتت للوظيفة القيادية داخل النظام سواء بتراجع الدور القيادى المصرى اعتباراً من السبعينيات لغياب المشروع القومى والقيادة الكاريزمية، أو لبروز قوى قيادية جديدة بعد طفرة أسعار النفط فى ١٩٧٣ وما بعدها قلت القدرة على الفعل ثم تآكلت، وأما الشرط الخارجى فيلاحظ كذلك أن الخروج الفاعل للنظام من أزماته قد تم فى إطار نظام دولى يتسم بثنائية القطبية،

وبالتالى استطاع النظام العربى الاستفادة ولو نسبياً من الصراع بين القطبين فى إتاحة هامش أوسع لحرية الحركة، وينطبق هذا على الأزمتين الأوليين اللتين تجاوزهما النظام العربى بمد تحررى قومى ضد الاستعمار الأوروبى ثم تضامن حقيقى فى مواجهة الكيان الصهيونى. أما تجاوز أزمتى العلاقات المصرية - العربية وتداعيات الغزو العراقى للكويت فقد تم فى إطار نظام دولى يتسم بوفاق حقيقى بين طرفى قمته، وذلك بعد وصول ميخائيل جورباتشوف إلى سدة الحكم فى الاتحاد السوفيتى فى ١٩٨٥. ويلاحظ أخيراً أن تجاوز أزمة تداعيات الغزو العراقى لم يكتمل على الرغم من إنجاز خطوات حقيقية فى اتجاهه، وأن ذلك قد ارتبط بانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقمة النظام العالمى.

يعنى ما سبق أن تجاوز النظام العربى لأزماته الطاحنة كان ممكناً بل وكان ممكناً فى الوقت نفسه أن يرتبط هذا التجاوز بقدرة واضحة على الفعل والتأثير، لكن ثمة شروطاً داخلية (أى عربية) وخارجية (أى دولية) لهذا التجاوز الفاعل فإلى أى مدى يمكن الاستفادة من دلالات الخبرة الماضية للكيفية التى واجه بها النظام العربى أزماته فى تحليل الأزمة الراهنة للنظام؟

ثانياً: الأزمة الراهنة للنظام بين النمطية والخصوصية:

ينصرف التحليل فى هذا الجزء إلى محاولة الإجابة عن سؤال بالغ الأهمية: هل تمثل الأزمة الراهنة التى يمر بها النظام العربى تكراراً نمطياً لأزماته الخطيرة السابقة بحيث يمكن تطبيق دروس الخبرة الماضية عليها؟ أم أنها أزمة متفردة أو على الأقل بها شىء من التفرد، الأمر الذى يفرض علينا إدخال أثر المتغيرات التى استجدت على هذه الأزمة فى التحليل؟ لاشك أولاً أن الظروف الداخلية (العربية) والخارجية (الدولية) التى ارتبطت بالأزمة الراهنة لا تمثل عودة إلى نمط الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى حين كانت هناك قيادة قادرة على بلورة اتجاه عام لحركة النظام وبنية دولية ثنائية القطبية أكثر مواتاة لحركة النظم الإقليمية مما هى عليه اليوم.

فقد وقعت هذه الأزمة فى ظل انقسام عربى بدت آثاره واضحة على أداء النظام العربى فى مواجهتها، وسواء كان هذا الانقسام يرجع إلى عوامل بنيوية عربية كرواسب تداعيات الغزو العراقى للكويت أو غياب القيادة الفاعلة للنظام، أو إلى عوامل عالمية - على نحو ما سنرى - فإنه، أى هذا الانقسام - قد مثل خروجاً واضحاً على مألوف سلوك النظام العربى إزاء التهديدات الخارجية، ذلك أن الخبرة الماضية لهذا النظام تشير إلى أن العرب قد توحدوا عادة - على الرغم من خلافاتهم أو نزاعاتهم أو صراعاتهم البينية فى وجه التهديدات الخارجية. هكذا فعلوا فى ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ فى مواجهة إسرائيل ومن تحالف معها، وهكذا فعلوا أيضاً فى ١٩٨٧ بمناسبة الحرب العراقية - الإيرانية، لكنهم فى هذه المرة أخفقوا فى التوحد إزاء التهديدات الأمريكية للعراق فالعدوان عليه، على الرغم من أن ذلك قد تم على الصعيد اللفظى على نحو ما سنرى، ويعنى ذلك أن واحداً من أهم الملامح البنيوية الأساسية الإيجابية فى النظام العربى قد تلاشى فى الأزمة الراهنة، وللأمانة فإن بدايات هذا التطور يمكن أن ترد إلى الخلاف العربى - العربى حول الاستعانة بقوات أجنبية لتحرير الكويت، لكن فكرة أن المعتدى الأصلى كان عربياً وهو العراق، وأن ثمة شرعية ما يمكن أن تُنسب لدور خارجى فى تحرير بلد عربى من غزو تعرض له خاصة فى إطار الاستناد لقرارات من مجلس الأمن غطت فى حينه على هذا الخلاف، أما الآن فقد بدا الخلاف صارخاً لأن نية العدوان كانت مبيتة وواضحة وتم وضعها موضع التنفيذ وانتهت إلى احتلال كامل للعراق، وهى أخطر نتيجة ترتبت على صدام للنظام العربى مع القوى المهيمنة فى النظام العالمى منذ نشأة ذلك النظام فى ١٩٤٥. ولذلك فإن الانقسام إزاءها يبدو مخيفاً ومنذراً بأوخم العواقب بالنسبة لمستقبل النظام.

ويمكن فى الواقع أن يرد هذا الانقسام فى المواقف العربية إلى ثلاثة عوامل، أولها عوامل عالمية ترتبط بالولايات المتحدة الأمريكية وسياستها، وثانية قطرية عربية تتعلق بهشاشة النظم العربية أمنياً وسياسياً واقتصادياً. وثالثة عربية - عربية تنبثق من الوضع الراهن للنظام العربى.

أما العوامل العالمية: فتشير إلى الوضع الراهن فى النظام العالمى الذى يتسم منذ العقد الأخير من القرن الماضى بأحادية قطبية من حيث بنية القيادة فيه الأمر الذى أعطى للولايات المتحدة الأمريكية قدرة أكبر على التأثير على مجريات السياسة العالمية مقارنة بمرحلة القطبية الثنائية، ولما كان هدف الاستراتيجية الأمريكية المعلنة فى الشئون العالمية هو إدامة هذه الهيمنة الأحادية فإن ثمة مهام مطلوبة لإنجاز هذا الهدف، ومن ضمن هذه المهام أو ربما فى القلب منها تأمين مسألة النفط بالنسبة للمصالح الأمريكية، الأمر الذى يغرى الإدارة الأمريكية بأن تفعل ما فعلت فى العراق وله ما له من مكانة عالية فى إنتاج النفط وتصديره وكذلك فى الاحتياطى الثابت منه.

ومن المؤكد أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر أياً كانت طبيعتها وحقيقة

إن النظام العربى قد تجاوز أزماته السابقة بنوعين من الآليات: الأول آليات تغيير والثانى آليات إصلاح. ومن اللافت أن السبق الزمنى كان لآليات التغيير لتتوقف بعد ذلك وتحل محلها آليات الإصلاح التى يبدو وكأن قدراتها قد أخذت فى التآكل



تأثيرها فى السياسة الأمريكية قد أعطت الإدارة الأمريكية فرصة ذهبية للمضى قدماً فى تنفيذ خططها العالمية إن لم يكن بإكراه الآخرين دون عنف، فليكن باللجوء إلى أقصى درجات العنف كما حدث بالفعل فى حالتى أفغانستان والعراق.

ويعنى ما سبق أن النظم العربية قد شهدت أولاً مدى عنف السلوك الأمريكى تجاه الدولة التى اعتبرتها الإدارة الأمريكية فى حينه الهدف الأول لاستخدام القوة وهى أفغانستان، ثم تابعت بعد ذلك - أى النظم العربية - التهديدات الأمريكية للعراق، ولم يكن لديها أدنى شك فى صدقية هذه التهديدات، بمعنى أن الإدارة الأمريكية ستلجأ إلى العنف لا محالة فى حالة إبداء العراق أى درجة من درجات التمرد، أو حتى فى غير هذه الحالة، خاصة وقد وضعت الأمور فى سياق يستحيل معه أن يجد العراق طريقاً لقبول الإملاءات الأمريكية، فقد كانت الإدارة الأمريكية تصر على أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، وإزاء عجز لجان التفتيش والتحقق الدولية المكلفة بالكشف عن هذه الأسلحة عن إثبات ذلك أصرت القيادة الأمريكية مجدداً على أنه يتعين على العراق أن يبادر بالكشف عن هذه الأسلحة التى كان يؤكد أنه لا يمتلكها.

وبالفعل وقع العدوان على العراق على النحو الذى تنبأ به الكثيرون منذ شهور عديدة سابقة على وقوعه، وبالتالى أصبحت النظم العربية واثقة من أن التهديدات الأمريكية هى من ذلك النوع ذى الصدقية الكاملة، أى الذى يكون تجاوزه لمرحلة «التخويف» مؤكداً فى حال الإخفاق فى تطويع سلوك المهدَّد (بفتح الدال) وفقاً لإرادة مصدر التهديد، ولذلك فإن كلاً منها أصبح واثقاً من مصيره فيما لو أنه اعترض على السياسة الأمريكية، وكان لذلك أثره الواضح على صمت النظم العربية أثناء العدوان على العراق أو تبنيها لمواقف غير مألوفة إزاء القضايا التى أثارها العدوان عليه، بل وتطوع بعضها بمواقف تكشف عن تأييد ضمنى أو غير مباشر للسلوك الأمريكى تجاه العراق.

وأما بالنسبة للعوامل القطرية العربية فيمكن القول بأن الأقطار العربية تنقسم من حيث اعتمادها على الولايات المتحدة الأمريكية إلى ثلاث فئات: فئة أولى تعتمد عليها مباشرة فى الحفاظ على أمنها وذلك وفق اتفاقات معروفة ومعلنة، وفئة ثانية تعتمد عليها بدرجة أقل تتمثل فى الحصول على قدر من المساعدات الاقتصادية يختلف من دولة لأخرى وربما تتمثل أيضاً فى درجة من درجات الاعتماد العسكرى، وفئة ثالثة لا تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية أصلاً من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، غير أن اللافت أن الهشاشة السياسية والاقتصادية للدول الواقعة ضمن الفئتين الثانية والثالثة قد جعلت مواقفها متقاربة بمعنى أنه إذا كانت النظم الحاكمة فى الدول التى تعتمد على المساعدات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية تخشى - بحق أو بغير حق - من أن اختلافها مع السياسة الأمريكية - ولا نقول تحديها لها - قد يسبب لتلك النظم مصاعب اقتصادية وعسكرية هى فى غنى عنها، فإنه من الواضح أن النظم الحاكمة فى الدول التى لا تعتمد على مساعدات أمريكية قد فهمت الرسالة، أى أدركت أن هناك رؤية أمريكية جديدة لمستقبل المنطقة، وأن الإدارة الأمريكية مستعدة للوصول فى تنفيذ هذه الرؤية إلى آخر المدى، ولذلك فإن الانحناء أمام العاصفة أو الاختباء منها أصلاً قد يكون سلوكاً رشيداً. وعليه فإن

الاختلاف الحقيقى بين مواقف الفئات الثلاث تمثل فى أن الدول أعضاء الفئة الأولى ـ ذات العلاقة الأمنية الواضحة مع الولايات المتحدة الأمريكية ـ قد قدمت لها تسهيلات ـ وإن كانت بدرجات متفاوتة ـ فى عدوانها على العراق، بينما تكاد الدول أعضاء الفئتين الثانية والثالثة أن تكون قد تساوت فى صمتها أو مواقفها الملتبسة الهادئة تجاه العدوان على العراق وتداعياته.

وأخيراً يمكن القول بالنسبة للعوامل المنبثقة من النظام العربى أن هذا النظام لم يكن فى أحسن حالاته عندما نشبت الأزمة بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، ولم يكن هذا وضعاً جديداً على أية حال، فمنذ الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠ لا يمكن القول بأن النظام العربى قد استرد عافيته تماماً، وذلك دون أن ننكر أن ثمة محاولات دءوبة لرأب الصدع فى العلاقات العربية ـ العربية كانت قد جرت فى العقد التالى على العدوان وبدا أنها تقترب من غايتها مع السنوات الأولى للقرن الواحد والعشرين على نحو ما رأينا.

غير أن هذه التطورات وغيرها لم تكن تعنى بحال أن النظام العربى قد استرد عافيته بمعنى القدرة على التحرك الجماعى المؤثر على أرض الواقع وليس فى عالم الألفاظ، خاصة وقد بقيت العوامل البنيوية فى هذا النظام على حالها من حيث غياب القيادة داخله والهشاشة الملحوظة لوحداته فى علاقاتها بمحيطها الإقليمى والنظام العالمى، وزاد من هذا الأمر أن قرارات قمة بيروت قد تزامنت مع بدايات الأزمة الأمريكية ـ العراقية، الأمر الذى ساعد دون شك على قطع الطريق على أية تطورات إيجابية كان من الممكن أن ترجى من تلك القرارات، ويعنى ما سبق أن النظم العربية التى كان من الممكن أن تفكر فى تبنى سياسات معارضة للسياسة الأمريكية تجاه المنطقة لم تكن لتجد فى النظام العربى سياقاً مسانداً لهذه السياسات، لذلك فإن حساباتها بنيت بالضرورة على أسس قطرية، الأمر الذى لاشك أنه لعب دوراً حاسماً فى إجهاض أى تفكير للتمرد على السياسة الأمريكية.

فى ضوء ما سبق بدأ الموقف العربى الجماعى الاهتمام بالعدوان على العراق قبل وقوعه بعام وذلك فى قمة بيروت ٢٠٠٢ عندما تضمن البيان الختامى للقمة فى بنده الثانى والعشرين نصاً يشير إلى أن القادة قد تدارسوا «التهديد بالعدوان على بعض الدول العربية وبصورة خاصة العراق، وأكدوا رفضهم المطلق ضرب العراق أو تهديد أمن وسلامة أية دولة عربية باعتباره تهديداً للأمن القومى لجميع الدول العربية»، وعندما اجتمع مجلس الجامعة العربية على المستوى الوزارى فى دورة غير عادية فى ١٥ و١٦ فبراير ٢٠٠٣ قبل قمة شرم الشيخ التى عقدت فى الأول من الشهر التالى أضاف إلى هذا الموقف التأكيد على ضرورة امتناع الدول العربية عن «تقديم أى نوع من المساعدة والتسهيلات لأى عمل عسكرى يؤدى إلى تهديد أمن وسلامة العراق ووحدة أراضيه»، وكان ذلك طبيعياً بالنظر إلى أن جميع المؤشرات كانت تشير إلى قرب وقوع العدوان على العراق.

مستقبل النظام العربى

الخروج الفاعل للنظام العربى من أزماته ارتبط بشرطين أحدهما داخلى (عربى) خارجى (عالمى) أما الشرط الداخلى فهو وجود قيادة واضحة للنظام تمثلت خلال فترتى الخروج من تداعيات هزيمتى ١٩٤٨ و١٩٦٧ فى القيادة المصرية

وعندما اجتمعت القمة العربية العادية فى شرم الشيخ فى الأول من مارس ٢٠٠٣ تبلور موقفها على النحو التالى:

ـ رفض الحل العسكرى للأزمة العراقية باعتبار أن القرار ١٤٤١ الصادر عن مجلس الأمن لا يوفر غطاءً شرعياً لأى عمل عسكرى ضد العراق، وأن مثل هذا العمل سيؤدى إلى مخاطر جمة وتداعيات سلبية تشهد عليها المواقف العالمية المعارضة لاستخدام القوة ضد العراق، لذلك دعت القمة «جميع الدول لمساندة الجهود العربية الهادفة إلى تجنب الحرب»، مع طمأنتها بأن ذلك يتحقق «من خلال استكمال تنفيذ العراق لقرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ لعام ٢٠٠٢»، مع العلم بأن قرارات القمة قد رحبت بموقف حكومة العراق من عملية التفتيش، وأشارت إلى التقدم الذى حدث فى هذا الصدد.

ـ بناء على ما سبق فقد كان طبيعياً أن تؤكد القمة على الرفض المطلق لضرب العراق أو تهديد أمن وسلامة أى دولة عربية باعتباره تهديداً للأمن القومى العربى، وإن خففت الصيغة المستخدمة فى البيان الصادر عن المجلس الوزارى بالامتناع عن تقديم أى نوع من المساعدة والتسهيلات لأى عمل عسكرى ضد العراق إلى «التأكيد على امتناع الدول العربية عن المشاركة فى أى عمل عسكرى يستهدف أمن وسلامة ووحدة أراضى العراق وأى دولة عربية»، وكان المفهوم، بغض النظر عن الدقة اللفظية ـ أن هذا النص لا يتعارض إذن مع تقديم التسهيلات التى قد يفرضها وجود قواعد عسكرية أمريكية فى عدد من البلدان العربية بموجب اتفاقات قانونية، فى إشارة واضحة إلى عدم التجانس فى الموقف العربى.

ـ أشارت قرارات القمة إلى تشكيل لجنة رئاسية تضم الرئاسة السابقة والحالية والقادمة للقمة والأمين العام للجامعة بالإضافة إلى الدول الراغبة وذلك للاتصال مع الأطراف الدولية المعنية خاصة الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن لعرض الموقف العربى عليها، والتشاور مع الحكومة العراقية لبحث سبل مواجهة التحديات الخطيرة التى يواجهها العراق وما يهدد الدول العربية من مخاطر واحتمالات.

ـ رفضت القمة بطريق غير مباشر الدعاوى الأمريكية الخاصة بإسقاط النظام العراقى، وذلك عندما أشارت إلى أن شئون الوطن العربى وتطوير نظمه «أمر تقرره شعوب المنطقة بما يتفق مع مصالحها الوطنية والقومية بعيداً عن أى تدخل خارجى. وفى هذا الإطار يستنكر القادة ما يتردد من محاولات رامية إلى فرض تغييرات على المنطقة أو التدخل فى شئونها الداخلية وتجاهل مصالحها وقضاياها العادلة».

وعندما اجتمع مجلس الجامعة العربية فى دورته العادية ١١٩ فى القاهرة ما بين ٢٢ و٢٤ مارس ٢٠٠٣ كان العدوان على العراق قد وقع، وقد خلصت مداولات المجلس بشأن هذا العدوان إلى ما يلى:

● إدانة العدوان الأمريكى ـ البريطانى على العراق.

● اعتبار هذا العدوان انتهاكاً لميثاق الأمم المتحدة ولمبادئ القانون الدولى وخروجاً على الشرعية الدولية وتهديداً للأمن والسلم الدوليين وتحدياً للمجتمع الدولى والرأى العام العالمى المطالب بحل المنازعات الدولية بالطرق السلمية والاحتكام إلى قرارات الشرعية الدولية.

● المطالبة بالانسحاب الفورى وغير المشروط للقوات الأمريكية ـ البريطانية الغازية من الأراضى العراقية وتحميلها المسئولية المادية والأخلاقية والقانونية عن هذا العدوان.

● تأكيد الالتزام بضرورة امتناع الدول العربية عن المشاركة فى أى عمل عسكرى يمس سيادة وأمن ووحدة أراضى العراق أو أية دولة عربية أخرى، والتأكيد على ضمان أمن وسلامة ووحدة أراضى الدول العربية كافة.

● تكليف المجموعة العربية فى الأمم المتحدة بطلب عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن لاتخاذ قرار بوقف العدوان وسحب القوات الغازية فوراً خارج الحدود الدولية لجمهورية العراق، والتأكيد على احترام سيادة العراق واستقلاله السياسى وحرمة أراضيه، وامتناع جميع الدول عن التدخل فى شئونه الداخلية.

● تكليف المجموعة العربية فى حالة عدم انعقاد مجلس الأمن أو عدم اتخاذ القرار اللازم لوقف العدوان والانسحاب بدعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة لعقد جلسة طارئة لبحث العدوان على العراق والمطالبة بوقفه الفورى وسحب القوات المعتدية من جميع الأراضى العراقية واحترام وحدة وحرمة أراضيه.

تظهر قراءة هذه القرارات للوهلة الأولى أنها تعبر عن سقف عالٍ للموقف الدبلوماسى العربى، لعله لم يكن ينقصه سوى التحول من مستوى الإدانة والمطالبة بإجراءات معينة والتحرك من أجلها إلى مستوى اتخاذ خطوات إيجابية كما فى استدعاء السفراء أو سحبهم أو التهديد بقطع العلاقات أو حتى قطعها.. إلخ، غير أن إمعان النظر فى القرارات مع ربطها بما هو معروف من سلوك فعلى للدول العربية فى الواقع العملى يفضى إلى الملاحظات التالية:

ـ لم تكن هذه القرارات موضع إجماع فعلى كما قد يبدو من الإجماع «الإجرائى» عليها إذا جاز التعبير، فقد كان من المعروف أن هناك عدداً من الدول العربية يتناقض فى مواقفه مع روح الموقف العربى الجماعى وجوهره بسبب وجود قواعد عسكرية أمريكية على أراضيه بعيداً عن الجدل اللفظى حول

الفارق بين مفهومي «تقديم التسهيلات» و«عدم المشاركة»، ولعل الكويت كانت هي الدولة العربية الوحيدة التي طابقت بين موقفها المعلن وموقفها الفعلي حين تحفظت «بشدة» على القرار السابق لعدم تضمنه الإشارة إلى الاعتداءات العراقية عليها والمتمثلة في الهجمات الصاروخية، وكذلك لمخالفته من وجهة نظرها قرارات مجلس الأمن ذات الصلة كافة وقرارات القمم العربية المتعلقة باحترام استقلال وسيادة وأمن دولة الكويت.

. يلاحظ كذلك أن دولة عربية واحدة لم تجرؤ على أن تكرر منفردة ما تضمنه قرار المجلس الوزاري في دورته الـ١١٩ كتعبير عن موقف جماعي، وهكذا اختفت مفردات العدوان والغزو ومطالبات الانسحاب الفوري لقوات الاحتلال.. إلخ من مفردات قاموس الدبلوماسية العربية على المستوى القطري.

. يلاحظ أيضاً أن الفقرات الإجرائية من القرار لم تجد حظها من التطبيق، وعلى سبيل المثال فقد انعقد مجلس الأمن وانفض دون أن يتوصل إلى شيء بطبيعة الحال كما هو متوقع، غير أن أحداً لم يسمع أن المجموعة العربية قد طالبت بعقد جلسة طارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة وفقاً لنص القرار السابق، والتي كان مؤكداً أنها ستتبنى موقفاً قوياً ضد العدوان.

. يلاحظ رابعاً أن عدداً من الدول العربية بدأ يتعامل مع الاحتلال العسكري الأمريكي للعراق باعتباره وضعاً عادياً، بل ويشير مسئولون في هذه الدول إلى بقاء القوات الأمريكية فيه لاستقراره (مع أن الاستقرار يمكن أن يتحقق بقوات عربية أو دولية). ويستقبل هؤلاء المسئولون مسئولين أمريكيين رفيعي المستوى دون أن يشيروا بحرف إلى شيء من مضمون الموقف العربي الجماعي الذي عبر عنه المجلس الوزاري. وأخيراً يشارك بعض القادة العرب في قمة مع الرئيس الأمريكي، ويتضمن البيان العربي الصادر عنها إشارة إلى أن هؤلاء القادة يعتبرون أن قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ وسيلة مفيدة لتحقيق الرؤية العربية لمستقبل العراق.

. يلاحظ أخيراً أن عدداً من الدول العربية التي قادت فيما سبق جبهة التشدد الدبلوماسي العربي ضد السياسة الأمريكية قد بدأ يُظهر مرونة واضحة في التكيف مع مستجدات المنطقة عقب الاحتلال العسكري الأمريكي للعراق، والاستجابة لمطالب السياسة الأمريكية في هذا الصدد، وليس الغرض من هذه الملاحظة توجيه الانتقاد لمسلك هذه الدول وإنما الإشارة إلى أن التراجع في المواقف العربية مستمر على نحو ينذر بمخاطر شديدة.

يظهر تحليل المواقف العربية على النحو السابق إذن أنها تعبر عن فجوة هائلة بين القول والفعل، وبين الموقف الجماعي والمواقف القطرية وأنها تسير حثيثاً باتجاه قبول الوضع الراهن الذي فرضه الاحتلال العسكري الأمريكي للعراق، خاصة أن التحركات المتواضعة التي تقوم بها في هذا الخصوص لا يمكن أن تؤثر على هذا الوضع، فكيف يمكن التفكير في سياق التحليل السابق في مستقبل النظام العربي؟

ثالثاً: مستقبل النظام العربي:

لعله من المناسب في هذه الظروف أن يطرح سؤال المستقبل بشكل مبسط في محاولة الوصول إلى أكثر الإجابات وضوحاً: فكون أو لا نكون؟ فإذا ترجم هذا السؤال إلى لغة الواقع يمكن أن يتحول إلى سؤال عن كنه المستقبل المنتظر: عربي أم أمريكي؟

لاشك أن الإدارة الأمريكية لها رؤيتها لمستقبل المنطقة، وهي رؤية ترفض ابتداء الإطار العربي لهذا المستقبل، وتستبدل به إطاراً شرق أوسطي، وليس هذا بجديد على السياسة الأمريكية التي لم تر دوماً لمستقبل المنطقة خيراً من الإطار الشرق أوسطي منذ صعود دورها العالمي في أعقاب الحرب العالمية الثانية. تشهد على ذلك مشروعات قيادة الشرق الأوسط في ١٩٥١، ومشروع جونستون للمياه في ١٩٥٣، وحلف بغداد في ١٩٥٥، ومشروع إيزنهاور في ١٩٥٧ وصولاً إلى شرق أوسطية ما بعد أوسلو ١٩٩٣.

ولكي تسوغ السياسة الأمريكية هذا الطرح فهي تحيطه برؤية براقة عن مستقبل ديمقراطي مزدهر اقتصادياً للمنطقة، والواقع أنه ما من منطق يستحق المواجهة السياسية والفكرية في الظروف الراهنة أكثر من هذا المنطق. فالأمة العربية ليست مدعوة للقبول بخيار ديمقراطي تنموي أمريكي بأي حال من الأحوال. وبالنسبة للديمقراطية لاشك أن السجل الأمريكي بخصوصها شديد الالتباس. صحيح أنه يمكن أن ينسب لإدارات أمريكية مختلفة الفضل في بلورة تجارب ديمقراطية ليبرالية في أعقاب الحرب العالمية الثانية في كل من اليابان وألمانيا الغربية وإيطاليا، ومساعدة دول أوروبا الشرقية على التحول إلى نماذج ليبرالية للحكم في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي، غير أن السجل الأمريكي المعادي للديمقراطية ممتلئ بالمقابل بأدوار حاسمة في الإطاحة بنظم ديمقراطية واستبدال نظم استبدادية أو فاشية بها، كما في حالة مصدق في إيران في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، وحالة الإطاحة بالرئيس المنتخب في شيلي سلفادور الليندي في ١٩٧٣. ناهيك عن التحالف، حتى الآن، مع نظم غير ديمقراطية، بما يؤكد أن الديمقراطية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية

إن العرب قد توحدوا عادة. على الرغم من خلافاتهم في وجه التهديدات الخارجية. هكذا فعلوا في ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ في مواجهة إسرائيل ومن تحالف معها، لكنهم في هذه المرة أخفقوا في التوحد إزاء التهديدات الأمريكية للعراق فالعدوان عليه

سلاح وليست هدفاً في ذاته، وإذا كان هذا هو السجل التاريخي للديمقراطية الأمريكية فإن الطرح الراهن لها لا يقل التباساً، ولا توجد على سبيل القطع أية وثيقة أمريكية تتحدث عن رؤية محددة لمستقبل ديمقراطي للمنطقة، وإنما ثمة حديث عام عن الإصلاح السياسي وعن نظم أكثر انفتاحاً، وكلمة للشعوب في تقرير مستقبلها السياسي وعن شروط «أمريكية» للديمقراطية التي لا يجب أن تأتي بديكتاتور من وجهة النظر الأمريكية بطبيعة الحال، ولابد أن تفضي إلى حكومة صديقة للولايات المتحدة الأمريكية، أي محققة لمصالحها، وذلك كله دون أي التزام زمني محدد. ناهيك عن السؤال الأساسي عن إمكانية الحديث عن تطور ديمقراطي أصلاً في ظل الاحتلال العسكري والهيمنة السياسية. أما الازدهار الاقتصادي، فإن الحديث عنه يعد سخفاً بحد ذاته في ظل ما هو مؤكد من أطماع أمريكية في نفط العراق والأمة بأسرها.

يبقى الحديث عن «الحل الأمريكي» للصراع العربي. الإسرائيلي أو بالأحرى للصراع الفلسطيني. الإسرائيلي، ولا يوجد في جعبة الإدارة الأمريكية الآن سوى تلك الرؤية الهزلية المسماة بخارطة الطريق، والتي لا تستحق مجرد مناقشتها طالما أنها مبنية على خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش في يونيو ٢٠٠٢ والذي أعاد فيه تكييف الصراع الفلسطيني. الإسرائيلي باعتباره صراعاً ضد الإرهاب (أي المقاومة)، ومن ثم فإن نقطة البداية يجب أن تكون هي القضاء على هذه المقاومة أولاً في انتظار الفتات غير المحدد الذي وعد به الخطاب وبنيت عليه خطة الطريق، وللأسف فإن أطرافاً فلسطينية رسمية قد وقعت في شرك تنفيذ التصور بأن عقدة الصراع تكمن في الجانب الفلسطيني وليس الإسرائيلي، وبالتالي فإن إيجاد منصب رئيس وزراء ذي صلاحيات حقيقية كفيل بتمهيد الطريق لتحقيق التسوية وليس المضي في طريق المقاومة.

ولاشك أن الولايات المتحدة الأمريكية أقدر من أي وقت مضى على أن تضع رؤيتها لمستقبل المنطقة موضع التطبيق بعد احتلالها العسكري للعراق، إذ يعرف دارسو النظم الإقليمية التي يفترض أن لها هامشاً أو مساحة ما من الاستقلال في الحركة عن قيادة النظام العالمي أن واحداً من شروط الحديث عن هذه النظم ألا يكون بين أعضائها دولة عظمى، والسبب في ذلك بديهي وهو أن عضوية دولة عظمى في نظام إقليمي يعني أنه صار جزءاً لا يتجزأ من التفاعلات العالمية التي تدخل فيها هذه الدولة، مبتعداً بذلك عن القدرة عن أن يكون له نموذج تفاعلاته المستقلة ولو نسبياً. وعندما أتمت الولايات المتحدة الأمريكية احتلال العراق عسكرياً أصبحت من الناحية الفعلية موجودة داخل النظام العربي وليست قوة تأثير خارجية عليه، ولقد أدلى وزير خارجيتها كولن باول في حينه بتصريح شديد الإيحاء كان مضمونه أن ثمة وضعاً جديداً قد نشأ في المنطقة وأن الدول العربية يتعين عليها أن تكيف نفسها معه، وهو ما رأيناه بالفعل لاحقاً في المواقف الوديعة المعلنة من قبل هذه الدول تجاه قضية احتلال العراق وتداعياتها، ثم في الموقف السوري من المطالب الأمريكية بشأن إغلاق الحدود مع العراق ووقف نشاط المنظمات الفلسطينية في دمشق وكذلك التصويت بالموافقة على قرار نهب

الشروة العراقية الصادر عن مجلس الأمن، وهانحن نرى أن الولايات المتحدة الأمريكية صارت طرفاً أصيلاً في تفاعلات النظام بانعقاد قمة شرم الشيخ العربية الأمريكية في يونيو ٢٠٠٣.

غير أن عدداً من الملاحظات يبقى واجباً على الرغم من ذلك، ولعل أهم هذه الملاحظات اثنتان: أولاهما أن جميع المحاولات الأمريكية الغربية الإسرائيلية لفرض مستقبل شرق أوسطي على المنطقة قد باءت بالفشل حتى الآن على الرغم من الضعف البين للنظام العربي وهشاشته في كثير من الأحيان وصولاً إلى الطبعة الأخيرة للمشروع الشرق أوسطي في أعقاب اتفاقية أوسلو ١٩٩٣. أما الملاحظة الثانية فقد يراها البعض ملاحظة قيمية وليست تجريبية غير أنها تتسق مع دروس الخبرة الماضية للاحتلال الأجنبي. فلم يحدث أن مشروعاً واحداً انطوى على مثل هذا الاحتلال لم يفض إلى تناقض بين قوة الاحتلال وبين الشعب في الأراضي المحتلة، وقد ولد هذا التناقض عادة مقاومة للاحتلال تنوعت أساليبها، ولا يوجد لدينا مثال واحد حتى الآن على أن تلك المقاومة قد أخفقت في مسعاها للحصول على الاستقلال. من هنا فإن المشروع الأمريكي لمستقبل المنطقة على الرغم من كل ما يحاوله أنصاره من الترويج له سائر إلى طريق فشل محتوم لأنه مشروع للهيمنة يستخدم شعارات براقة عن الديمقراطية والتنمية وهما منه براء بحكم الخبرة الواقعية سواء للاحتلال بصفة عامة أو لما نعرفه عن دوافع الاحتلال الأمريكي للعراق بصفة خاصة. أو لما رأيناه على أرض الواقع من ممارسات أمريكية منذ بدأ هذا الاحتلال. صحيح أن تكلفة إنهاء الاحتلال تكون عادة عالية بالنسبة للقوى التي تقاومه، وصحيح بالدرجة نفسها أننا لا نستطيع أن نحدد نقطة زمنية قاطعة ينتهي عندها الاحتلال، ولكن الأمر المؤكد أنه سينتهي بالإخفاق، والمرجح أن ذلك سيتم في مدى زمني يتراوح من بضع سنين كحد أدنى إلى عقد كحد أقصى أخذاً في الاعتبار دروس الخبرة المعاصرة لحركات التحرر الوطني.

وإذا كان الإخفاق هو المصير المحتوم للمستقبل الأمريكي للوطن العربي، فإن المستقبل العربي لهذا الوطن يواجه عقبات موضوعية هائلة. سبق أن رأينا أن نموذج تجاوز النظام العربي لأزماته السابقة يشير إلى أن هذا التجاوز كان يتم من خلال آليات تغيير أو إصلاح، وأنه من ناحية التسلسل الزمني فإن آليات التغيير قد توارت إلى الخلف وحلت محلها آليات الإصلاح التي أخذت

مستقبل النظام العربي

أحداث الحادي عشر من سبتمبر أعطت الإدارة الأمريكية فرصة ذهبية للمضي قدماً في تنفيذ خططها العالمية إن لم يكن بإكراه الآخرين دون عنف فليكن باللجوء إلى أقصى درجات العنف كما حدث بالفعل في حالتي أفغانستان والعراق

فعاليتها في إخراج النظام من أزماته تقل بدورها تدريجياً لعوامل داخلية (عربية) وخارجية (عالمية) على النحو الذي رأيناه في آخر أزمة واجهها النظام قبل الاحتلال الأمريكي العسكري للعراق (تداعيات الغزو العراقي للكويت) بحيث بدت قدرة النظام على إصلاح أوضاعه محدودة، وهكذا سار بخطى وئيدة نحو إنجاز مصالحة عربية . عربية عامة وعراقية . كويتية خاصة، وعندما بدا أنه يقترب من إنجاز هذه المصالحة زادت العوامل العالمية (الأمريكية) من وطأتها فأحبطت الوصول إلى خط النهاية بالنسبة لتلك المصالحة.

والمعنى الخطير لما سبق أن النظام العربي يبدو غارقاً في معضلة حقيقية كونه غير قادر على تجاوز الأزمة التي تهدد بقاءه فعلاً سواء بآليات تغيير أو بآليات إصلاحية، فقوى التغيير قد تكون موجودة ولكنها ليست بالثقل والتماسك ومن ثم الفاعلية التي تمكنها من إنجاز التغيير المطلوب، وآليات الإصلاح تتطلب وجود حكومات عربية مدركة لطبيعة الخطر الذي يحيط بها قبل غيرها، فإن هي أدركت ذلك على نحو سليم يتعين أن تكون قادرة على التحرك الفاعل، وهذا يمثل بحد ذاته معضلة بالنظر إلى ما رأيناه من قيود أمنية واقتصادية وسياسية أصبحت تحيط بحركة النظم الحاكمة العربية دون استثناء.

ليس معنى ما سبق أن النظام العربي يسير في طريق محتوم إلى نهايته. على العكس فإن الفرصة مازالت قائمة وقوية في أن يتجاوز أزمته الراهنة، بل وإن يتجاوزها منتقلاً إلى وضع أفضل مما كان عليه قبلها، وهي فرصة لها . موضوعياً . أكثر من سبب، وأول هذه الأسباب خبرة النظام الماضية التي تشير إلى تمكنه من تجاوز أزمات سابقة من ناحية، وإلى فشل كافة المشروعات البديلة من ناحية أخرى، ومع ذلك فإن هذا السبب قد يُشك في قيمته بالنظر إلى اختلاف الأزمة الراهنة نوعياً عما سبقها على نحو ما رأيناه وثاني الأسباب أن دروس الخبرة الأمريكية في تغيير النظم من الداخل و/ أو التدخل في شئونها تشير بصفة عامة إلى عديد من حالات الفشل الذريع الذي قد يعود إلى الطريقة السطحية التي يفهم بها الأمريكيون أحوال العالم من حولهم. هكذا كان الإخفاق من مصيرهم في كوبا وفيتنام ولبنان والصومال وهكذا يبدو أن مصيرهم سيكون على ضوء تردي الأوضاع في أفغانستان والبدايات القوية للمقاومة العراقية وهو ما ينقلنا إلى السبب الثالث والأهم وهو المقاومة العراقية المتوقعة للاحتلال الأمريكي والتي لابد أن تسير وفقاً لقانون التحرر الوطني، أي أن تأخذ في التصاعد بغض النظر عن الخلل في ميزان القوى بينها وبين قوى الاحتلال إلى أن تصل إلى نقطة تزيد فيها تكلفة الاحتلال مادياً وبشرياً بالنسبة للولايات المتحدة إلى الحد الذي لا تعود فيه قادرة على تحملها سياسياً. وإذا أضفنا إلى هذه المقاومة ما تمارسه فصائل التحرر الوطني الفلسطيني من قدرة معجزة على مواصلة النضال ضد الكيان الصهيوني يتولد الأمل في روح جديدة للمقاومة في النظام العربي. ورابع هذه الأسباب أن الأزمة وما قبلها وإن كشفت عن ضعف النظام العربي غير الرسمي ممثلاً في حركة جماهيرية وقوى المجتمع المدني فيه، فإنها أكدت في الوقت نفسه أن هذه الجماهير والقوى على قلب رجل واحد في التمسك بثوابت النظام العربي وأهمها قيمة الاستقلال الوطني والقومي، ويعني هذا أن الجماهير وقوى المجتمع المدني في النظام العربي سوف تمثل في أقل الأحوال بيئة مساندة لأي محاولة للتغيير إلى الأفضل، وربما ضاغطة على النظم الموجودة باتجاه تحسين أدائها، وفي أفضل الأحوال قوة دافعة لتغيير حقيقي خاصة مع التطور المتوقع لمقاومة مشروعات الهيمنة على المنطقة كما تتجلى في الساحتين الفلسطينية والعراقية وربما غيرهما.

ويعني ما سبق أن خروج النظام العربي من أزمته الراهنة وتجاوزها إلى وضع أفضل مما كان عليه قبل حدوثها مازال بديلاً ممكناً، وإن كان من المرجح أن القوى الفاعلة في إخراجه من أزمته وتجاوزها إلى الأفضل لن تكون ذات طابع رسمي، دون أن يعني هذا استحالة مشاركة بعض القوى الرسمية في هذه العملية إذا تطورت الأمور على أرض الواقع على نحو يخفف بعضاً من القيود الواردة عليها كإنجازات باهرة لحركة المقاومة في فلسطين والعراق، أو صحوة جديدة للرأي العام العربي، أو تغيرات سياسية داخلية محسوسة في قوى العدوان على الوطن العربي وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية، لكن العبء الرئيسي في إنقاذ النظام سوف يكون دون شك ملقى على عاتق مثلث المقاومة . الفكر . الجماهير.

فقوى المقاومة سوف تكون وظيفتها رفع تكلفة مشروعات الهيمنة بالنسبة لأصحابها. والمفكرون والمثقفون المخلصون لأهداف الأمة سوف يتصدون لعمليات التضليل والهدم التي تتراوح من الحرب النفسية لكسر إرادة الأمة إلى التبشير بمشروعات الهيمنة إلى التعمية الإعلامية على واقع مقاومة هذه المشروعات، وسوف يبشر هؤلاء المخلصون بالمقابل بإمكانية تجاوز الأزمة ويحددون المتطلبات الموضوعية لهذا التجاوز، والجماهير وقوى مجتمعها المدني سوف توفر من ناحية البيئة المواتية للمقاومة فكراً وعملاً وتساهم من ناحية أخرى في عملية المقاومة بما تمارسه من ضغوط على نظمها الحاكمة كي ترتفع بسقف أدائها إلى أقصى ما هو ممكن.

لم يشر هذا التحليل بحرف واحد إلى تعدد القوى والفصائل المناوئة لمشروعات الهيمنة، أو إلى أكثرها قدرة على إنجاز الخلاص من قيود هذه المشروعات، ذلك لأن أياً منها بمفرده غير قادر على هذا العمل وإنما يتعين كشرط لا غنى عنه للانتصار في معركة البقاء التي تواجه النظام العربي أن يتكاتف الجميع في جبهة واحدة من أجل مستقبل آمن وكريم ليس أمامنا إلا أن نصنعه بأنفسنا وأن نحول دون أن يصنعه لنا الآخرون، ناهيك عن أن يكونوا على شاكلة المستعمرين الصهاينة أو الغزاة الأمريكيين. ■

«إعادة إعمار» أم إعادة فك وتركيب؟

محمود عبد الفضيل

[١]

■ يدور الآن صراع قوى على توزيع الغنائم فى «عراق ما بعد صدام». وهذا الصراع تدور رحاه على مستويين: المستوى الأول: يدور بين الشركات العالمية (وخاصة الأمريكية) للحصول على أكبر نصيب من غنيمة عقود «إعادة إعمار العراق». والمستوى الثانى: يدور حول استغلال وإدارة الموارد النفطية العراقية. ويلاحظ بهذا الصدد أن المندوب الأمريكى فى مجلس الأمن قد اعترض على تعبير «حق الشعب العراقى فى موارده النفطية»، وتم استبدال ذلك بعبارة غامضة تتحدث عن «حق الشعب العراقى فى الاستفادة من استثمار تلك الموارد النفطية». وشتان بين ما يعنيه كلا التعبيرين.

وتهدف الإستراتيجية الأمريكية فيما يخص مستقبل استغلال وإدارة قطاع النفط فى العراق إلى تأمين إمدادات نفط رخيص للبلدان الغربية المستهلكة للنفط. وفى الوقت ذاته تسعى هذه الإستراتيجية فى الأجل المتوسط لكسر قوة منظمة «أوبك» للبلدان المصدرة للنفط، التى ترسم السياسات التسعيرية وتحدد السقوف الإنتاجية لصادرات الخام لبلدان الأوبك. وبهذا الصدد، كتب «لوتز كليفمان» الذى يعمل مراسلاً فى نيويورك لجريدة «دير شبيجل» الألمانية مقالاً لصحيفة «ذى إندبندنت» البريطانية تحت عنوان: «اللعبة الكبرى الجديدة للسيطرة على النفط»، يشير فيه إلى أن ثمة «صراعاً إستراتيجياً مشهوداً يدور الآن لتقرير من سوف يسيطر على إحتياطى الطاقة فى العالم». ومن المعروف أن مستوى الطاقة الإنتاجية الحالية فى العراق يدور حول ٢-٣ ملايين برميل من النفط الخام يومياً، ولكن بضخ استثمارات قدرها ٢٠ بليون دولار أمريكى، يمكن زيادة الإنتاج فى غضون بضع سنوات إلى سبعة ملايين برميل يومياً. وسوف يشكل هذا الإنتاج نحو عُشر الاستهلاك العالمى، الأمر الذى سوف يؤدى إلى انخفاض فى مستوى السعر، وهو ما تحتاج إليه الاقتصادات الغربية المتباطئة.

ومما لاشك فيه أن بترول العراق يشكل الكعكة الكبرى التى يخطط الأمريكيون لالتهامها دون شريك. فمنذ الأيام الأولى لعملية الغزو الأمريكى- البريطانى للعراق كان أحد الأهداف العسكرية الأساسية هو تأمين حقول البترول فى الجنوب والشمال والحيلولة دون إحراقها، كما كانت هناك توقعات كثيرة تشير إلى ذلك قبل بداية الحرب. ويرى فريق من خبراء البترول أنه قد ينسحب العراق فى المستقبل من منظمة أوبك للدول المصدرة للبترول، التى يعد العراق فيها المنافس الأول للسعودية من حيث إمكانيات الإنتاج وحجم الاحتياطى. وبذلك ينضم العراق لفريق تصدير البترول «من خارج أوبك»، الذى يضم روسيا على رأسه. وفى هذه الحالة، ستحدث حالة من الإغراق النفطى فى السوق العالمية يمكن أن يدفع بأسعار البترول إلى مستوى شديد الانخفاض قد يصل إلى ١٥ دولاراً للبرميل (بالأسعار الجارية). الأمر الذى سوف يؤدى بلا شك إلى إفقار البلدان النفطية الخليجية.

ومن ناحية أخرى، تقف الشركات البترولية الكبرى مثل: «إكسون موبيل» و«شل» و«بريتش بتروليوم» و«شيفرون تكسكو» فى حالة انتظار وترقب إلى أن تحدث عملية خصخصة متوقعة للبترول العراقى لتدخل كشريك فى عمليات الإنتاج. إذ يقدر الاحتياطى المؤكد من البترول العراقى بنحو ١١٢ مليار برميل، وهو ما يضعه فى المرتبة الثانية بعد السعودية على المستوى العالمى إضافة إلى ٢٢٠ مليار برميل من الاحتياطى غير المؤكد.

ويشير «يحيى سادوفسكى» الخبير فى شئون الشرق الأوسط، إلى أن الذين يملكون طموحات واضحة فى مجال النفط هم الأكثر حماسة للحرب داخل الإدارة الأمريكية، أى عصبة المحافظين الجدد المتحلقة حول بول وولفويتز، مساعد وزير الخارجية، والسكرتير المساعد فى وزارة الدفاع دوجلاس فايث. إنهم أصحاب المشروع الذى يسعى إلى تحقيق الزيادة السريعة للقدرة الإنتاجية للعراق من أجل إغراق السوق العالمية فى أسرع وقت ممكن. وهم يعرفون أن ذلك سوف يؤدى إلى انهيار أسعار النفط الذى سيصل إلى ما دون الـ١٥ دولارا للبرميل. بعدما كان يدور فى منتصف مارس عام ٢٠٠٣ حول حاجز الثلاثين دولارا. وهم يراهنون على هذا التراجع فى أسعار النفط من أجل تحفيز النمو فى الولايات المتحدة وتدمير منظمة الدول المصدرة للنفط، اويك، وتخريب اقتصاد الدول «المارقة» (إيران، سوريا، ليبيا) وبالتالى إيجاد شروط جديدة لتغيير الأنظمة (يحيى سادوفسكى، حقائق وأكاذيب حول الرهان النفطى، مايو ٢٠٠٣).

ومن ناحية أخرى، يرى فريق أخر من المحللين أن الرئيس الأمريكى وصحبه قد حافظوا على شبكة من العلاقات الشخصية ليس مع الشركات النفطية الكبرى «المتعددة الجنسية»، بل مع عشرات الشركات الصغيرة. والعديد منها متمركز فى تكساس وتقوم باستخراج النفط من باطن الأرض الأمريكية أو من الأعماق البحرية. لكن هذه الشركات بحاجة لأسعار نفط مرتفعة كى تستمر فى نشاطها. ففى السعودية لا تزيد كلفة إنتاج البرميل من النفط عن الدولار ونصف الدولار، بينما تكلفة استخراج البرميل الواحد فى خليج المكسيك قد تزيد على الثلاثة عشر دولارا. وبالتالى فإن هذه الشركات الصغيرة تخشى قبل كل شىء انهيار أسعار النفط. كما سارعت إلى التحذير من ذلك جماعات الضغط الوطنية داخل الولايات المتحدة، بتأكيدها على أن الولايات المتحدة تكون عندئذ مرتهنة اكثر فأكثر للواردات البترولية الأجنبية «غير الموثوق بها».

ووفقاً لهذه الرؤية، فإن البترول العراقى وارد بلا شك فى حسابات واشنطن العراقية ولكن كمورد إستراتيجى أكثر منه مورداً اقتصادياً. فالحرب على صدام كانت تهدف فى الأساس إلى ترسيخ الهيمنة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط، وفتح الطريق أمام خصخصة شركة البترول الوطنية العراقية.

[٢]

من المعروف للجميع أن الإدارة الأمريكية قد بدأت للتخطيط لعملية إعادة إعمار العراق منذ فترة طويلة، وأنها عهدت إلى اثنتين من الوكالات الحكومية الأمريكية هما: الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) وسلاح المهندسين التابع للجيش الأمريكى (USACE) لتنسيق تلك العملية بعد إسقاط نظام «صدام حسين».

وكانت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية قد اختارت شركة «بكتل»، ومقرها سان فرانسيسكو، كمتعاقد أساسى لإعادة بناء البنية التحتية العراقية فى عقد تبلغ قيمته الأولية ٦٨٠ مليون دولار. ويتم تنفيذ هذا العقد على مدى ١٨ شهراً، ويتعلق بإعادة بناء المطارات والمرافئ والطرقات والسكك الحديدية ومنشآت المياه والصرف الصحى. وكما هو معروف للجميع أن وزير



«المزيد من الدمار» كان يعنى المزيد من العقود وصفقات «إعادة الإعمار» والأرباح الوفيرة للشركات الأمريكية العملاقة. ولعل هذا هو المغزى الحقيقى لما يطلق عليه «التحرير»!

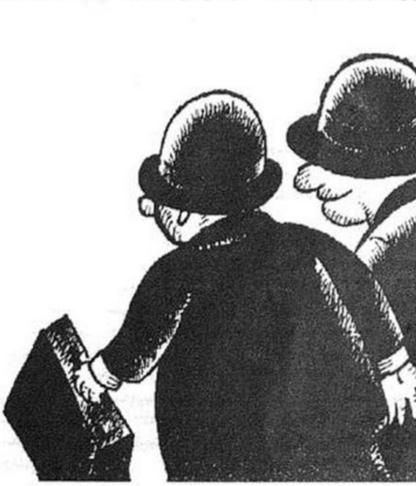
الخارجية الأمريكى الأسبق «جورج شولتز» هو عضو فى مجلس إدارة شركة «بكتل»، كما أن رئيس مجلس إدارتها هو عضو حالى فى «مجلس التصدير»، وهو هيئة استشارية تقدم النصح للرئيس الأمريكى فى مجال التجارة الدولية.

وقد بدأت شركة «بكتل» الأمريكية العملاقة مقابلات فى واشنطن لآلاف الشركات فى الواحد والعشرين من شهر مايو الماضى بهدف التعاقد معها لتنفيذ عقود فى مشاريع جزئية (من الباطن) فى العراق، باعتبارها كبير المقاولين الأمريكيين المعتمدين فى مجال «إعادة إعمار العراق». ولقد كان مشهداً مثيراً حقاً حيث اصطف آلاف من ممثلى الشركات فى إحدى الساحات فى واشنطن أمام المبنى الذى تجرى فيه المحادثات، مما اضطر «بكتل» إلى إعادة النظر فى الجدول الزمنى لهذه المداولات وتقرير عقد جلستين مكثفتين، مدة الواحدة منها ساعة ونصف الساعة، عوضاً عن جلسة واحدة مدتها ثلاث ساعات.

ولقد حذر الملياردير الأمريكى المجرى الأصل «جورج سوروس» فى مؤتمر صحفى عقده فى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك من أن القرار الذى مررته الولايات المتحدة فى مجلس الأمن «لعراق ما بعد الحرب» سوف يؤدى إلى وصاية أمريكية دائمة معترف بها من الأمم المتحدة وممولة من الثروة النفطية العراقية. وأضاف سوروس: «أن هناك شعوراً ينتشر فى العالم أن هذه الحرب تم خوضها من أجل النفط، وأن القوات الأمريكية فى العراق لإفادة رجال شركتى هاليبورتون وبكتل العملاقتين، اللتين لهما صلات وثيقة برجال الإدارة الأمريكية».

فكما هو معروف، فإن شركة بكتل لها صلات وثيقة وعميقة برجال الحزب الجمهورى، وبمؤسسة الأمن الوطنى الأمريكى، عن طريق مشروعات ضخمة شاركت فيها، وكذلك عن طريق شخصيات بارزة عملت فى «بكتل»، قادة إداريين واستشاريين، أبرزهم وزير الدفاع السابق «كاسبر واينبرجر». كما تشير التقارير إلى أن بعض أركان الإدارة الأمريكية الحالية ساهموا فى الترويج لشركة «بكتل»، وشارك عدد منهم خلال الأعوام الماضية فى صياغة الخطط للحرب على العراق وأبرزهم: «دونالد رامسفيلد»، و«جورج شولتز»، و«ريتشارد بيرل»، و«ريتشارد أرميتاج»، و«دوجلاس فايث»، و«ريتشارد آلن»، و«روجر روبنسون» الذى كان مسئولاً فى وكالة التنمية الدولية، وشارك عام ١٩٨٨ فى تأسيس مركز الدراسات الإستراتيجية الذى قدم أكثر من بحث يتناول موضوع الحرب ضد العراق.

وقد أكد مصدر فى مجلس الغرف التجارية الصناعية، الذى يتخذ من الرياض مقراً له، أن عدداً كبيراً من المقاولين الكبار كثفوا اتصالاتهم بمقاولى الباطن من جهة، وبالغرف التجارية فى الرياض والدمام، من جهة أخرى، بحثاً عن تنسيق الجهود فى محاولة الحصول على فرص عقود من الباطن لإعادة إعمار العراق.



ولعل الكثيرين يتساءلون الآن: لماذا كل هذا الدمار الذى سببه القصف الوحشى فى العراق، ولماذا تركت المبانى الحكومية والوزارات الرئيسية تُحرق أمام سمع وبصر قوات الاحتلال الأمريكى. ولكن الإجابة بسيطة للغاية: إذ أن «المزيد من الدمار» كان يعنى المزيد من العقود وصفقات «إعادة الإعمار»، والأرباح الوفيرة للشركات الأمريكية العملاقة. ولعل هذا هو المغزى الحقيقى لما يطلق عليه «التحرير»!

ولكن بعيداً عن هذا التزاحم المحموم للحصول على بعض الفتات من خلال «عقود الباطن»، فإن مفهوم إعادة الإعمار الحقيقى لا يدور حول الـ (Hardware) أى المبانى والمعدات.. بل حول الـ (Software) ، أى تصميم إدارة ومستقبل العراق الجديد. وهنا يجب ألا تترك الأمور للمخططات الأمريكية، بل يجب أن تشارك الدوائر العربية (الرسمية والشعبية)، وعلى رأسها الجامعة العربية، بكل قوة، لبلورة رؤية محددة «لعراق ما بعد صدام»، يتم على أساسها إعادة بناء العراق الجديد ومؤسساته. إذ أن غياب تلك الرؤية العربية هو فى حد ذاته كارثة تفوق كارثة الحرب على العراق. ويجب الخروج فوراً من حالة الشلل السائدة حالياً نحو بلورة مزيد من المبادرات الفاعلة، واختراق المخطط الأمريكى لمستقبل العراق الجديد، سعياً وراء تقويضه.

[٣]

إن مشروع «إعادة إعمار العراق» ليس مجرد مشروع مقاولات، بل هو مشروع إعادة بناء سياسى واقتصادى واجتماعى ومؤسسى، بكل ما يحمله ذلك من معان ومضامين. وبهذا الصدد، يمكن إبداء بعض الملاحظات:

أ ـ لا شك أن مشروع إعادة الإعمار فى العراق، إنما يعبر عن توجهات سياسية واجتماعية، فهو عملياً يعيد رسم دور العراق المستقبلى على المستوى الإقليمى والدولى. لذلك، فإن السلطة العراقية القادمة، التى على ما يبدو ستدور فى الفلك الأمريكى، سوف تراعى بالدرجة الأولى المصالح الأمريكية فى المنطقة.

ب ـ نظراً لأن عملية إعادة بناء وتأهيل العراق بعد الحرب تستلزم وضع خطة متكاملة لمختلف المرافق العامة والمنشآت الحكومية والخدمات الأساسية فى مختلف المناطق العراقية، فالمشروع الإعمارى العراقى ستكون له تداعيات فى كافة المجالات، وعلى كافة المستويات السكانية والمناطق، بما فى ذلك إعادة صياغة عناصر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العراق الجديد.

ولعلنا لو تأملنا ملياً فى القرارات التى اتخذتها سلطات الاحتلال الأنجلو-أمريكى فى المجالات التالية:

١ . حل الجيش العراقى.
٢ . محاولة وضع دستور جديد للبلاد (على غرار دستور «اليابان» بعد الحرب العالمية الثانية).
٣ . السعى لإطالة أمد الاحتلال لأطول مدة ممكنة، ومنع قيام حكومة شرعية منتخبة.
٤ . تغيير نظم الإدارة وأسلوب تسيير الاقتصاد.
٥ . التركيز على الصبغة الطائفية والتركيبة الإثنية للعراق.

نجد أن كلها يشير إلى أن عملية «فك» وإعادة تركيب عناصر البنية السياسية والاقتصادية والمؤسسية فى العراق تجرى على قدم وساق.

[٤]

فى هذا التوقيت بالذات، أى بعد غزو العراق، فإنه ليس من قبيل المصادفة أن يتم طرح العديد من المخططات التى تهدف إلى ضرب مفهوم «الأمن القومى العربى» فى أعماقه. إذ أن فك الارتباط السياسى والأمنى بين العراق، من ناحية، وبلدان المشرق العربى، من ناحية أخرى، يفتح الباب على مصراعيه أمام هيمنة وتقوية نفوذ القوى الأجنبية (الأمريكية - البريطانية - الإسرائيلية - التركية) فى المنطقة العربية، وذلك فى ظل الترتيبات الأمنية الراهنة لبلدان الخليج العربى. وهذا يؤدى بدوره إلى ضرب الوحدة العضوية «للجبهة الشرقية» عن طريق

يجب أن تشارك الدوائر العربية بكل قوة، لبلورة رؤية محددة «لعراق ما بعد صدام»، يتم على أساسها إعادة بناء العراق الجديد. إذ أن غياب تلك الرؤية كارثة تفوق كارثة الحرب على العراق

فصم عرى الوحدة والتضامن بين أهم قوتين فاعلتين فى المشرق العربى وهما: سوريا والعراق. ويتضح ذلك من خلال الطوق الجديد المضروب على «سوريا» و«لبنان»،من ناحية، والذى يكرس عزلة مصر، من ناحية أخرى، كما هو موضح فى الشكل (١).

وتقوم الرؤية الاقتصادية- الإستراتيجية الأمريكية- الإسرائيلية، فى مرحلة «ما بعد غزو العراق»، على عدد من المحاور، يتلخص أهمها فى اختراق وتمزيق «المجال الاقتصادى العربى». فرغم طابع التجزئة وهشاشة البنية الإنتاجية والتكاملية للفضاء الاقتصادى العربى، فإن الإستراتيجية الإسرائيلية الهجومية فى مرحلة «ما بعد غزو العراق»، تقوم على اختراق «المجال الاقتصادى العربى» وتقويض الإمكانات المستقبلية للتكامل الاقتصادى العربى.

وكبداية لذلك، قامت قوات الاحتلال الأمريكى بإغلاق خط أنابيب النفط الممتد من مدينة «كركوك» فى شمال الموصل إلى «ميناء بانياس» السورى، ليحل محله خطط إعادة تشغيل خط «الموصل- حيفا»، الذى كان قد توقف منذ قيام «دولة إسرائيل» عام ١٩٤٨، وهكذا فإنه فى مرحلة «ما بعد غزو العراق»، سوف تصبح إسرائيل طرفاً أصيلاً وفاعلاً، وجزءاً أساسياً من النسيج الاقتصادى الجديد للمنطقة، من خلال عدد من المخططات الإستراتيجية، أبرزها:

أ . تقسيم «المجال الاقتصادى العربى» إلى مناطق منعزلة ومفصولة عن بعضها، من خلال اختراقات إسرائيلية، عبر مجموعة من المشروعات العربية- الإسرائيلية المشتركة تلعب فيها إسرائيل دوراً قيادياً وفاعلاً.

ب . تكريس كون «الاقتصاد الفلسطينى» عمقاً مكملاً للاقتصاد الإسرائيلى، وفصم علاقاته الطبيعية مع اقتصادات «بلدان المشرق العربى»، من ناحية، ومصر، من ناحية أخرى، وهما اللذان يشكلان «العمق الطبيعى له».

ج . بناء «مثلث اقتصادى» تكاملى بين إسرائيل والكيان الفلسطينى والأردن، على غرار نموذج بلدان «البنيلوكس»، ليكون هذا «المثلث» بمثابة رأس حربة لمشروع الهيمنة الاقتصادية الإسرائيلية على منطقة المشرق العربى والهلال الخصيب.

د . بناء علاقات اقتصادية ومالية «إسرائيلية-خليجية»، وعلاقات اقتصادية مالية «إسرائيلية- مغاربية»، تخترق شبكة العلاقات الاقتصادية والمالية العربية- العربية: المشرقية - المغاربية، والمشرقية - الخليجية.

ولعل عملية غزو واحتلال العراق هى تكريس لما سبق أن أكد عليه الرئيس الأمريكى السابق «ريتشارد نيكسون» فى كتابه المهم «الإمساك بالفرصة السانحة» (١٩٩٢)[1] من أن المصلحتين الملحتين للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط هما: ضمان إمدادات النفط، وحماية أمن إسرائيل.

ومن ناحية أخرى، يشير برنارد لويس، أحد غلاة المنظرين الصهاينة، إلى أن هدف السياسة الأمريكية فى المنطقة العربية (وفى منطقة الشرق الأوسط عموماً) هو منع ظهور أية قوة إقليمية (بخلاف إسرائيل) تسيطر على مقدرات المنطقة، وبالتالى تفرض نوعاً من السيطرة الاحتكارية على بترول الشرق الأوسط.

والقضية الثانية التى تحرص عليها السياسة الأمريكية - وفقاً لبرنارد لويس - هى منع «التعددية النووية» فى المنطقة، أو على الأقل تأجيل ظهور قوى نووية، بخلاف إسرائيل لأطول فترة زمنية ممكنة. وكان كلٌ من العراق وإيران من البلدان التى تسمى «بلدان العتبة» (Threshold countries)، أى من بين الدول التى يمكنها صنع القنبلة الذرية فى غضون سنوات قليلة. ولهذا السبب تم تصنيف البلدين ضمن «محور الشر» فى عرف الإدارة الأمريكية الراهنة.

والقضية الثالثة التى يؤكد عليها «برنارد لويس» هى أن علاقة التحالف القائمة بين الولايات المتحدة وإسرائيل من الخطأ النظر إليها على أنها مجرد علاقة «تحالف إستراتيجى»، بل هى «علاقة عاطفية أو أيديولوجية» (Ideological or sentimental) فى المقام الأول. إذ ترى الولايات المتحدة فى إسرائيل امتداداً لمؤسساتها وقيمها وأسلوب حياتها فى قلب المنطقة العربية[2].

ولعل تلك هى الثوابت التى تحكم السياسة الأمريكية، التى لا تتغير بتغير أو تعاقب الإدارات الجمهورية أو الديمقراطية، مهما كانت الأوهام التى يتم ترويجها من وقت إلى آخر. كما أن تلك «الثوابت» هى التى تحدد بدورها الخطوط الحمراء التى يجب عدم تجاوزها من جانب أى طرف عربى.

ولكنه فى ظل خريطة التطورات وأنماط الصراعات المستقبلية، التى تتسم بدرجة عالية من «السيولة التاريخية»، هناك سؤال ملح يطرح نفسه: ما هو دور العرب فى ذلك «التاريخ الجديد»، الذى يجرى رسم خطوطه بواسطة مهندسين «غير عرب». ذلك هو السؤال المركزى الذى يجب أن نجيب عنه بكل وضوح وحزم، ودون إبطاء، حتى نتحسس خطانا المستقبلية لمنع بناء نظام «شرق أوسطى» جديد على أنقاض النظام العربى الذى يتهاوى تحت الضربات المتوالية التى توجه له.

إذ أننا نعيش مرحلة التخطيط وإعادة التقسيم ورسم خرائط الشعوب والدول والكيانات، أشبه ما تكون باتفاقية سايكس- بيكو التى تم توقيعها فى التاسع من مارس ١٩١٦، حيث تم بناء هندسة جغرافية سياسية جديدة للمنطقة فى ظل هيمنة أجنبية جديدة، حيث نصّت تلك الاتفاقية على إعطاء الأفضلية لفرنسا وبريطانيا (كل فى منطقة نفوذه) فى المشاريع والقروض، وكذا الانفراد بتزويد «منطقة النفوذ» بالمستشارين والموظفين الأجانب. ومن الواضح أن الولايات المتحدة وإسرائيل سوف تحلان محل اللاعبين الأساسيين فى مرحلة «سايكس-بيكو» (بريطانيا وفرنسا)، مع مراعاة فروق التوقيت وظروف العصر.

ورغم كل ذلك، لا يصل «برنارد لويس» (وكما قلنا هو من غلاة المفكرين الغربيين المناصرين للصهيونية) إلى حد الحديث عن موت حركة القومية العربية، وإنما يلاحظ انحسار واحتجاب موجتها فى الوقت الحاضر، وتحلل العالم العربى كوحدة سياسية متماسكة، ويؤرخ لذلك منذ غزو إسرائيل لبيروت عام ١٩٨٢، ويشير إلى ذلك بقوله أنه: «من التهور القول إن فكرة الوحدة العربية قد اندثرت، لأن كثيراً من المقومات التى أدت إلى ظهورها مازالت موجودة. ولكنها فى الوقت الحالى، وفى المستقبل المنظور فإنها لا تعتبر قوة سياسية يعتد بها».

إن الوضع الراهن أخطر من أن يترك لمناظرات فكرية مجردة، تدور حول نفسها وترضى غرور بعض المثقفين، وقلما تخرج بخطط وبرامج عمل محددة للتحرك المضاد، وحصار المخططات الجديدة- القديمة التى توضع الآن موضع التطبيق بعد احتلال العراق.

لابد إذن من الخروج من حالة الشلل الراهنة، ولابد من التحرك بسرعة على كافة المستويات وعلى أسس علمية وعملية. فهناك قانون يقول: «لكل فعل.. رد فعل، مضاد له فى الاتجاه» و«إن لم يكن مساوياً له فى المقدار». إن مواجهة هذه التحديات الجديدة، بتعقيداتها وتداخلاتها الإقليمية والدولية، هى مهمة شاقة بطبيعتها يعجز عنها جهاز بعينه أو دولة عربية بمفردها. ولذا لابد من تضافر مبادرات ومجهودات فرق عمل، سواء على مستوى الأجهزة الرسمية المهتمة بقضايا الأمن القومى والمصير العربى، أو على مستوى قيادات القوى السياسية والمنظمات المهنية والنقابية (بما فى ذلك منظمات رجال الأعمال). ■



الهوامش:

1- Richard Nixon, Seize the Moment (New York: Simon and Schuster, 1992), chap. 5: "The Muslim World".

2 -Bernard Lewis, Rethinking the Middle East

أنتِ بيروت

■■ بين ألفة الحنين.. وبريق المعاصرة، تظل هناك علامة استفهام، أزلية الوجود.. أبدية الإلحاح. وتظل هناك. بين القطبين. «وجهات نظر».

ماذا بعد الحرب.. غير الدمار. سواء جاء رُخ الخراب الأسطورى عبر البحار.. والمحيط، إلى الفرات. أو أفرخت الأفاعى بيضها المطمور فى تربة قلبتها وعبثت بها كل الأصابع، والحوافر.. بل والحناجر.

هكذا بيروت (العروس) كانت لعقد كامل من الزمان. لم تكن فيه تعرف على وجه الدقة، من يحارب من؟ أو بالأحرى من يحارب لمن؟!

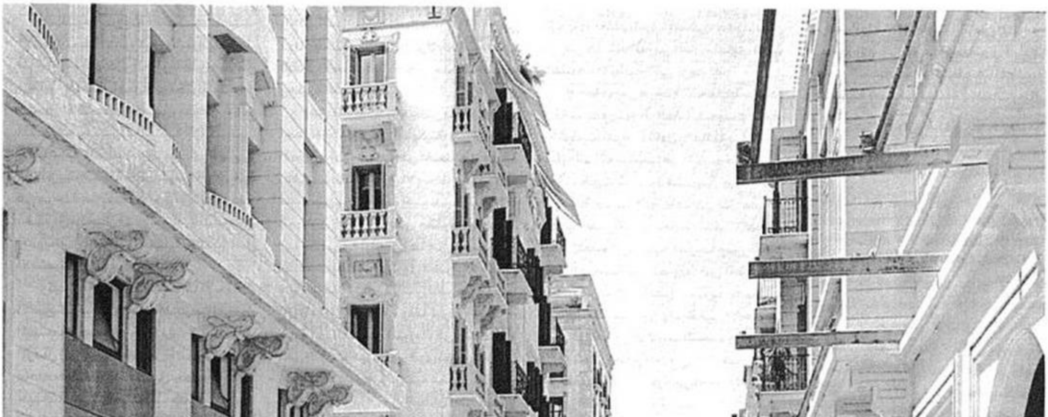
وللحروب ثمن. يعرفه من زار تلك المدينة الجميلة بعد الحرب. ويعرفه من شاهد هذا الكتاب.

انتهت الحرب/الملهاة. وعادت بيروت إلى أهلها الطيبين وعادت «أجيال الغربة» إلى وطن، ربما لا يعرفون مذاقه ولم يشموا عبقه الذى عشقه عرب نصف القرن المائج المدعى اختصارًا: (العشرين): مفكرون، وسياسيون، وأدباء.. وبسطاء. ومدمنون لرائحة الزعتر.. وصوت فيروز.

بيروت تعافت. وكالطائر الفينيقى فى الأسطورة الشهيرة، ها هى تخرج من تحت الرماد.

قبل أشهر صدر كتاب مصور بعنوان «ذاكرة بيروت»
وهنا وجهتا نظر فى المشهد البيروتى «الآن»
صور الكتاب رصدت تغيرًا إيجابيًا حدث فى المكان.
وقلم كاتبتنا شاهد تغيرًا عوليًا حدث فى البشر
وبين الرؤيتين.. ستظل دائمًا علامة الاستفهام. ■

المحرر



أنتِ لي!

رنا حايك

■■ في تلك الليلة لم أنم، وتملكني ألم فظيع في المعدة جعلني أتقلب في فراشي حتى بزوغ الفجر..

فجر نهار بداته في القاهرة وأنهيته في بيروت بعد غياب دام ثلاثة أشهر، كيف سأراها يا ترى وكيف ستراني؟

هي التي هربت منها بعدما انسابت بين أناملي يوماً بعد يوم حتى فقدتها

ذاكرة بيروت
صور: أيمن تراوي
بيروت: أيمن تراوي، ٢٠٠٣

في كل شيء إلا في صوت فيروز تغني سحر بحرها وخضرتها وبركة مياهها والجبال..

ودعته وأنا أعده بتوفير مسرحيات فيروز وعاهدت نفسي على أن تكون أول ما أبحث عنه..

وصلت لبنان وتهت في شوارعه النظيفة، المبتلة بالمطر أفتش.. قصدت وسط المدينة، بيروت العروس في أبهى حللها وأرقى تجلياتها فلم أجد فيروز..

غابت فيروز عن مربع منتجع «سوليدير» السياحي في وسط البلد، حيث تمركزت أفخم محلات بيع الأشرطة والتسجيلات، أسقطت فيروز «بيت الدين» و«بعلبك»، ولم يعتل الأرفف المنمقة أمامي سوى حفلة واحدة فقط: «فيروز في لاس فيجاس»، هذا بالضبط، وهذا فقط ما يعرفه السائحون ويهمهم..

خرجت أجر ذيول الخيبة ورائي، وقلت ربما يعزيني تجوال حالم في شوارع وسط المدينة الجديدة الباهرة.

لم أعرف المكان ولم يعرفني.. باعتني المدينة.. باعت ذكرياتنا ودفعت الثمن مهراً لقواد تألقت له بأحلى حلة مستوردة.

فرضت عجلة الاقتصاد والسياحة على بيروت نمطاً استهلاكياً علمها أن تحذو حذو مراهقة أمريكية: لا قيمة للعلاقات مع المكان والإنسان أمام ضرورة التجديد للمحافظة على الموقع الأول في صف المنافسة في مباريات ملكات الجمال.

(جدو أبو حسن) الذي كان محطتي لأشتري منه كل يوم مخزوني من منتج شوكولا لبناني لشركة غندور اللبنانية (رأس العبد) لم يعد موجوداً، وحل محله مطعم فخم ذو زجاج لامع.



لم يعد هناك من مجال لبناء تاريخك الشخصى فى مدينتك فهى باعتك بثمن بخس، واستبدلت بك جوقة من المرتزقة يغتصبون جمالها يوماً بعد يوم.

لم أجد بيروت.

قناع الراقصة المتأنقة أخفى تجاعيد الأم الحنون وبت أشعر فى أحضانها بالصقيع.

الجو برد فعلاً، لكن هذا لم يمنعنى من إكمال نزهتى، ربما أجدها تفترش إحدى النواصى على شكل زهرة تقوم يد المستثمر التى ترشها كل يوم بمادة كيميائية لتزهى ألوانها الاصطناعية.

شددت معطفى على جسدى أحايل الهواء الذى يحاول الوصول إلى ضلوعى ومشيت.

ساحة النجمة، البرلمان. شارع طويل يمتد بين رصيفين يعجان بالمقاهى الفخمة يعتلى كراسيها أقرباء لنا يحدجون الفاتنات اللبنانيات بنظرات شبقة، ويستعدون مسبقاً لتمتمة بعض الكلمات وربما لتبادل أرقام التليفونات معهم.

آه يا بلد.

لكننى سأمر.. وسأجد بيروتى، مدينتى، زهرتى، بحرى وأمى. مبان مرممة بتأنٍ، ودقة لا تترك مجالاً للفوضى الجميلة.

مبان وشوارع محت ١٧ سنة من الحرب وشركة استثمارية سعيدة بنجاحها لم توفر على نفسها فرصة التغنى بما اقترفت يداها: معرض صور على طول الشارع زاخر بعرض إنجازاتها بعد الحرب، جسد المدينة المشوة وعمليات التجميل التى أجريت له، غاب عنهم أن الجمال مرتبط بالمعنى، وأن التشوه هو فى كمال الصورة التى تفتقر إلى العمق لا فى عيوبها الإنسانية الحقيقية.

كان المتحف جميلاً حين اعترف بالحرب.

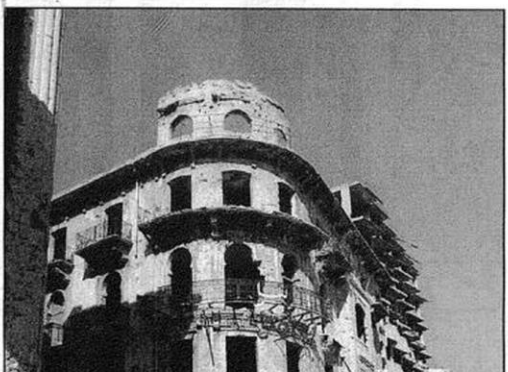
حين دخلته أول مرة بعد افتتاحه، أحببت أن أحتضن جدرانه الوسخة الملطخة بذكريات القناصين والمتحاربين الذين تركوا عليه رسائل حب ووداعات وجمل حشاشين يائسين.

بيروت الجديدة محت تاريخها، وخلت من الذكريات. نظرت إلى اللوحات









بأسى وحنين لماض سرقوه منى قبل أن أعيشه ويعيشنى، ولم ينبهنى غير صوت يرطن بالفرنسية لفتاة بيروتية تعبر بتأثر عن مدى جمال ما آلت إليه بيروت فأحسست بالغربة.

لفظتنى مدينتى ونفتنى، اقتلعت تاريخ أهلى وفتحت يدين مجليتين للوافد الأغر..

لست ضد الترميم لكننى ضد التنميط..

لست ضد الجمال لكننى ضد السطحية..

لست ضد مهرجانات التسوق ومفخرة بيروت سويسرا الشرق لكننى ضد بلد يلفظ أبناءه، ويمزق تاريخه فى سبيل بيع جسده.

أنا لا أنكر أن التحدى كان كبيراً على المرممين، وأعرف أنهم بذلوا مجهودات وطاقات خرافية للحفاظ على نفس الطراز المعمارى للأبنية، مرتكزين على تمويل الشعب الذى دفع من عائداته الشخصية نقوداً على شكل ضرائب للنهوض ببيروت.

لكننى ألوم عيونهم الأوروبية، كيف أنها لم تلحظ تفتت الهوية بين أياديهم البناءة وانسياب الوطن من بين أنامل أهاليه.

وسط بيروت. لمن هو؟

هو بالتأكيد ليس لمن دفع من عرقه ودمائه فى ترميمه، لأنه آل إلى منطقة باذخة ومترفة لا يستطيع رشف قهوته الصباحية فيها دون أن يدفع مبلغاً يفوق طاقته.

(سوق سرسق)، (سوق النورية) وأسواق أخرى اختفت أمام El Parlamento, Diva Bar, Casper and Gambini ومحلات لبيع الألبسة الإيطالية، فمن هو اللبنانى رائد وسط بيروت؟

Cut!!

مشهد آخر، شارع الحمرا الطويل وأصوات باعة الجرائد على الأرصفة. ساحة الشهيد (خالد علوان) بالتحديد. هذا البطل الذى فجر نفسه على ناصية (الومبى)، المقهى الذى كان يشرب فيه ضابط إسرائيلى قهوته أيام الاجتياح، فمات قبل إنهاء فنجاله الساخن.





كلا لن أدخل إلى الومبى، فأنا أشتم فيه رائحة نخبوية رواده. سأدخل المودكا، هذا المقهى ابن العشرين ربيعاً المنفتح على كل أشكال الحياة وأنواع الزبائن..

مناضلو الستينيات تركوا بصماتهم على طاولاته، منظرو كل الأزمان يرتادونه. الفنانون والرسامون، الكتاب والشعراء، البسطاء والناس العاديون يحبون الجلوس على كراسيه المرصوصة على الرصيف المشمس.

سأطلب القهوة وأشترى الجريدة من عم (رمّال) قريب (رمّال رمّال)، ذلك النابغة اللبنانى الذى درس فى الغرب بمنحة، وعمل فى الغرب بلعنة جعلتهم يصفّونه جسدياً عندما طلب زيارة أهله فى لبنان حتى لا يحمل معه أسرار مختبراتهم العلمية.

اعتقدت لوهلة أننى أخطأت الشارع، لكن يا ربى.. هذا لا يعقل.. هذا هو الومبى ثابت فى مكانه. وCafé de Paris على الرصيف المقابل، وبيروت لم يضربها زلزال عن قريب.. فأين المودكا؟

لماذا يحتل زاويته عمال وخشب وتفوح من قبره رائحة تراب وغبار؟

هذا لأن صاحب المودكا المصون باعه



لشخص جديد علّق على بابه يافطة مكتوباً عليها: قريباً افتتاح محلات Vero Moda للألبسة.

كادت أن تفلت منى صرخة كبتّها فاستحالت غصة مازالت فى صدرى حتى الآن.

ما هذا التحامل على الذاكرة؟

لم هذا الإصرار على النهج الاستهلاكى؟ ولماذا تدهسنا عجلة الرأسمالية المتوحشة وتطمس عوالمنا وتمحو تاريخنا؟

ومن ألوم؟

عدت أحمل المرارة فى نفسى، وفى يدى جريدة سأقرأها فى المنزل. لن أقرأ الجرائد فى Star Bucks Café إن كان هذا هو ما يريدونه.

لن يحصل.

وبالمناسبة، لم أعد إلى القاهرة دون أشرطة فيروز، وجدتها فى زقاق قديم بمنطقة حزام البؤس البيروتى فى الضاحية الجنوبية، هناك حيث مازالت تطفو أغنية الصرف الصحى حين تمطر بغزارة..

هناك عاش صوتها ولم يمت بين بشر نجوا من موجة التحديث الهوجاء، فعاش الوطن فيهم، وعاشوا على هامشه.■

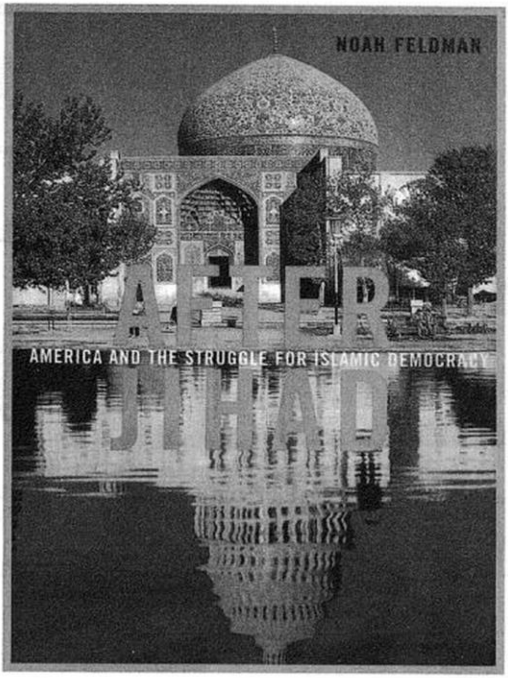



متواجد في مراك


QUALITY ASSURED FIRM ISO 9001 SGS
ماك
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
مشايات
دواسات حمام
مطبوع
سجاد أطفال
شرقى
بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل أرجاء مصر.

الديموقراطيــــة.. جهـــاد المسلمــين

عبدالعليــم الأبيــــض



■ كانت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ علامة من العلامات الفاصلة فى علاقة الولايات المتحدة بالإسلام، خاصة بعد احتلال الثوريين الإيرانيين للسفارة الأمريكية فى طهران واحتجاز رهائن من أعضاء السفارة.. وبالنسبة للإمام روح الله خامينى أصبحت الولايات المتحدة هى «الشيطان الأكبر»، واستعر لهيب الكراهية بين الولايات المتحدة وإيران ولم يهدأ حتى هذه اللحظة. وفى عام ١٩٨١ اغتيل الرئيس أنور السادات على أيدى منظمتى الجهاد والجماعة الإسلامية. وتصاعدت موجة الإسلام الراديكالى وفجأة انقلبت العلاقة بين الإسلام والولايات المتحدة وبدأ الحديث عن الخطر الإسلامى بعد فترة طويلة من العلاقات الطبيعية، بل والحميمة أحياناً.. ألم تعتبر أمريكا الإسلام حليفاً فى حربها الباردة. مع الاتحاد السوفيتى باعتبار الإسلام سلاحًا ضد الإلحاد الشيوعى؟

ومنذ الثورة الإيرانية تسارعت خطى الصدام بين أمريكا والإسلام عندما فجرت قوى المقاومة الشيعية فى جنوب لبنان معسكرات مشاة البحرية الأمريكية فى بيروت عام ١٩٨١. وفى عام ١٩٩١ اندلعت حرب العراق الأولى وما تلاها من تدخل الولايات المتحدة الذى انتهى بطرد صدام حسين من الكويت، وفرض حصار غير إنسانى على العراق بعد أن دمرت آلة الحرب الأمريكية الجهنمية معظم بنية العراق التحتية وعادت بالعراق على حد تعبير مبعوث للأمم المتحدة فى هذا الوقت إلى «العصر الحجرى»، وتوالت أحداث العنف. ففى عام ١٩٩٤ فجرت الجماعة الإسلامية المتطرفة بقيادة الشيخ عمر عبد الرحمن أبراج مركز التجارة العالمى، وكان الشيخ حليفاً للولايات المتحدة فى أفغانستان فى حربها ضد الاحتلال السوفيتى. وتسارع مسلسل العنف بين الولايات المتحدة والإسلام الراديكالى، إذ فجر تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن مجمع الخبر السكنى فى السعودية، ثم سلسلة من التفجيرات فى سفارتين لأمريكا فى شرق أفريقيا. أعقبها توجيه ضربات موجعة للسودان وأفغانستان والعراق. ثم كانت الضربة التى غيرت تاريخ الولايات المتحدة والشرق الأوسط، بل والعالم بأسره عندما وجه تنظيم القاعدة هجمات غير مسبوقة باستخدام طائرات مدنية فى تدمير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى مشهد درامى لن ينساه الأمريكيون، ثم ضرب مبنى البنتاجون مقر وزارة الدفاع الأمريكية فى حى أرلنجتون على بعد دقائق معدودة من البيت الأبيض ومعظم مقار الإدارة الأمريكية. شُبِّه الهجوم الذى شنته القاعدة بهجوم اليابان على بيرل هاربور فى بداية الحرب العالمية الثانية فى آثاره النفسية الغائرة على الأمريكيين. وتغيرت أمريكا وتغير العالم، وبدأت المعركة ضد الإسلام الراديكالى.

كان لابد من التعرض لهذه الخلفية لفهم السياسات الأمريكية تجاه الإسلام الراديكالى، وقد اتسعت المعركة وتحولت إلى سعى نشط لفرض الهيمنة الأمريكية على العالم.. كانت بدايته احتلال العراق والعمل على إعادة تشكيله، وربطه بسياسة أمريكا الجديدة فى الشرق الأوسط فى سياسة استراتيجية إمبريالية لا تعتذر الولايات المتحدة عنها، وإن كانت تصمها بأنها دولة إمبريالية.

بعد هذه المقدمة الطويلة بعض الشىء نعود إلى الكتاب الذى نعرضه على الصفحات التالية.. مؤلف الكتاب هو نوح فيلدمان أستاذ القانون بجامعة نيويورك. وهو يهودى أرثوذوكسى لا ينتمى إلى تيار المحافظين الجدد، بل يرى الكثيرون أنه معتدل. وقد وقع الاختيار عليه ضمن مجموعة من القانونيين لصياغة دستور العراق الجديد. وما يميز فيلدمان أنه ينأى بنفسه عن تيار المحافظين الجدد الذى يتخذ موقفاً متصلباً من الإسلام، وتراه فئة منهم على أنه العدو الجديد الذى حل محل الشيوعيين، ولابد من الاشتباك معه حتى يكون مصيره هو مصير الشيوعية!، بالإضافة إلى صدور تصريحات حمقاء من بعض روافد التيار المحافظ الدينى مثل تصريح فرانك جراهام ابن بيلى جراهام أهم القيادات الدينية المحافظة وصديق أسرة بوش بأن الإسلام «دين شرير».

يرى فيلدمان أننا تجاوزنا مرحلة الجهاد، بمعنى تعبئة الإسلام الراديكالى فى حرب حتى النهاية مع الولايات المتحدة زعيمة العالم الغربى، إذ أن الإسلام المتطرف كما يقول فيلدمان فى أفول سريع، وقد أجهد نفسه وفقد قوة الدفع لا بسبب الموقف الأمريكى منه، بل لأن جماهير المسلمين على اتساع العالم الإسلامى وتنوعه ترفض هذا النهج. ولا يعنى ذلك أننا بصدد انتهاء الأعمال الإرهابية، فسوف تستمر هذه الأعمال على نحو متفرق ولكنها ستكون أعمالاً يائسة محبطة. حتى هجوم ١١ سبتمبر يراه فيلدمان على أنه حشرجة يائسة لتيار مهزوم. لقد وهن الحماس للجهاد الثورى. وأينما توجهت أبصارنا، لا نرى إلا هزائم لهذه القيادة فى أفغانستان والسودان وإيران.. لقد فقد الجهاد الثورى بريقه.

إن لُب ما يذهب إليه فيلدمان، هو العكس تماماً مما ذهب إليه فرانسيس فوكوياما فى كتابه «نهاية التاريخ»، وصامويل هنتنجتون فى كتابه «صدام الحضارات»، وحتى ما يذهب إليه برنارد لويس فى كتابه الأخير «أزمة الإسلام»..

After Jihad: America and the Struggle for Islamic Democracy
(ما بعد الجهاد: أمريكا والصراع من أجل الديمقراطية الإسلامية)
Noah Feldman
Farrar, Straus and Giroux, 2003,
$ 24.00

إن لب ما يذهب إليه فيلدمان، هو العكس تماماً مما ذهب إليه فرانسيس فوكوياما فى كتابه «نهاية التاريخ»، وصامويل هنتنجتون فى كتابه «صدام الحضارات»، وحتى ما يذهب إليه برنارد لويس فى كتابه الأخير «أزمة الإسلام».. إذ يؤمن فيلدمان أنه ليس هناك تعارض جوهرى بين الإسلام والديمقراطية

إذ يؤمن فيلدمان أنه ليس هناك تعارض جوهرى بين الإسلام والديمقراطية، وأن الوقت الراهن هو وقت واعد لإحداث تزاوج بين الإسلام والديمقراطية. فمفهوم العدالة والأخلاق والأمل والالتزام فى الإسلام هو مفهوم يتسم بالعمق. وهو فى الوقت ذاته قوة هائلة يمكن أن تثرى العمل السياسى والاجتماعى.. إن قوة الإسلام فى حياة المسلمين لا تتعارض مع اتجاه مئات الملايين من المسلمين الذين يؤمنون بحكم أنفسهم بأنفسهم. هذه الحقبة الحالية، حقبة ما بعد الجهاد تشهد تكثيفاً فى نمو الحركات الشعبية الإسلامية التى تؤمن بنوع من الديمقراطية وهى ديمقراطية تتطور باستمرار وتنشد سياسة حكم رشيدة. إن مفهوم الجهاد الأكبر، جهاد النفس، الذى ينسب إلى الرسول ﷺ هو فى أدق معانيه

للديمقراطية حتى وقت قريب هى تفضيل الولايات المتحدة للنظم الأوتوقراطية، وإن كانت هذه السياسة تخضع لمراجعة واضحة الآن. لقد قدمت هذه النظم نفسها على أنها الحامية للاستقرار الذى يخدم المصالح الأمريكية ضد الخطر الذى يشكله الإسلاميون. فى الوقت نفسه أخلت هذه النظم الساحة السياسية من أى قوى سياسية فاعلة، حتى تبدو للأمريكيين بأنها البديل الوحيد. ويكرر الكاتب هذه النغمة من أول الكتاب لآخره، ويشدد عليها وينصح الولايات المتحدة بالتخلى عن هذه النظم.

ويرى الكاتب أن الثمن الذى ستدفعه الولايات المتحدة إذا ما واصلت دعم هذه النظم سوف يكون باهظاً فى المدى البعيد. هذه السياسة تضع الولايات المتحدة فى موقع العداء لشعوب هذه

أخرى قد تعزز من مصداقية الطرح الذى يأتى به كتاب «ما بعد الجهاد». إذ يعترف الكاتب. على عكس المحافظين الجدد. أن إسرائيل وسياسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين هى عامل مهم فى أزمة الثقة بين الولايات المتحدة والشعوب الإسلامية. بل إنه ينتقد بشدة كتابات المحافظين الجدد الذين يتجاهلون العامل الإسرائيلى فى نشوء الإرهاب، بما فى ذلك برنارد لويس وتلميذه النجيب بول وولفويتز فيلسوف الاتجاه.

يقع الكتاب فى ثلاثة فصول رئيسية تنقسم بدورها إلى أجزاء عديدة فرعية. الفصل الأول يتناول فكرة الإسلام

وفى إيران أدى نجاح الثورة الإسلامية إلى اعتناق أعداد غفيرة من الإسلاميين عقيدة الإسلام الثورى من خلال الجهاد العنيف.

وعندما اغتيل الرئيس السادات عام ١٩٨١ رفض الإسلاميون إدانة هذه الجريمة. وفى الجزائر لجأ الإسلاميون إلى العمل المسلح وتعددت المنظمات الجهادية فى العالم خلال فترة الثمانينيات، وظهر أسامة بن لادن على المسرح وأصبحت منظمة القاعدة أشهر المنظمات الجهادية التى نفذت أجرأ عمل إرهابى، ولكن كما سبق ذكره كان تدمير مركز التجارة العالمى عملاً يائساً أملاه فشل العمل الجهادى فى الإطاحة بالنظم الأوتوقراطية فى السعودية ومصر. ومن ثم اتجه العمل الإرهابى إلى مهاجمة حامى هذه النظم.

الأكبر... رؤية أمريكية!

جهاد من أجل العدالة. كما أن تصارع الأفكار لا ينبغى أن يفضى بالضرورة إلى صراع. إن الخطاب الإسلامى، فى لبه، هو خطاب العدالة وسيادة القانون والشورى والمسئولية.

المعضلة الأساسية للديمقراطية فى العالم الإسلامى كما يراها فيلدمان ليست العقيدة الإسلامية ولكنها فى نظم الحكم الديكتاتورية والأوتوقراطية، والانفصام بين هذه النظم وشعوبها. إنها نظم تستميت فى الدفاع عن أماكنها المغتصبة فى الحكم والاقتصاد والأمن. فضلاً عن ذلك يعترف فيلدمان بالتنوع الشديد بين البلاد الإسلامية فيما يتعلق بالتقدم نحو الديمقراطية والظروف الاقتصادية والاجتماعية، ولكن النظم الديكتاتورية تقف بشراسة ضد الديمقراطية الحقيقية. وفى هذا الصدد يشير الكاتب إلى سوريا وقصفها الوحشى لمدينة حماة وإلى نظام صدام حسين الرهيب.. وهناك عقبة أخرى كأداء

النظم وإحباط آمالها. وفى النهاية سوف تشيع اليأس فى نفوس القوى الإسلامية الديمقراطية وتعمق أزمة الثقة بينها وبين هذه القوى. وتعرى نفاق السياسات الأمريكية والتشدق بأنها تحمى وتدافع عن الديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة بينما تتنكر لها فى الواقع. كما أن استمرار هذه السياسة سوف يُصعب من حل الصراع الإسرائيلى. الفلسطينى حيث سيرفضه الإسلاميون الذين يتهمون حكوماتهم بالانصياع لأمريكا، وسوف تظل أمريكا مرتبطة فى أذهانهم بمساندة الاستبداد والقمع.

هذا هو لب الموضوع فى كتاب فيلدمان، ولكن الأمر يحتاج إلى تفصيل أكثر. فحسب معرفتى فإن فيلدمان يقدم دفاعاً منطقياً ومتسقاً عن إمكانية تزاوج حقيقى بين الإسلام والديمقراطية. فهو يسوق حججاً قوية أكثر من أى كتاب آخر قرأته فى هذا الموضوع. وثمة قضية

والديمقراطية، والفصل الثانى يتناول تنوعات الديمقراطية الإسلامية. ويتناول الفصل الأخير ضرورة قيام الديمقراطية الإسلامية والنتائج والتوصيات التى يصل إليها الكاتب، خاصة فيما يتعلق بسياسة الولايات المتحدة تجاه العالم الإسلامى.

وفى الفصل الأول الذى يتناول تفاعل الديمقراطية مع الإسلام، يشير المؤلف إلى محاولة إقامة أول ديمقراطية إسلامية فى العالم الإسلامى عندما اكتسح الإسلاميون عام ١٩٩١ الانتخابات المحلية فى الجزائر، الأمر الذى أصاب حزب جبهة التحرير الوطنى بالرعب فسارع إلى إلغاء نتيجة هذه الانتخابات والبطش بزعماء جبهة الإنقاذ سجناً وتعذيباً. وأيدت كل من فرنسا وأمريكا عملياً هذا الموقف من حكومة جبهة التحرير. وكانت النتيجة أن غرقت الجزائر فى بحر من الدماء من جراء الحرب الأهلية المستمرة حتى الآن. وانتهت أول تجربة إسلامية فى الديمقراطية قبل أن تبدأ.

ديمقراطية الإسلام.. ليست ديمقراطية الإسلاميين:

يميز الكاتب بين الديمقراطية الإسلامية وديمقراطية الإسلاميين. وقد أصبح من الشائع استخدام تعبير الإسلاميين للإشارة إلى العقائد الإسلامية الراديكالية والأصولية. وفى رأى الكاتب، فإن الإسلاميين بهذا المعنى لا يعيرون أى اعتبار للديمقراطية. وهم يروجون لتفسير ضيق للشريعة على غرار إيران الخومينى أو طالبان أفغانستان.. إلخ. أما الديمقراطية الإسلامية فى رأيه فتتسع لتشمل الديمقراطية فى تعريفها التقليدى، أى حكم الشعب وسيادة القانون وضمان الحريات الأساسية ومبدأ المساءلة. وفيما يتعلق بالديمقراطية الإسلامية، فإن من الصعب تصور قيام حركات ديمقراطية شعبية على نحو ما حدث فى بولندا.. السبب فى ذلك هو إمعان النظم الأوتوقراطية فى قمع الإسلاميين

> **فيما يتعلق بالديمقراطية الإسلامية، فإن من الصعب تصور قيام حركات ديمقراطية شعبية على نحو ما حدث فى بولندا.. السبب فى ذلك هو إمعان النظم الأوتوقراطية فى قمع الإسلاميين الديمقراطيين وغيرهم على نحو ما نعرف فى حالة الجزائر**

الديمقراطيين وغيرهم على نحو ما نعرف فى حالة الجزائر. تفعل ذلك النظم الديكتاتورية وتصوره على أنه عمل وقائى ضد التطرف والأصولية. وانطلت هذه الخدعة على الولايات المتحدة وكان من أثر ذلك توارى الإسلاميين الديمقراطيين عن الأنظار اتقاءً لحملات القمع التى شنتها الأنظمة سابقة الذكر.

ويتعرض المؤلف لبعض المفكرين الغربيين الذين يروجون فى نظرياتهم لاستحالة الديمقراطية فى الإسلام. وأشهر هؤلاء المفكرين هو صامويل هنتنجتون. وقد حالف هنتنجتون بعض التوفيق عندما وقعت حوادث ٩/١١ والتى لم تكن إلا هجوماً على الحكومات الإسلامية من خلال الهجوم على الولايات المتحدة. وينتمى برنارد لويس إلى هذه المجموعة التى تذهب إلى عدم إمكانية التعايش بين الإسلام والديمقراطية. وللإنصاف فثمة مفكرون إسلاميون يؤمنون بنفس هذه المقولة. وإن كان هناك اتجاه آخر مؤداه تبنى الأفكار الغربية مع رفضها فى الظاهر، والزعم بأن هذه القيم التى تسمى غربية إن هى إلا قيم راسخة فى الإسلام!

يرفض فيلدمان الأفكار الرافضة لإمكانية التعايش بين الإسلام والديمقراطية، ويؤكد أن كلاً من الفكرتين تتسم بصفتين أساسيتين هما العالمية والتنقلية. هاتان الخاصيتان كانتا وراء الانتشار السريع للإسلام والديمقراطية فى كل أنحاء العالم. إذ من خصائص الأفكار التنقلية المرونة والقدرة على التكيف فى بيئات وحضارات متنوعة جد التنوع. أليس ما يقال عن الإسلام اليوم كان يُقال عن العقيدة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية فى شرق أوروبا؟ ما علينا إلا أن نتأمل تاريخ الإسلام فى الهند وإسبانيا وانفتاح الإسلام على حضارة اليونان القديمة ونقلها إلى أوروبا. كل ذلك يبرهن على حيوية ومرونة الإسلام، ويقول المؤلف:

«إن التاريخ القصير للإسلام السياسى يدل على أنه من الخطأ دائماً إقصاء الإسلام. لقد بدا الإسلام ضعيفاً كقوة سياسية منذ ١٠٠ عام، ومرة أخرى منذ ٥٠ سنة، ولكنه بقى حياً فى كل مرة. وبعد تجربة الإسلام السياسى فى إيران فليس من المتوقع أن يدخل الإسلام فى بيات شتوى حتى تتاح الفرصة لدول أخرى خوض التجربة بأى صورة من الصور. لقد ولد الإسلام كحركة احتجاج ضد الحكومات العربية التى يدعمها الغرب، ومازال يشكل المعارضة فى كل البلاد الإسلامية. وهذا يعنى أن المسلمين الذين يكرهون حكوماتهم لكونها حكومات غير عادلة وباطشة سوف يتعاطفون، ولو على نحو ما مع الأفكار الإسلامية. إذ يتمتع الإسلام ببعض المرونة ويصور نفسه دائماً كناشر للعدالة، وهو ما يستحوذ على أذهان وقلوب الناس، خاصة فى غياب العدالة المنشودة».

تنوع الديمقراطية:

فى هذا الجزء يشير المؤلف إلى تجربة إيران وتركيا وكذلك تجارب جنوب شرق آسيا وباكستان ثم المنطقة العربية. وفى استعراضه لتجارب هذه النماذج المتعددة يخلص المؤلف إلى أن النتيجة ليست إخفاقاً كاملاً أو نجاحاً كاملاً، بل خليط من النجاح والإخفاق. ولا يخفى فيلدمان تفاؤله بمستقبل الديمقراطية فى تركيا والأردن والمغرب. ولكنه فى نفس الوقت ليس متشائماً تماماً بالنسبة لمستقبل الديمقراطية فى الدول الإسلامية الأخرى.

تستحوذ إيران على جزء كامل فى الكتاب للأهمية الواضحة لإيران كأكبر دولة شيعية وكأول دولة إسلامية تخوض تجربة ثورية إسلامية خالصة.. المتفائلون بالنسبة لإيران يشيرون إلى انتخاب محمد خاتمى رئيساً للجمهورية فى انتخابات حرة نزيهة رغم أنف النظام الثورى الإيرانى المتمثل فى «مجلس الأوصياء» المحافظ والذى مازالت له الكلمة الأخيرة. والمتشائمون يشيرون إلى قوة القوى المحافظة. ولكن تجربة خاتمى هى أهم تجربة ديمقراطية نابعة من صلب العالم الإسلامى فى دولة إسلامية. وما على الولايات المتحدة إلا أن تشجع هذا الاتجاه وتعترف بالتطور الذى حدث فى إيران منذ رحيل الإمام الخومينى فيما يتعلق بنزاهة الانتخابات ومعارضة الشباب للاتجاه المحافظ ومشاركة المرأة المتزايدة فى الحياة السياسية.

فيما يتعلق بتركيا يمكن القول أنها دولة ديمقراطية منقوصة نظراً للدور الفريد الذى يقوم به الجيش فى حماية الدستور والعلمانية.. ولاشك أن تركيا هى أكثر دول العالم الإسلامى ديمقراطية، بالرغم من نفوذ الجيش وبالرغم من عزل الجيش لأول حكومة يرأسها نجم الدين أربكان رئيس حزب الرفاه بعد انتخابات عام ١٩٩٥ الذى حصل فيها الحزب على نسبة عالية من الأصوات مكنته من تشكيل حكومة ائتلافية. وإنصافاً فإنه فى كل مرة كان يتدخل فيها الجيش كان يقوم بتسليم الحكم إلى حكومة أكثر ديمقراطية. الأمر الآخر هو أن الأحزاب الإسلامية فى تركيا لم تدع أبداً إلى العنف أو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. والتجربة التركية توحى بشدة بإمكانية قيام ديمقراطية إسلامية.

وما يقال عن تركيا يمكن أن يقال عن تجارب أندونيسيا وماليزيا وباكستان. فعلى الرغم من تعثر التجربة الديمقراطية فى هذه البلاد مازالت هناك إمكانيات لا بأس بها لقيام الديمقراطية. ويؤكد الكاتب الظروف الخاصة لأندونيسيا وماليزيا، أولاً لنوعية الإسلام الذى انتشر هناك. إذ لم ينتشر بالغزو بل بالإقناع. فضلاً عن فضائل التسامح الذى يميز حضارة هذه المناطق. وفى باكستان يشير الكاتب إلى موقف الصفوة الباكستانية التى لم تتخل أبداً عن مبدأ المواءمة بين الديمقراطية والإسلام. فضلاً عن تجربة الباكستانيين الطويلة فى مداولات العلاقة بين الإسلام والديمقراطية.

ولا ييأس الكاتب من إمكانية قيام ديمقراطية فى دول العالم العربى على ما بينها من اختلافات وتنوعات. إلا أن الكاتب وغيره كثيرون، يرون أن الديمقراطية تواجه أصعب امتحاناتها فى المنطقة العربية. ومما يميز الدول العربية الملكية أو العسكرية الفقيرة أو الغنية هو الحكم الديكتاتورى، وإن اختلفت حدته فى سوريا والعراق مثلاً من ناحية ومصر من ناحية أخرى.

فالديمقراطية فى هذه الدول تواجه محنة شديدة تتمثل فى الحظر على تكوين الأحزاب السياسية وعلى الحريات وغياب الضمانات القانونية. وهناك السجون وتلفيق التهم للمعارضة. ومع ذلك فرياح التغيير بدأت تهب على المنطقة. حيث نشهد تحركات طبقات الأرض التحتية السابقة لقيام الهزات الأرضية. فنرى فى السعودية مهد الحكم الوهابى المتشدد من ينادى بإجراء الانتخابات. وهناك تجربة البحرين المبشرة بالأمل.

اللغز المصرى:

يخصص الكاتب جزءاً كاملاً عن مصر تحت العنوان السابق. ويشير إلى أهمية مصر باعتبارها فى رأيه قلب العالم العربى جغرافياً وحضارياً وسكانياً، وباعتبارها أكبر المصدرين لدول المنطقة لمنتجاتها الثقافية من أفلام وبرامج تليفزيونية ومسلسلات درامية. علاوة على ذلك فإن مصر هى مهد الإصلاح السياسى، والأصولية الإسلامية التى تتبنى العنف فى نفس الوقت. ويشير الكاتب إلى نمو التيار الإسلامى السياسى فى فترة الثمانينيات بعد أن ظل هامشياً طوال تاريخ مصر المعاصر. ولكن الكاتب يزعم أن تفشى الفساد السياسى والاقتصادى وغياب الديمقراطية يلقى بظلاله الثقيلة على مستقبل الديمقراطية فى مصر. ومع ذلك يرى الكاتب أن الأفق ليس مسدوداً تماماً فى مصر، فثمة إصلاحات فى الفترة الأخيرة، وثمة حريات أكثر قليلاً فى التعبير عن الرأى. كما أن الانتخابات التى أجريت عام ٢٠٠٠ تعتبر أفضل من الانتخابات التى سبقتها فى عام ١٩٩٧، ولكن الصورة العامة تظل قاتمة لدى المؤلف.

حاولنا جهدنا التركيز على استعراض الكاتب لمشكلة الديمقراطية والإسلام. وعلى عكس معظم أدبيات الدراسات الإسلامية التى صدرت فى الآونة الأخيرة فى الغرب عامة والولايات

المتحدة خاصة. يتميز فيلدمان برؤية إيمانية عميقة فى إمكانية قيام ديمقراطية إسلامية وسط لغط شديد فى بعض الأوساط الغربية الفكرية تحاول أن تثبت أنه لا مستقبل لديمقراطية إسلامية.

ويتعرض فيلدمان الآن خاصة بعد اختياره لصياغة دستور جديد للعراق لانتقادات كثيرة، بعضها موضوعى وبعضها انفعالى. فقد انتقده المفكر الكبير الدكتور إدوارد سعيد بقوله أنه يهودى أرثوذكسى، مع أن الكاتب اعتبر كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» من أهم الكتب التى صدرت فى القرن العشرين. ربما أكثر الانتقادات موضوعية هو ما جاء على لسان شريف بسيونى القانونى المصرى المرموق الذى يحمل الآن الجنسية الأمريكية. إذ يذهب شريف بسيونى إلى أن المجموعة التى اختيرت لكتابة دستور العراق وقوانينها ليست مؤهلة، لذلك فلدى العراق رجال قانون ممتازون. كما أن الدستور العراقى الملغى قد استند إلى الدستور المصرى. والمطلوب فقط هو تنقيح الدستور والقوانين التى صدرت عن البعث العراقى.

نعود إلى: ما العمل؟ فى رأى الكاتب أنه لا ديمقراطية فى العالم الإسلامى مالم تنتهج الولايات المتحدة سياسة دائمة للضغط والترغيب على النظم الأوتوقراطية الحاكمة فى العالم الإسلامى. سياسة تراعى ظروف كل بلد على حدة وتكييف وسائل الإقناع المجدية فى كل حالة. وأول ما ينبغى أن تفعله الولايات المتحدة هو أن تتخلى عن حساسيتها المفرطة إزاء بعض الدول البترولية مثل السعودية والدول غير البترولية كمصر وباكستان لمجرد أن هذه النظم صديقة للولايات المتحدة. كما ينبغى أن يكون المبدأ الذى تستند إليه أمريكا فى المنطقة الإسلامية والعربية خاصة هو مصالح الولايات المتحدة وأن هذه المصالح سوف تزدهر فى ظل سياسة تشجع الديمقراطية. وعلى الولايات المتحدة أن تطرح رواسب حقبة الحرب الباردة لتبرير تحالفاتها مع النظم الإسلامية الديكتاتورية. كما أن عليها أن ترفض حجج هذه الديكتاتوريات بأن الخيار هو بينها وبين تيار الأصولية. فمصدر العداء الشعبى الجارف فى الدول الإسلامية هو النظم الديكتاتورية ذاتها وإسرائيل إلى حد ما.

ثمة أسلحة عديدة تستطيع الولايات المتحدة نشرها فى التأثير على هذه النظم: منها استخدام المعونة والمنح النقدية التى ترتبط بالإصلاحات الديمقراطية وإذا فشلت هذه الأساليب فيمكن استخدام القوة العسكرية، وعلى رأى كلوزفوتز، فالقوة العسكرية هى السياسة بطرق أخرى. ثم هناك النفوذ القوى الذى يمكن استخدامه لصالح الديمقراطية وبعد ترك بيل كلينتون للحكم دُعى لحضور مؤتمر عقدته جامعة نيويورك حول الديمقراطية. وعندما انبرى عدد من المثقفين المسلمين لتوجيه اللوم إلى الحكومات الأمريكية لعدم تمسكها بالديمقراطية فى الدول الإسلامية نهض كلينتون ليقول: «إننى أعترف بأن ما فعلته لم يكن المطلوب. والحقيقة أننى لم أعرف كيف أفعل ذلك».

ما كان يقصده كلينتون هو وجود تحالفات بين الولايات المتحدة وتلك النظم الأوتوقراطية. وهذا الرد هو ما يرفضه الكاتب.

وختاماً . على حد تعبير الكاتب . فى نهاية الكتاب إن المسلمين لم تلدهم أمهاتهم مبرمجين ضد الديمقراطية أو لقبول حجج الإسلاميين، هذا ما يثبته القرن العشرون. بإمكاننا أن نعرف فقط صدق هذه المقولة عندما توجد حرية سياسية حقيقية فى العالم الإسلامى، وعندما تصبح الانتخابات حرة. فحتى الآن لم يتم تجريب سياسات إسلامية حرة فى أى بلد إسلامى. وأخيراً فإن المراقب للساحة الإسلامية منذ ٩/١١ وبعد حرب العراق يشهد سباقًا لاهثًا بعيداً عن الأنظار على امتداد العالم الإسلامى يعاود النظر فى المسلمات وينظر فى كيفية التأقلم مع النظام الجديد فى المنطقة وفى العالم. وإن كانت الصورة العامة تبدو وكأن الأمور تجرى على ما تعودت أن تجرى عليه. إلا أن الصورة لم تعد كذلك.■

حروب السوبر

تيم لانج

ليست هناك مبالغة فى القول بأن النصف الأخير من القرن الماضى شهد ثورة فى عالم الغذاء. إن كل خطوة على طريق دورة صناعة الغذاء - بداية من زراعته وإنتاجه وتوزيعه، وتوريده وانتهاء بطهيه - قد تطورت بشكل يفوق إدراكنا. التغيير ليس بأمر جديد فى عالم الغذاء، لقد كان دوماً رهناً للتجارة عبر القارات. ولكن الأمر الذى لم يحدث قبل ذلك أبداً أن تتركز مثل هذه السلطة الهائلة على نظام الغذاء العالمى فى يد عدد قليل من المؤسسات العالمية.

فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية، كان المزارعون هم المتحكمون الأساسيون فى تجارة الغذاء. ولكن نهاية سلطة المزارعين بدأت حينما اعتقدوا أنهم فى أوج قوتهم، وذلك فى منتصف القرن العشرين. وفى المرحلة التالية للحرب، كان للمزارعين نصيب من المنح وأشكال الدعم المختلفة، لمنعهم من الانهيار الكامل. فقد كان الدعم يوجه إليهم بشرط قبول إعادة الهيكلة؛ أى فى مقابل التكثيف وزيادة درجة الكفاءة، وتبنى التقنيات الموفرة للعمالة فى شكل الميكنة وعلوم النبات.

وبعد خمسين عاماً، توقفت أشكال الدعم تلك. حتى الاقتصاديات الغنية لدول الاتحاد الأوروبى لم يعد بإمكانها ان تتحمل دعم مثل هذا النظام الباهظ التكاليف، ولهذا فإن الإنفاق على السياسة الزراعية العامة قد أخذ فى التناقص.

إن المستهلكين اليوم ينفقون جانباً أقل للغاية من دخلهم الشهرى على الغذاء. فبالمقارنة بخمسين عاماً مضت، كان الإنفاق على الغذاء يبلغ ثلث ميزانية البيت الإنجليزى، بينما يبلغ اليوم أقل من عشر تلك الميزانية. كذلك لم يعد منتجو الغذاء الخام هم المتحكمون فى دورة الأغذية. بدلاً من ذلك، تركزت القوة بشكل مخيف فى يد مجموعة قليلة من الشركات العملاقة التى تصنع المنتج الخام وعدد قليل من المؤسسات التجارية التى تسيطر على منافذ العبور لأفواهنا والتى تعرف بالسوبر ماركت. وكلها تتوسع دولياً، الغالبية على المستوى الإقليمى، والبعض الآخر أخذ صبغة العالمية.

وبينما وهنت قوة المزارعين مع نهاية القرن العشرين، فإن هذه الكيانات العملاقة المصنعة والموردة للغذاء قد اقتحمت المجال لتملأ ذاك الفراغ. وبدون جدال، كان المصنعون هم الذين حصلوا على مكاسب أكثر من المزارعين فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية والتى تميزت فيها صناعة الغذاء بالاستقرار. إن دعم الحكومة للمزارعين قد أمّن فحسب إمداد المصنعين بالبضائع الخام.

وقد قام جون كونور أستاذ الاقتصاديات الصناعية فى جامعة بورديو بولاية إنديانا الأمريكية ولفترة طويلة بمراقبة دقيقة لعملية الاحتكار فى دورة الأغذية. فذكر مؤخراً فى مؤتمر منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى أن حصص السوق لأكبر عشرين شركة اغذية امريكية قد تضاعفت منذ عام ١٩٦٧. واليوم تستحوذ مائة شركة فقط على ثمانين بالمائة من كل القيمة المضافة. وسواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة، فإن تركز القوى الصناعية هو نفسه، الأسماء فقط هى التى تتغير. ففى (أوروبا) نستلة ويونيليفير، وهناك كرافت وجينيرال فودز (تم اندماجهما الآن وتملكهما بواسطة شركة ألتريا وقد اختار هذا الاسم الجديد عملاق صناعة السجائر فيليب موريس). إن هذه الشركات تعمل على نطاق واسع. وطبقاً للأرقام الجديدة، فإن نستلة على سبيل المثال، اكبر شركة مصنعة للغذاء فى العالم قد باعت منتجات غذائية بمبالغ تقدر بـ ٤٦,٦ مليار دولار عام ٢٠٠١. وحتى شركة مارز، والتى لا تحتل سوى المرتبة العاشرة فى قائمة أكبر عشرة مصنعين للغذاء فى العالم، فإن مبيعاتها أيضاً تقدر بأكثر من ١٥ مليار دولار.

سيكون من المريح الاعتقاد أن سياسة التركز هذه قد نجمت عن اختيار وتفضيل المستهلك لسلعة عن الأخرى. لكن فى الحقيقة، إن الظاهرة بأكملها هى نتيجة لشراء المصنِّعين لبعضهم البعض لكى يضعوا أيديهم على العلامات التجارية. إن عمليات الاندماج واكتساب العلامات التجارية حدثت بكثرة منذ الثمانينيات على جانبى الأطلنطى، حيث إن الشركات الكبرى كانت تطبق بشكل سريع وخاطف على منافسيها.

فمثلاً علامة تجارية «بريطانية» مثل الكيت. كات والتى امتلكها فى يوم من الأيام «كوايكر» صانع حلويات راونتريز فى يورك. قد حولتها نستلة إلى علامة تجارية عالمية.

لقد تركزت العملية الصناعية فى يد قلة صغيرة، وأصبح مستوى الاحتكار هذا أمراً ملحوظاً الآن سواء نظر المرء من الزاوية المحلية، أو الإقليمية، أو العالمية. على سبيل المثال، وفى منتصف السبعينيات، تحكمت أكبر اربع شركات امريكية لتعبئة اللحوم فى حوالى ربع السوق الأمريكية. لكن اليوم أصبحت هناك عشرون شركة فقط تقوم بتغذية نصف الماشية فى الولايات المتحدة وهى متصلة بشكل مباشر بأربعة مصانع منتجة للحوم والتى تسيطر على ٨١٪ من إنتاج اللحوم، سواء من خلال ملكية مباشرة أو من خلال عقود رسمية. فى هذا النوع من النظام الغذائى، يصبح المزارع متعهداً، حيث يقوم بتوفير العمالة، وغالباً بعض من قيمة راس المال، ولكن لا يمكنه امتلاك المنتج. إن المزارعين لا يمكنهم أبداً وفقاً لهذا النظام أن يقوموا باتخاذ القرارات الإدارية الكبرى.

ويشبه هذا لحد بعيد ما يجرى فى مجال الكيماويات الزراعية. ففى نهاية الثمانينيات، كانت منتجات أكبر عشرين مصنعاً على مستوى العالم تمثل حوالى ٩٠٪ من المبيعات. ومع نهاية عقد التسعينيات سيطرت عشرة مصانع فقط على هذه النسبة المرتفعة من السوق. واليوم تناقص هذا العدد إلى سبعة فقط. إن اتجاه شركات الكيماويات الزراعية إلى التقنية البيولوجية كان دافعاً آخر للاندماج، حيث ظهرت شركات علوم الحياة والتى تغطى دراسة الجينوم بدءاً من الصيدليات وحتى تربية النباتات.

لكن حتى أكثر المصنعين العالميين ربحية، والذين يمتلكون أشهر العلامات التجارية لم يعد بإمكانهم الادعاء بالسيطرة الكاملة على دورة الأغذية،

بترتيب مع الجارديان
ترجمة: رانية خلاف

أكبر عشرة متاجر تجزئة للغذاء فى العالم

	المبيعات العالمية باليورو	(٢٠٠٢)
١	وال - مارت (الولايات المتحدة)	١٩٩ ملياراً
٢	كارفور (أوروبا)	٨٦ ملياراً
٣	أهولد (أوروبا)	٥٣ ملياراً
٤	كروجر (الولايات المتحدة)	٥١ ملياراً
٥	مترو (أوروبا)	٤٧ ملياراً
٦	البرتسونز (الولايات المتحدة)	٣٩ ملياراً
٧	كيمارت (الولايات المتحدة)	٣٩ ملياراً
٨	ريوى (أوروبا)	٣٦ ملياراً
٩	تيسكو (أوروبا)	٣٤ ملياراً
١٠	آلدى (أوروبا)	٣٣ ملياراً

أكبر عشرة مصنعين للغذاء فى العالم

	المبيعات الكلية للغذاء بالدولار الأمريكى	(٢٠٠١-٢٠٠٢)
١	نستلة	٤٦.٦ مليار
٢	فيليب موريس (كرافت)	٣٨.١ مليار
٣	كون أجرا	٢٧.٦ مليار
٤	يونيليفر	٢٦.٧ مليار
٥	بيبسى	٢٥.١ مليار
٦	أى. دى. أم (لطحن الحبوب)	٢٣.٥ مليار
٧	تيسون (إنتاج اللحوم)	٢٣.٤ مليار
٨	كارجيل	٢١.٥ مليار
٩	كوكا كولا	٢٠.١ مليار
١٠	مارز	١٥.٣ مليار

ماركت!



حيث تنازعهم فى ذلك الشركات العالمية ذات الربحية الضخمة التى تسيطر على منافذ الوصول للمستهلك والمتمثلة فى سلاسل محلات السوبر ماركت الشهيرة. وحتى المصنعين الكبار يعتمدون على السوبرماركت لكى تصل بضائعهم إلى المستهلك. ولكى يقوموا بذلك، فإن عليهم أن يوافقوا مقدماً على عقود مع تجار التجزئة، الذين تتطلب أنظمتهم مواصفات دقيقة، وأوقاتاً محددة للتسليم، وهوامش ربح مرتفعة.

وكما هو الحال بالنسبة للمصنعين، أصبح هناك تركز عال لقوة وسلطة البيع بالتجزئة خلال السنوات الأخيرة. ففى المملكة المتحدة، تستحوذ أكبر خمس سلاسل للسوبر ماركت الآن على حوالى ثلثى مبيعات الأغذية، بينما تباع نصف أغذية البلاد من خلال ألف متجر عملاق فقط. وعلى الرغم من ذلك، فإن أرباح السيطرة على مبيعات الداخل ليست بكافية، ولذلك ينظر تجار التجزئة الكبار إلى ما وراء أسواقهم المحلية سعياً وراء مكاسب يمكن نيلها عن طريق التوسع، إقليمياً فى المقام الأول، ثم عالمياً. لقد أصبح وال - مارت، المالك الأمريكى لأسدا، أكبر متاجر التجزئة فى العالم على الرغم من أنه قد توسع خارج الولايات المتحدة منذ عشر سنوات فقط. ويعد وال - مارت جزءاً من مجموعة النخبة بين تجار التجزئة الذين أعلنوا عن طموحاتهم العالمية، ومن بينهما تيسكو - التى أعلنت الشهر الماضى أرباحاً تفوق ١.٣ مليار جنيه استرلينى. وكذلك السلسلة الفرنسية «كارفور» المنتشرة فى عديد من دول العالم.

إن هذه المؤسسات تقسم العالم الآن إلى ثلاث فرق: الاقتصاديات الغنية لأوروبا الغربية وشمال أمريكا، ثم الاقتصاديات التى تنمو بشكل سريع لتلاحق الاقتصاديات الأكبر مثل تايلاند والمجر، ثم أسواق العالم النامى مثل الهند، البرازيل والصين.

وقد صدر العام الماضى تقرير مهم عن آخر ما وصلت إليه صناعة الغذاء فى العالم (State of the Art in Food) يرتكز على مجموعة من المسوح فى ١٩ دولة، وكان آخر ما خلص إليه هو أن اندماج وعولمة تجارة التجزئة وصناعة الغذاء من المتوقع أن تستمر فى المستقبل القريب، وسيكون هناك أربع أو خمس مؤسسات تجزئة كبرى تعمل حول العالم. وعلى الرغم من ذلك، سيكون هناك عدد من تجار التجزئة ذوى النفوذ القوى يعملون على المستويين المحلى والإقليمى. إن حالة مشابهة ستوجد بين المصنعين الكبار وسيعمل حوالى عشرة فقط من مصنعى الغذاء على المستوى العالمى، من خلال عشرين إلى خمس وعشرين علامة تجارية، وعدد من شركات البضائع الاستهلاكية التى ستكون مسيطرة فى دول أو أقاليم معينة. ويكشف التقرير عن عمق الاستياء بين القائمين على عملية صناعة الغذاء بالنسبة للطريقة التى يعمل بها تجار التجزئة بوصفهم البوابة الرئيسية للمستهلك.

ويقول التقرير، «إن ثلاثة أرباع المصنعين الذين خضعوا للمسح أشاروا إلى أنهم يستسلمون كثيراً لنفوذ تجار التجزئة ويشعرون بالتخوف إزاء عواقب تنامى قوتهم». إن مصنعى البضائع ذات العلامات التجارية الكبرى يعلمون جيداً أن تجار التجزئة الكبار يجبرونهم على تقديم تخفيضات إضافية، ويبدو الأمر كجباية الضرائب بالقوة خوفاً من خسارة مميزات تملك موقع على الرف فى متاجر التجزئة الكبرى. إن بعض المشرفين على عمليات التنفيذ وصل بهم الأمر إلى وصف ما يحدث بأنه ابتزاز وتهديد.

ومن الطبيعى أن تكون مشاعر الكراهية تلك متبادلة. وكما يقول التقرير فإن «تجار التجزئة، وليس الأمر من قبيل المفاجأة، لا يتفقون مع هذا التقدير للأمور، بل يقول المديرون التنفيذيون فى مجال التجزئة، إن المصنعين أساءوا استخدام نفوذهم ولا يظهرون احتراماً كافياً للدور المهم الذى يلعبه المتجر. وأشار تجار التجزئة إلى أنه بدلاً من إنفاق الملايين من الدولارات على وسائل الإعلام الجماهيرية من أجل تسويق المنتجات، فإن المصنعين ينبغى أن يوجهوا أموالاً أكثر تجاه تعزيز عمليات الترويج الداخلى للبضائع داخل المتاجر ومن الأفضل أن ينظموا استراتيجياتهم ليعملوا بالاتساق مع مبادرات التسويق التى يقوم بها تجار التجزئة. و لكن مؤلفى هذا التقرير أوضحوا أنه، على المدى القصير على أقل تقدير، فإن المعركة «الملحمية» من أجل السيطرة على سوق الغذاء ستسفر عن فائز واحد فقط، وهو تجار التجزئة خلال السنوات الخمس القادمة.

إن السؤال الذى يطرح نفسه بقوة هنا هو: ماذا يعنى كل هذا بالنسبة للمستهلكين؟ إن التقرير السابق قد توصل إلى استنتاج متفائل مفاده أنه بالرغم من السلطة المتزايدة لكل من المصنعين وتجار التجزئة، فإن المستهلكين هم من سيقودون دورة الغذاء فى المستقبل. على الرغم من أن هذا أمر مرغوب فيه، فإنه من الصعب تصديقه بالنظر للمؤشرات الحالية.

إن احتياجات المستهلك يبدو أنها تلعب جزءاً ضئيلاً فى تطوير المنتجات الجديدة. وفى المرة القادمة لدى ذهابك للسوبر ماركت، قم بجولة قبل أن تبدأ فى الشراء. انظر إلى آلاف المنتجات وتساءل: من قام بطلب كل تلك المنتجات المتكدسة؟ فى الولايات المتحدة، هناك أكثر من ثلاثة عشر ألفاً من أصناف الأغذية الجديدة التى تطرح فى الأسواق كل عام لتنضم إلى المنتجات الموجودة بالفعل والتى يبلغ عددها ٣٠٠ ألف صنف. وفى أوروبا، من بين عشرة آلاف سلعة جديدة تطرح سنوياً، فإن ٩٠ بالمائة منها تخفق قبل انتهاء العام، فقط عدد قليل من العلامات التجارية الغذائية سيبقى بعد عملية طويلة من الصراع ليكون له صفة العالمية، ويلحق بأسماء ثبتت أقدامها بالفعل فى السوق مثل نيسكافيه، بيبسى، كوكاكولا، كيلوجس، ماكدونالدزهاينز، كنتاكى، مارس وكادبورى. ومن بين أكبر خمسين علامة تجارية استهلاكية فى العالم، فإن الغذاء يمثل الخمس.

ويحتاج الأمر إلى أموال طائلة من أجل أن يصل المنتج إلى ذلك المستوى فى الأسواق العالمية. إن أصناف الغذاء الجديدة لا يمكن أن تطرح على أساس أمل «عقيم»، هو أن المستهلك السريع التأثر سيقوم بشرائها بموافقته الشخصية. وأولويات مصنعى الغذاء هى تأمين مساحة على الرف لمنتجاتهم والقيام بحملات إعلانية مستمرة ومكثفة لإقناع المتسوق بشرائها وترك سلعة منافسة أخرى. وهذا يفسر لماذا تقوم شركات مثل ماكدونالدز وكوكاكولا بإنفاق ٤.١ مليار دولار سنوياً على التسويق فى جميع أنحاء العالم، وإنفاق هذا المبلغ الضخم مبرر فى سبيل امتلاك حصة تبلغ ١.٣ تريليون دولار من سوق الغذاء الأمريكى.

هناك حجة أخرى بشأن تزايد نفوذ أصحاب متاجر السوبر ماركت وهى أنهم يتحكمون فى اختيارات وأذواق عشرات الملايين من المستهلكين من خلال عدد ضئيل من متاجر السوبر ماركت. ولذلك يثور السؤال: ما أثر ذلك على المنافسة؟ وكذلك على دورة صناعة الغذاء؟

وخلف كل هذه القضايا تكمن مشكلة أكبر هى أن إعادة الهيكلة التى تمت بشكل جذرى لدورة الغذاء لم يستتبعها تقوية الهياكل المفترض وجودها لحماية مصلحة الشعب. هناك علامات قليلة تنبىء بأن هناك تغيراً ما فى هذا الإطار. فمثلاً حكومة حزب العمال فى بريطانيا وضعت لجنة للمنافسة، وبدأت جماعات المستهلكين تنضم إلى التحالف الجديد الذى كونه صغار المزارعين ليكون معارضاً لنفوذ السوبر ماركت، كما أن المدافعين عن البيئة والنشطاء المدنيين يشكلون ضغطاً على الحكومة لكى تضطلع بشأن المؤسسات العملاقة.

إلا أن الذى يميز سياسة الغذاء هو أن المصنعين وتجار التجزئة يحصلون غالباً على ما يريدون. فسياسات الاندماج والسيطرة على السوق ترتحل تدريجياً من المحلى إلى العالمى، وسيكون من الصعب يوماً بعد يوم كسر هذه النزعة وفى الماضى، كان يتم ترويض هذا النفوذ من خلال الضغط الشعبى والجهود المتكاتفة من قبل جماعات الضغط العاملة لمصلحة المستهلك مثل الحركات الاجتماعية والعمالية والصحة والمحافظة. وكانت هناك مكاسب مهمة ونجاحات فيما يتعلق بالأمن الغذائى والمتاجرة اللاأخلاقية، لكن الاحتكار الضخم الذى يحدث الآن يمثل بكل تأكيد التحدى الحقيقى.■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

كيف يحيى الوطن العزيز؟

لم يأت على مصر حين من الدهر يشتغل فيه أبناؤها بحالها ومستقبلها مثل هذه السنين التى توالت فيها المصائب، وتعاقبت النوائب، وعرفنا حقيقة المقاصد الإنجليزية ضدنا وضد الوطن العزيز. وقد ذهب أبناء الوطن فى أمر مستقبله مذاهب شتى. فأصحاب العقائد الصحيحة والمبادئ القويمة يؤملون له مستقبلاً سعيدًا، وحياة طيبة لأنهم يعلمون أن الأمة المصرية هى أكثر الأمم استعدادًا للتقدم والترقى، وأن اليأس من المستقبل يأس من قدرة الخالق سبحانه وتعالى. ويرى غيرهم أنه قضى عليها إلى الأبد، وأن أبناءها ليسوا أهل إرادة ونشاط وذكاء.

ويرون أن الأمة المصرية مهما بلغت من إصلاح شئونها وترقية مدارك أبنائها لا تقوى على القوة الأجنبية المسيطرة عليها، ولا تجد سبيلاً للخلاص مما هى عليه، لما هو مشهور عن دولة الإنجليز من القوة والدهاء، بل يسخرون من كل العاملين على ارتقائه وإعلاء شأنه. فهم فضلاً عن تقصيرهم فى خدمة الوطن التقصير الأثيم، يعملون على تثبيط الهمم وإقعاد العزائم وفل العواطف المصرية وانتشار كلمات «موت المصريين» و«عدم فلاح المصريين» باعتقاد أن الأمة لا تعرف معنى الوطن والوطنية، آفة دونها كل الآفات وبلية تسهل بجانبها البلايا.

على أننا لو تصفحنا تاريخ مصر تجد أن أبناءها قاموا بأعظم الأعمال وبرهنوا على استعدادهم التام لكل تقدم وفلاح، وأظهروا فى ظروف كثيرة من الشجاعة ما حفظه لهم التاريخ فى صحائف بيضاء فكيف يدعى البعض مع ذلك أنهم أمة ميتة لا حراك بها وأنه يستحيل أن يوجد فيهم شعور وطنى صادق؟

حمى السوبر ماركت.. أعراض جانبية

جوانا بليتمان

■ أصبح التسوق فى السوبر ماركت متعة بحد ذاته ولم يعد كثير من المستهلكين يذهبون إليه مرة واحدة فى الأسبوع كما كانوا يفعلون قبل سنوات، بل تطور الأمر إلى زيارة يومية لشراء احتياجاتهم. هل يعنى ذلك أن هناك حالة عشق من جانب المستهلكين للتسوق؟

لقد أحكمت متاجر السوبر ماركت سيطرتها على سلة المشتريات فى المملكة المتحدة على سبيل المثال خلال خمسين عامًا فقط، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت المحال المستقلة هى التى تلبى طلبات المستهلكين وكان هناك ما يسمى بمساعد يقوم على خدمة المستهلكين. وفى الخمسينيات، كان هناك فقط عدد قليل لا يتجاوز المائة من متاجر السوبر ماركت ذاتية الخدمة. ومع منتصف الستينيات زاد العدد إلى ٢٠٠٠، واليوم هناك ما يقرب من ٤٥٠٠ سوبر ماركت، يتراكم فيها بشكل نمطى ما يتجاوز ٣٠ ألف مخزون سلعى مختلف وهناك أربع سلاسل ضخمة هى التى تتحكم فى السوق البريطانية وهى تيسكو، سانسبيرى، أسدا (ويملكها الآن متجر وال مارت العملاق الأمريكى) وسيف واى. وفى عام ١٩٨٥، كان هناك حوالى ٢٣ ألف محل جزارة. ومع حلول عام ٢٠٠٠ تبقى منها عدد لا يتجاوز ٩٧٢١ فقط. وفى العام الماضى كانت محال بيع الصحف والمجلات تتعرض للإغلاق بمعدل محل واحد فى اليوم. وفى أيامنا هذه، هناك فقط حوالى ١٥٪ من المستهلكين يستفيدون من المحال المتخصصة مثل محال الجزارة وتجار الأسماك وبائعى الخضر والفاكهة.

وهناك مجموعة من الظواهر ترتبط بإنشاء سوبر ماركت فى أى مكان من العالم وأهمها:

العمالة المؤقتة

فحتى لو كانت هناك عمالة دائمة إلا أنها تتسم بالندرة، وحسب دراسة بريطانية، فإن افتتاح سوبر ماركت جديد فى أحد التجمعات يعنى أن يفقد حوالى ٢٧٦ عاملاً وظائفهم على الفور.

البيع أقل من التكلفة

هناك دول مثل ألمانيا، أيرلندا، وفرنسا لديها قوانين تعارض هذا المفهوم، وذلك لحماية أصحاب المحال التجارية الصغيرة الذين لا يقوون على هذا النوع من المنافسة. وهناك نوع من السلع يسمى سلعاً معروفة القيمة مثل الخبز. لقد اكتشف أصحاب متاجر السوبر ماركت أن وعى المستهلك بسعر السلعة هو أمر جزئى وأن انطباعهم عن القيمة يتشكل بشكل كبير من خلال عدد قليل من الأصناف المعروفة يمكن القياس عليها. إن استراتيجية السوبر ماركت هى تخفيض الأسعار بشدة على تلك السلع وزيادة هامش الربح فى الوقت ذاته على أصناف لا يعرف أحد عنها شيئًا. هل لديك، على سبيل المثال أى فكرة عما يجب أن يكون عليه سعر العنب المزروع جنوب أفريقيا؟

ممارسات قسرية

هى نوع التعامل بين متاجر السوبر ماركت والموردين. وقد قامت لجنة المنافسة البريطانية بالتحقيق مع ٥٢ متجرًا فى عام ٢٠٠٠، وتضمن ذلك مطالبة السوبر ماركت الموردين بدفع فاتورة الحملات الدعائية التى تتخذ شعار «اشترِ واحدة واحصل على الثانية مجانًا»، أو دعوة الموردين للاشتراك فى أعمال خيرية لترويج سلعة ما دون موافقة المورد ثم مطالبته بدعم هذا العمل، بالإضافة إلى مطالبتهم بتقديم تخفيضات على السلع الرائجة مقابل ميزة وجود السلعة على أرفف تاجر التجزئة.

أسعار مختلفة للسلعة

إن المفهوم الرسمى هنا هو «لى عنق سعر السلعة، وهو ما يعنى أن سلسلة ما يمكنها أن تضع سعر بيع تجزئة مختلفاً لمنتج فى أى منطقة جغرافية. بكلمات أخرى، يمكن أن ينتهى بك الأمر إلى دفع مبلغ أكبر من المال من أجل شراء البطاطس فى مدينة ما، عما يمكن أن تدفعه إذا كنت تقطن فى مدينة أخرى،



حتى لو كنت تقوم بالتسوق من مجرد أفرع مختلفة للسلسلة ذاتها.

تبديد الطاقة

من خلال الفروع الدولية لمتاجر السوبر ماركت العملاقة. إن كيلو جراماً واحداً من التوت الأزرق الذى يتم استيراده بالطائرة من نيوزيلاندا ينتج الكمية ذاتها من انبعاث أكسيد الكربون والناجمة عن غلى وعاء بالماء لـ ٢٦٨ مرة.

المواقع الساخنة

يتنافس تجار التجزئة من أجل مواقع على الرف حيث تباع السلع بشكل أفضل، مثل تلك التى توازى مستوى النظر، أو تلك التى تقع فى منتصف أزقة السوبر ماركت، وعلى الموردين أن يدفعوا رسوماً خاصة للسوبر ماركت إذا أرادوا أن تعرض بضاعتهم فى هذه المواقع البارزة.

قلة المنتج المحلى

قامت جمعية أصدقاء الأرض البريطانية بفحص أرفف متاجر السوبر ماركت فى أوج موسم التفاح فى بريطانيا عام ٢٠٠٢، وقد وجدت أن أكثر من نصف كمية التفاح المعروضة للبيع واردة من الخارج. الاستثناء الوحيد كان لدى ماركس آند سبنسر، حيث كانت نسبة تقدر بـ ٥٦٪ هى من التفاح البريطانى.

ضمان إرجاع السلعة

إذا لم يرض العميل عن البضاعة التى قام بشرائها فمن حقه إرجاع السلعة. ولكن من يدفع الفاتورة؟ إن المورد هو من يقوم بدفعها مع فاتورة إضافية لإصلاح هذا المنتج. حينما يستعيد المستهلك أمواله، فإن المنتج يصبح ما يطلق عليه «مرتجع للمصنع». لقد أفضت «أسدا» للجنة المنافسة فى عام ٢٠٠٠ بأنها ألزمت مورديها بدفع ٤٠ جنيهاً إسترلينياً لتغطية تكاليف التعامل مع أى شكوى مقدمة من مستهلك ما فى أحد فروع أسدا. وذكرت سيف واى أنها عوضت المستهلك ثم طالبت المورد بدفع ما بين ٢٠ . ٢٥ جنيهاً استرلينياً لكل شكوى.

هوامش الربح الكبيرة

وهى مرادف لأرباح تجار التجزئة فى المملكة المتحدة بالنسبة للمنتجات الغذائية وتعد أعلى من مثيلتها على مستوى القارة الأوروبية. وفى مقارنة مفصلة قامت بها لجنة المنافسة فى عام ١٩٩٩، وجدت أن تجار التجزئة فى المملكة المتحدة قد حققوا أرباحاً تصل إلى ٢٥,١٪ فى مقابل ٢٢,٩٪ لنظرائهم خارج المملكة. وفى العام ذاته كانت أسعار الفاكهة فى المملكة المتحدة أعلى بنسبة تتراوح ما بين ١٢ . ١٦٪ فى مقابل أسعارها فى فرنسا، ألمانيا، وهولندا.

سوبر ماركت
ذاتى الخدمة

بدأت ذاتية الخدمة فى الظهور فى المملكة المتحدة منذ الخمسينيات من القرن الماضى فصاعداً، وحرصاً على أن ينظر إليها بشكل عصرى بالمقارنة بمحال البقالة التقليدية، لجأ سينسبرى فى عام ١٩٦٣ إلى مصمم أزياء هاردى أميز لعمل بزات ذات لون أزرق فاتح للمساعدات العاملات بالمتجر أو اللاتى يطلق عليهن فتيات الجوندولا، والجوندولا هى العربة الخاصة بحمل المشتروات داخل المتجر.

الخدمات الإضافية

وهى استراتيجية تلجأ إليها محلات السوبر ماركت لجذب المزيد من العملاء من المتاجر الأخرى والمحال الصغيرة، وهى عادة خدمات لا تتعلق بالخدمة الغذائية، مثل التأمين على الحيوانات الأليفة، الرهن العقارى، أجنحة خاصة بالترفيه، خدمات الإنترنت، الصيدليات، خدمات خاصة لقياس ضغط الدم والسكر، مراكز لطبع وتحميض الأفلام، بيع الذهب، نظارات طبية، وخدمات التجميل.■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

اتحاد كلمة المسلمين

يشتغل رجال السياسة والأقلام فى أوروبا كثيراً بأمر المسلمين وما يدور بينهم من الأحاديث فى شئون بلادهم وتأخرها واستيلاء الأجانب عليها. وقد ملأ كتاب أوروبا الدنيا بصراخهم ضد الإسلام والمسلمين ونادوا فى كل واد بالويل والثبور وهولوا فى الأمر حتى ظن أهل أوروبا قاطبة أن الإسلام كله مجتمع حول لواء واحد للأخذ بالثأر واسترداد أملاكه من أيدى الدولة الأجنبية.

والذى يطالع كتابات هؤلاء الكاتبين ولم يكن رأى الشرق وأهله وعرف مقدار سوء معاملة أوروبا لأبناء الإسلام يظن لأول وهلة أن المسلمين قوم متوحشون، وأنهم ناكرون لجميل أوروبا عليهم أقبح نكران. على أننا لو ناقشنا أوروبا الحساب وجدناها جنت على الإسلام والمسلمين، بل جنت على العالمين أكبر الجنايات المعنوية. فمم يشتكى المسلمون؟ نشتكى معاشر المسلمين من أن أوروبا المتمدنة لا تعاملنا كما يجب أن يعامل بنو الإنسان. نشتكى من أنها دخلت بلادنا بدعوى الإصلاح فأفسدت، ونشر المدنية فأعادت همجية العصور الأولى، نشتكى من أنها تكرهنا كراهية دينية شديدة، وهى المنادية بمبادئ العدل والحرية والمساواة، نشتكى من أنها تقصد إبادتنا كما تباد الحيوانات الضارة، وكما أبيد الهنود من أمريكا وهم أصحاب البلاد الأولون، نشتكى من كل أعمال التمدن والمدنية، وبودنا لو كنا غير شاكين هذا ما نشتكى منه، فمم تشتكى أوروبا؟ أتشتكى من أننا سلمنا إليها بلادنا ووثقنا بأقوالها ووعودها؟ أتشتكى من أنها سادت علينا بإرادتنا وهضمت حقوقنا واستنزفت أموالنا، وضيقت علينا فى حياتنا؟

ظاهرة رياضية واجتماعية

الأهلى والزمالك

حسن المستكاوى

■■ يقول أساتذة الدراما: «إن مفتاح الدراما القوية التى تشد أنظار المتفرجين وتحبس أنفاسهم، هى التى يتخاصم فيها طرفان على مستوى واحد من القوة ووجود أى طرف ثالث يشتت انتباه المتفرج ويصب ماء بارداً على الصراع الساخن».

ومنذ قرابة المائة عام تعيش كرة القدم المصرية والعربية ظاهرة الأهلى والزمالك، التى تشد أنظار المتفرجين وتحبس أنفاسهم، كلما التقيا فى مباراة.. وكان يقال إن القاهرة ترتجف فى مباريات القمة، وأن الأمن يستريح بانتهاء اللقاء بالتعادل حتى لايغضب أحد الجمهورين، وهى فى جميع الأحوال بطولة خاصة يحسب فيها كل معسكر عدد مرات فوزه، وعدد الأهداف التى سجلها، وتشهد بعض المباريات أزمات عنيفة، وتشهد مباريات أخرى انتصارات مدوية لطرف على طرف فتعيش القاهرة مظاهرات فرح صاخبة. وقد تداول المصريون هذه النكتة فى السبعينيات وهى أن خرتشوف رئيس الوزراء السوفيتى كان فى زيارة للقاهرة، وتصادف أن انتهت مباراة بين الفريقين الكبيرين بفوز الأهلى، فانتشرت جماهيره رافعة الرايات والأعلام الحمراء فى الطرقات والميادين والشرفات، فألقى خرتشوف نظرة فاحصة تلتها ابتسامة وقال لمرافقيه: لم أكن أعرف أن الشعب المصرى سعيد بزيارتى لهذه الدرجة.

فقيل له: السيد رئيس الوزراء.. الشعب المصرى سعيد بفوز الأهلى على الزمالك!

ومثل الدراما المحبوكة، تتصاعد الأحداث، وتتوتر الأعصاب عندما يشتد الصراع وتكون كفتا القطبين متساويتين فى القوة. وأعتقد أن فترة الستينيات من القرن العشرين شهدت أقصى درجات المنافسة والصراع بين الأهلى والزمالك لأسباب رياضية واجتماعية وسياسية عديدة. وقد جسد الفن هذه الصورة عندما ترنمت الفنانة صباح، وترنم معها ملايين المصريين بأغنية: «بين الأهلى والزمالك.. محتارة والله».. وكانت مصر فى ذلك الوقت تبدو وكأنها تعيش هذه الحيرة، فجماهير كرة القدم منقسمة بين الناديين، ونجوم ومشاهير المجتمع فى الفن والأدب والسياسة والصحافة، حائرون بين الاثنين.. الأهلى والزمالك.. وأصبحت هذه الأغنية نشيداً كروياً يعزف كلما وقعت مواجهة بين الفريقين!

وفى يوم من أيام الستينيات كان أبى نجيب المستكاوى - رحمه الله - عائداً إلى المنزل فى المعادى بسيارة تاكسى، وعندما عرفه السائق، التفت إليه وسأله: أنت أهلاوى ياكابتن؟

فقال أبى: لا .

عاد السائق وقال: أكيد أنت زملكاوى؟!

فقال أبى: لا .

وهنا أوقف السائق السيارة واستدار وقال متعجباً : «إيه يا كابتن.. حضرتك خواجة مش من البلد دى»؟!

وعكس كلام السائق حالة الشارع الكروى المصرى، فكل من لاينتمى إلى الأهلى أو الزمالك يعتبر غريبا وأجنبياً عن مصر!

النصر السعودى يستبدل هلال المئذنة بلفظ الجلالة!

والأهلى والزمالك ظاهرة عربية وعالمية، وقد تفاوتت حدتها من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة. ففى السعودية هناك النصر والهلال، وهما كبيرا العاصمة الرياض، لكن فى جدة نجد منافسة تقليدية بين الاتحاد والأهلى. وفى المنطقة الشرقية الاتفاق والشباب. وعن طبيعة وشدة المنافسة بين الهلال والنصر رويت لى هذه الرواية: «عندما قرر نادى النصر إنشاء مسجد فى مقره، واجهت إدارة النادى مشكلة، وهى كيف يوضع الهلال على رأس مئذنة المسجد؟!.. وكان الحل أن يستبدل هلال المئذنة بلفظ الجلالة الله. وقد وجد النصراويون أنه من الصعب أن يكون هناك أى هلال من أى نوع داخل مقر النادى!

ويضيف صاحب هذه الرواية: «أن الأمير عبدالله بن سعد - رحمه الله - والرئيس الأسبق لنادى الهلال، رفض أثناء إقامته فى الولايات المتحدة الأمريكية، استخدام لوحات معدنية لسيارته فى الولاية التى يقيم بها، لأن اللوحات بلونى النصر: الأزرق والأصفر، وقد تعرض لدفع غرامات ومخالفات مالية بسبب ذلك!

وظاهرة الأهلى والزمالك موجودة فى الأردن بين الوحدات والفيصلى، وكثير من المشاكل تحدث فى لقاءات الفريقين، وترجع جذور الخصومة بين الوحدات والفيصلى إلى أسباب اجتماعية وسياسية، إذ أن الوحدات يمثل فى الأصل مخيماً فلسطينياً، والفيصلى يمثل الجذور الأردنية.

لكن قد تختلف أسباب الخصومة فى بلد آخر مثل قطر، وهى بين السد والريان، والأول هو النادى الذى ينتمى إليه النخبة من الشيوخ والأسرة الحاكمة وكبار رجال الدولة، والثانى يعتبر نادياً شعبياً . وفى سوريا كانت المنافسة حتى وقت قريب بين فريقى الجيش والشرطة، وأن يكون التنافس بين هذين الفريقين مماثلاً لما بين الأهلى والزمالك، فلا غرابة فى ذلك!

والقطبية الرياضية، أو ظاهرة الأهلى والزمالك موجودة أيضاً فى اليمن، وتعبير القطبية للزميل عبدالله الصعفانى الذى كتب مقالاً فى جريدة الرياضية السعودية قال فيه: «من الواضح أن القطبية فى عالمنا تحولت إلى مشكلة تعكس ظلالها على كل شىء، فكلنا يعرف كيف يهتز الشارع الرياضى فى مصر، وتلتهب البيوت والمقاهى عندما يلعب الأهلى والزمالك. ويضيف: إن أندية كثيرة فى بلادنا العربية انشغلت بالقطبية، وبظاهرة التنافس التقليدى بين الغريمين فى كل مدينة. وعندنا فى اليمن تلتهب الأجواء بين الوحدة والأهلى، وكلاهما من فرق العاصمة، وعندما يلعبان مباراة ضمن الدورى الممتاز، تبرز العناوين والتحليلات التى تقول أن المباراة تساوى بطولة بذاتها، وأن التقليدية فى اللقاء تتطلب حكاماً على مستوى عال، ورقابة اتحادية على درجة عالية، ومتابعة أمنية مركزة، ولا يبقى إلا المطالبة بنوعية خاصة من الجمهور مع تحديد أسماء إعلامية متميزة للقيام بواجب التغطية الصحفية. ومثل هذا الوضع يتكرر عندما تلتقى أندية مثل التلال والوحدة فى عدن، قبل سقوط الأخير، وأيضاً الجيل والأهلى فى الحديدة قبل سقوط الأول.

ونترك اليمن.. إلى العراق، حيث يعتبر الزوراء والشرطة مثل الأهلى والزمالك. وفى سلطنة عمان هناك النصر والعروبة. وفى الإمارات العين والشارقة أو الوصل.

وفى تونس الصراع والقطبية والخصومة بين الترجى والأفريقى، وهى تصل إلى حد أن جماهير الترجى قد تساند أى فريق خارجى وهو يلعب ضد الأفريقى فى تونس، ونفس الأمر يسير على جماهير الأفريقى. وفى

نفس الأمر يتكرر فى الكويت، وإن كان كاظمة والقادسية يمثلان الأهلى والزمالك، ودخل بينهما فريق السالمية. أما فى البحرين، فالقمة تكون بين الرفاع الغربى والمحرق.

... وســـــيـاســـيـة !



المغرب تكون القمة بين الجيش الملكي والوداد.

وطبعا أنت تعرف الموقف في جنوب الوادي، في السودان فهناك أهلي وزمالك فعلا، أو الهلال والمريخ، ويعتبر الهلال هو أهلي السودان، أما المريخ فهو زمالك السودان، وفي لبنان يعتبر فريقا الأنصار والنجمة الإخوة الأعداء وهما أهل القمة هناك، ومثل الكثير من مباريات القمة في الوطن العربي، تشهد مباراة الأنصار والنجمة ترتيبات أمنية خاصة بسبب شدة التنافس.

وإذا كان الأهلي والزمالك ظاهرة مصرية وعربية من جهة التنافس والخصومة، فإن للناديين الكبيرين جماهير عريضة في الدول العربية، وقد قال محمد بن جالون مؤسس نادي الوداد المغربي: كانت لقاءات الأهلي والزمالك بالنسبة لنا منشورا وطنيا يبث فينا روح العروبة التي حاول الاستعمار الفرنسي قتلها، بالضبط كما كانت أم كلثوم هي الوسيلة الوحيدة التي كنا نعلم أولادنا منها النطق الصحيح لكلمات اللغة العربية بعدما فرض علينا المستعمر نسيانها.

وقال محمد بن قاسي المزاوي أحد المؤسسين لنادي مولودية الجزائري: الأهلي والزمالك وراء تأسيس الأندية الجزائرية بشكلها العصري مثلنا مثل كل البلاد العربية الأخرى.

وفي البلدين الشقيقين كانت كرة القدم شأن العديد من الدول العربية مازالت اللعبة في مهدها، وتشهد مرحلة البدايات بينما هي في مصر لعبة قديمة وعريقة تعود إلى مطلع القرن العشرين.

وفي فترة الستينيات كانت مصر قبلة الحضارة والثورة والسياسة والفن والرياضة في الشرق برئيسها جمال عبد الناصر وموسيقارها محمد عبد الوهاب ولاعبها صالح سليم!

رسالة دكتوراه في السوريون عنوانها: الأندية فكرة سياسية إطارها رياضي!

ويؤكد الباحث محمد سالم منصور الذي أعد رسالة دكتوراه في جامعة السوربون عن موضوع: «الأندية فكرة سياسية إطارها رياضي وعنوانها وطني»: بأن سر التفاف الجماهير العربية حول الأهلي هو نشأته الوطنية، وأن الزمالك خسر بسبب نشأته الأجنبية في السنوات الأولى من عمره، وعوضها بدءاً من مرحلة الستينيات!

وهناك توزيع شبه معروف لجماهيرية الأهلي والزمالك في الدول العربية، فالسعودية والكويت وقطر والسودان والأردن والمغرب والإمارات يشجعون الزمالك، وفي سوريا وتونس ولبنان والبحرين والعراق والجزائر وليبيا يشجعون الأهلي، ومن أهم أسباب شعبية الناديين في الدول العربية ريادتهما، فلم تعرف الكثير من دول المنطقة - لاسيما الخليج - كرة القدم على المستوى التنافسي بينما كانت المنافسة على أشدها بين الأهلي والزمالك في الستينيات فجذبت أنظار الملايين من الشرق والغرب العربي!

والعالم أيضاً فيه ظاهرة القطبية أو ظاهرة الخصومة والندية والمنافسة، مثل برشلونة وريال مدريد في أسبانيا، ومانشيستر يونايتد ومانشستر سيتي، ويوفنتوس وميلان في ايطاليا واياكس وايندهوفن بهولندا، وباناثيناكوس واوليمبياكوس باليونان، ومرسيليا وموناكو بفرنسا، وسلتيك ورينجرز باسكتلندا، وساوباولو وسانتوس بالبرازيل، وريفربلات وبوكاجونيورز بالأرجنتين، وبايرن ميونيخ وهامبورج في ألمانيا.

ولكن قاعدة المنافسة في معظم دول العالم متسعة، إذ تظهر بين الحين والحين الفرق الشابة الجديدة التي تنافس الفرق الكبيرة على البطولات، وليس كما هو الحال في مصر، السباق دائما بين الأهلي والزمالك، من كرة القدم إلى تنس الطاولة، باستثناء فترات نادرة ولعبات محدودة ظهر فيها الأوليمبي أو الإسماعيلي والترسانة، ويكفي أن الأهلي فاز بالدوري ٢٩ مرة والزمالك ١٠ مرات مقابل ثلاث مرات للإسماعيلي ومرة واحدة لكل من الأوليمبي وغزل المحلة والترسانة والمقاولون!

وفي الفترة التي تلت الثورة، تحولت ظاهرة الأهلي والزمالك وزادت حدتها، وتخطت حدود الرياضة، كما قال الكاتب اللبناني سليم اللوزي مؤسس مجلة الحوادث: إن الأهلي والزمالك هما الحزبان الوحيدان في الوطن العربي.

وهو نفس ما كتبه د. يوسف إدريس في واحدة من مقالاته السياسية إذ قال: إن الأهلي والزمالك هما الحزبان السياسيان الوحيدان في مصر!

وفي يوم من الأيام كتب الأديب الدكتور حسين فوزي الذي اشتهر بلقب السندباد

الأهلى  والزمالك



حدة التعصب للأهلى والزمالك زادت بصورة واضحة بعد قيام ثورة يوليو، حيث بدأت الجماهير تتحزب إلى الناديين بعد إلغاء الأحزاب وظهور فراغ سياسى

المصرى، كتب فى الأهرام: «إن جمهور الكرة عموما ظاهرة اجتماعية، وإن موت الأحزاب عندنا وحاجة الناس إلى شىء يتحزبون له وراء ظاهرة كرة القدم فى مصر»!

والواقع أن حدة التعصب للأهلى والزمالك زادت بصورة واضحة بعد قيام ثورة يوليو، حيث بدأت الجماهير تتحزب إلى الناديين بعد إلغاء الأحزاب وظهور فراغ سياسى، وكانت الأحزاب قبل الثورة. لها وجودها المؤثر فى الشارع خاصة أن قضية الاحتلال والاستقلال كانت مطروحة، وكانت مقاومة الإنجليز، قضية الحركة الوطنية المصرية الأولى منذ مطلع القرن العشرين.

وإذا كانت كرة القدم درساً فى العمل والأمل والحياة والحرية، فإنها أيضاً درس فى تجسيد الانتماء. والمبالغة فى الانتماء هو التعصب، وقد كتب ذات مرة الصحفى الكبير صلاح حافظ عن الأهلى والزمالك وقال: جماهير الكرة فى مصر وفى خارج مصر تميل دائماً إلى اقتصار المنافسة بين قطبين، وتكره أن تكون بين أقطاب متعددة، وليست هذه حقيقة مصرية وإنما عالمية. فى جميع صورها. لا يبلغ قمة الإثارة إلا عندما يكون بين طرفين.

واسألوا الذين ينظمون مباريات الملاكمة أو المصارعة أو التنس ويرتزقون منها، فهم سيقولون صراحة إن سحر هذه المباريات وسر جاذبيتها يكمن فى أنها تجرى بين طرفين لا بين أطراف متعددة، ولو راقبنا الدعاية التى تسبق أى مباراة ملاكمة كبرى لوجدناها تنصب على تأكيد قوة كل من الطرفين، وعلى نشر ما يقوله كل منهما على الآخر، وعلى تأكيد كل طرف أنه هو الذى سيفوز!

ويضيف الأستاذ صلاح حافظ: وهذا فى اعتقادى السبب فى إصرار الشعب المصرى على ألا يكون له فى عالم الكرة غير قطبين: (أهلى وزمالك). يبزغ نجم جديد، كالاسماعيلى ويسرق الكاميرا منهما ويظهر المقاولون مرة كأنه غول. ويزحف المحلة كأنه حرير، ويتدهور الأهلى أحياناً ويكاد يستجدى تسجيل هدف، ويتدهور الزمالك أحياناً حتى يكاد يستحق (معاش السادات). لكن الجماهير ترفض أن تعترف بغيرهما، لا حبًا فيهما، ولكن حبًا فى متعتها وإصرارها على أن تتفرج على الصراع بين قطبين لا ثالث لهما حتى لا تحرم نفسها من الاستمتاع بدراما ساخنة.

ودراما الأهلى والزمالك إذن من صنع الجمهور، لا من صنع الناديين. والأهمية الخارقة التى تتمتع بها مباريات الفريقين ليس لها سبب رياضى مقنع، وإنما هى شىء صنعه الجمهور ليمتّع نفسه. وصاحبها ليس اللاعبون، وإنما المتفرجون. وهؤلاء المتفرجون لا يلعبون أصلاً، ولكنهم يدفعون لكى يلعب الأهلى والزمالك وهم جالسون، ولكى يتهيأ لهم مناسبة ساخنة يلهثون فيها دون أن يتحركوا، وفرصة يعاير فيها بعضهم البعض بانتصار لم يشاركوا فيه. ومناسبة يعيشون بعدها أسابيع وربما شهوراً يتجادلون فيها حول أهداف لم يسجلوها، وأخطاء حسبها الحكام ظلماً ضدهم وهم فى المقاعد.

مهرجان سنوى من صنع المتفرجين، هم الذين يستمتعون به، وهم الذين يختارون القطبين المتصارعين فيه، وحتى الآن لم يقع اختيار المتفرجين على قطبين غير الأهلى والزمالك، وليس لأحد أن يعترض على اختيارهما ما داموا هم الذين يدفعون، ومادامو يُخرجون فى النهاية العداء.

وينتهى هنا المقال الذى كتبه الأستاذ صلاح حافظ فى تفسير ظاهرة الأهلى والزمالك.

ومنذ قرابة الـ ٣٠ سنة، لفت أنظار علماء النفس والاجتماع سلوك جماهير الكرة، وأعصاب جماهير الكرة. وقد توصل علماء النفس فى مصر عام ١٩٧٠ إلى أن كرة القدم متنفس حقيقى لمشاعر الناس وانفعالاتهم. وهذا المتنفس قد يأخذ صورة حية، وقد يأخذ العكس!

ووصف الدكتور يحيى الرخاوى تشجيع الناس للكرة بأنه كالتعبير عن الانتماء ومظهر له، فالإنسان لابد أن ينتمى إلى أشياء معينة أحياناً بإرادته وأحيانًا أخرى على الرغم منه، فهو ينتمى إلى أسرة ثم مدرسة ثم عمل ثم أسرة جديدة، وهو منتم إلى وطن وإلى نقابة وإلى ناد. وجمهور الكرة يشعر بدافع الانتماء ويجد مجالاً فى تشجيع نادٍ معين والتحمس له، وعندما يختلط بناديه ومشجعيه ويصبح ممثلاً له متقمصاً لشخصيته، يفرح بانتصاره، لأنه يشعر بأنه انتصار له هو فى النهاية.

ومما لاشك فيه أن نجاح ناد فى كسب بطولات متتالية هو أكبر حافز لمشجع الكرة على الانتماء إليه، فالمشجع فى هذه الحالة يضمن مكاسب نفسية ترضيه. ثم يأتى بعد ذلك عامل مهم للانتماء إلى هذا النادى أو ذاك، وهو حجم الجمهور الذى يشجعه. فإن المزيد يجذب المزيد، ومادام الانتماء هو الهدف الأول من القرن العشرين.

ويؤكد الأطباء النفسيون أن مشاهدة مباريات الكرة لها هدف، فهى عملية إثارة للتوتر وربما تفريغ له. وهذا يكون مفيدا إذا كان فى حدود معينة. لأن الإنسان فى حاجة دائما إلى التمرد على القيود وإلى التصرف الانفعالى المنطلق!

والصراع بين الناديين يختصر تاريخاً طويلاً من الحكايات الرياضية والاجتماعية والسياسية، فليست مباراة الأهلى والزمالك مجرد معركة بين ٢٢ لاعباً يركلون بالونة منفوخة، ولا يمكن التعامل مع كرة القدم على أنها مجرد لعبة رياضية، لأن تاريخ الأندية فى العالم يرتبط بصورة ما بصراعات سياسية واجتماعية ودينية أيضاً. فعلى سبيل المثال عندما منح الملك ألفونسو الثالث فى عام ١٩٢٠ لقباً ملكياً إلى ريال مدريد فسر ذلك فى مقاطعة كاتالونيا على أنه تحيز إلى ريال مدريد كما استمر ذلك فى أيام حكم الجنرال فرانكو الذى استغل الشعبية العريضة للنادى فى الدعاية لحكمه. وكانت مقاطعة برشلونة خلال الحرب الأهلية الأسبانية فى الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ معارضة لحكم فرانكو واستخدم سكان برشلونة اللغة الكاتالونية خلال مباريات الفريق فى نوكامب للتعبير عن هذه المعارضة!

وأحياناً أخرى تكون الخصومة بين فريقين فى شعب واحد لأسباب دينية، ففى عام ١٩٤٨ فى أيرلندا الشمالية فى مباراة بين فريق بلفاست سيلتيك ذى الأغلبية الكاثوليكية وفريق لينفيلد الذى تشجعه أغلبية بروتستانتية وقع شغب دينى وسقط الجرحى، ونفس الأمر فى إسكتلندا بين سيلتيك الكاثوليك ورينجرز البروتستانت، وقد تكون المنافسة والخصومة بين فريقين فى مدينة واحدة مثل ميلان فى إيطاليا أو مانشستر فى إنجلترا، فهناك منافسة بين فريقى المدينة الواحدة مانشستر، وهذه المنافسة ليست بسبب السياسة أو الدين أو صراع الغنى والفقر أو السلطة كما هو الحال فى العديد من المنافسات بين أندية أخرى، ولكنها منافسة الجذور الاجتماعية أو طبقة عمال السكة الحديد التى يمثلها مانشستر يونايتد وطبقة الموظفين التى يمثلها مانشستر سيتى!

قصة تأسيس الناديين..
وحسين بك حجازى
من أسباب الخصومة
بين الأهلى والزمالك!

وقد كانت قصة تأسيس الأهلى والزمالك من أسباب الخصومة الرئيسية بين الناديين وجماهيرهما فى مصر والوطن العربى. ففى مطلع القرن العشرين كانت مصر تعانى من الاحتلال البريطانى وكانت تحت حكم الخديو عباس حلمى الثانى الابن البكر للخديو توفيق، وكان عدد سكان مصر ١١ مليونا، وعدد سكان القاهرة أقل من ٧٠٠ ألف، وكان مصطفى كامل يقود الحركة الوطنية المصرية، ورغم أن القاهرة كانت عاصمة النور فى الشرق، فلم تكن مصر تعرف السينما فى مطلع هذا القرن، ولا تعرف الإذاعة، ولا تعرف الطائرة، ولا تعرف





التلغراف، ولكنها عرفت الأندية الرياضية، ففى عام ١٩٠٣ تأسس نادى هوكى بولاق (السكة الحديد)، ونادى النجمة الحمراء الذى أصبح نادى الموظفين ثم الأولمبى السكندرى وتأسس عام ١٩٠٥، وعدة أندية أخرى انتشرت فى العاصمة وفى مدن القناة، وكانت كل هذه الأندية للجاليات الأجنبية ولموظفى بعض الهيئات، وكبار رجال الدولة.

وتأسس النادى الأهلى فى أبريل عام ١٩٠٧، تحت اسم (النادى الأهلى للألعاب الرياضية) وكانت عضويته موجهة أصلاً لطلبة المدارس العليا وهم وقود الحركة الوطنية التى كان يقودها مصطفى كامل فى مطلع القرن العشرين. والواقع أن الكثيرين اختلط عليهم الأمر بشأن الاسم الذى تأسس به الأهلى، فقيل إنه (منتدى طلبة المدارس العليا)، وسبب هذا الخلط أن الهدف من تأسيس الأهلى فى مطلع القرن كان جعله المنتدى الذى يلتقى فيه طلبة المدارس العليا، حسب ما جاء فى رواية عبد الخالق ثروت باشا رئيس الأهلى فى جمعيته العمومية التى عقدت يوم ٦ فبراير عام ١٩١٩ وقد تغير اسم الأهلى فيما بعد، وتحديداً فى عام ١٩٠٨ واختير اسم: (النادى الأهلى للرياضة البدنية) لأن الرياضة البدنية أعم وأشمل من عبارة الألعاب الرياضة. وكان ذلك باقتراح من أمين سامى باشا عضو مجلس ادارة الأهلى فى ذلك الوقت. ومازال الأهلى يحتفظ بهذا الاسم.

وكان عمر لطفى بك هو صاحب فكرة إنشاء النادى الأهلى، وكان محامياً وصديقاً للزعيم مصطفى كامل، ورئيسا لنادى طلبة المدارس العليا الذى تأسس عام ١٩٠٥.

وبعد ٤ سنوات، عام ١٩١١ تأسس نادى الزمالك، تحت اسم (نادى قصر النيل) وتغير اسمه ثلاث مرات، ففى البداية حين أسسه المستشار القضائى البلجيكى مرزباخ، الذى كان رئيسا لإحدى المحاكم المختلطة كان الاسم هو نادى قصر النيل، بسبب موقعه، فقد اختارت مجموعة المؤسسين وهم من البلجيك والألمان ضفة نهر النيل فى مواجهة نادى الجزيرة، وكان بجوار مقر النادى واحد من أكبر معسكرات الاحتلال البريطانى فى الشرق الأوسط وأفريقيا واسمه (ثكنات قصر النيل) ومكانه الآن فندق هيلتون النيل وجامعة الدول العربية. وقد اختار مرزباخ الاسم الأول نادى قصر النيل، بسبب وجوده بجوار ثكنات الإنجليز، ولأن المساحة كانت محدودة وضيقة ومرزباخ يسعى لتطوير النادى، فقد قرر نقل النادى إلى مكان آخر، وحصل باتصالاته وعلاقاته على مساحة كبيرة من الأراضى تشغلها الآن مبانى دار القضاء العالى المطلة على شارع رمسيس و٢٦ يوليو،ومعها مبنيا نقابتى المحامين والصحفيين. وانتقل النادى إلى المكان الجديد وتغير اسمه إلى نادى (المختلط) نسبة إلى اسم المحاكم المختلطة وكانت هذه المحاكم نوعاً من القضاء الخاص أنشأه الانجليز فى مصر للنظر والفصل فى المنازعات القضائية المدنية والجنائية بين الاجانب المقيمين فى مصر، وبعضهم البعض من ناحية، وبين هؤلاء الأجانب والمصريين من ناحية أخرى. وأصبح الاسم (المختلط) فى عام ١٩١٣، ثم تحول إلى فاروق عام ١٩٤٤، ولم يكن السبب فى تغير هذا الاسم (مكان جديد) طبعا، إنما مباراة تألق فيها الزمالك وهزم الأهلى ٦/صفر وجرت بملعب اتحاد القوات المسلحة بالقبة وكان يحضرها الملك فاروق، ومن فرط إعجاب الملك بأداء الزمالك فقد قرر أن يسميه نادى فاروق، هذا علماً بأن ملعب النادى الأهلى بالجزيرة فى ذلك الوقت كان يسمى ملعب فاروق أيضا!

المهم أن التغير الأخير الذى طرأ على اسم الزمالك كان بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، ومازال الاسم قائما حتى الآن. ولاشك أن النشأة الأجنبية للزمالك أثرت على تفسير المنافسة بين الناديين الكبيرين على أنها صراع بين الوطنية والاستعمار، واستثمر الأهلى، بصورة ما، هذا التصور، وعززه لجلب المزيد من الأنصار من خلال آلته الإعلامية القوية فى مصر والوطن العربى!

ونعود إلى الأهلى، فقد كان رئيسه الأول انجليزياً، ويدعى ميتشل أنس، ويعمل مستشارا فى وزارة المالية، وقد استقال من رئاسة الأهلى عام ١٩٠٨ بعد تعيينه سفيراً لبلاده فى واشنطن، وكان عزيز عزت باشا أول رئيس مصرى للنادى الأهلى بدءا من أبريل ١٩٠٨ حتى فبراير ١٩١٦، لكن أهم رئيس فى تاريخ الأهلى هو أحمد عبود باشا؛ رجل الاقتصاد الذى أمضى قرابة ١٥ عاما فى منصبه وقدم خلال تلك الفترة ٤٠ ألف جنيه من ماله الخاص لتمويل مشروعات النادى، وفى عهده أنشىء حمام السباحة والملعب الرئيسى لكرة القدم كما رسم خريطة مقر النادى بالجزيرة أما الرئيس الأول للزمالك فهو بطبيعة الحال البلجيكى مرزباخ، والرئيس الثانى كان فرنسيًا ويدعى بيانكى، أما أول رئيس مصرى لنادى الزمالك فهو حيدر باشا وتولى المهمة عام ١٩٢٣ وظل لمدة ٢٣ عاما رئيسا للنادى وكان بحكم منصبه كوزير للحربية من مصادر قوة الزمالك، وهو قائد الحركة الرياضية المكثفة للنادى فى سنواته الأولى، ويعد أهم وأبرز رؤساء الزمالك على مدى تاريخه.

كان عزيز عزت باشا أول رئيس مصرى للنادى الأهلى بدءا من ١٩٠٨ حتى ١٩١٦، أما الرئيس الأول للزمالك فهو البلجيكى مرزباخ، أما أول رئيس مصرى لنادى الزمالك فهو حيدر باشا وتولى المهمة عام ١٩٢٣

جذور ألوان

الأهلى والزمالك

وقد استمد الأهلى لون فانلاته الحمراء من لون علم مصر، وقد كان هو العلم العثمانى فى فترة حكم الخديو عباس حلمى الثانى، الذى يتوسطه الهلال وفى قلب الهلال نجمة. وكانت ألوان الفانلات حمراء مقلمة طوليا باللون الأبيض، ثم تطورت إلى فانلات نصفها أحمر ونصفها أبيض، ثم إلى فانلات لونها أحمر قانى بحروف بيضاء. وكان شعار النادى مزينا بتاج الملك، وهو رمز الحكم، فى الطرف الأعلى، وفى الطرف الأسفل كتب اسم الأهلى، وفى الوسط النسر المحلق. أما الزمالك فقد اختار اللون الأبيض، لأنه لون السلام، وكانت الفانلات لها ياقة حمراء فى البداية، واستبدلت بخطين أحمرين على الصدر، باعتبار اللون الأحمر يرمز إلى الكفاح فى سبيل النصر، أما شعار النادى فهو عبارة عن رامى السهم فى زى فرعونى، والسبب فى اختيار هذا الشعار هو أن رامى السهم كالنادى تماما كلاهما له هدف، والزى الفرعونى مستمد من المنطقة، أو من محافظة الجيزة، التى تحتضن أعظم أثر فى العالم، وهو أهرامات الجيزة العجيبة الوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع القديمة.

تلك باختصار شديد، نبذة عن بداية الأهلى والزمالك، ولون كل فريق وشعاره، ولكن ماذا عن فريقى كرة القدم فى الناديين، ومتى التقيا لأول مرة؟ وكيف ولدت الخصومة بينهما؟!

تأسس فريق لكرة القدم فى النادى الأهلى عام ١٩٠٩، وتأسس أول فريق لكرة القدم فى نادى الزمالك عام ١٩١٣، ولكن أول لقاء بين الفريقين كان وديا، وذلك يوم ٩ فبراير عام ١٩١٧ وفاز الأهلى ١/ صفر. وفى ٢ مارس من نفس العام لعب الفريقان مباراة على أرض الأهلى بالجزيرة وفاز الزمالك ١/ صفر ومنذ ذلك الوقت التقى الفريقان عشرات المرات فى الدورى وفى الكأس، وحتى فى بطولة كأس السوبر الأفريقية، وفى حب مصر أيضاً.

كانت المباريات الساخنة بين الفريقين من أسباب ترسيخ القطبية التى بدأت فى الواقع عام ١٩١٤ ففى ذلك العام عاد حسين حجازى إلى مصر بعد أن لعب لنادى فولهام الإنجليزى الذى يملكه الآن رجل الأعمال المصرى الشهير المقيم فى إنجلترا محمد الفايد، وقد لعب حجازى كمحترف هناك ومثل منتخب جامعة كمبردج - حيث كان يدرس - فى بطولة الجامعات الدولية. وكان حجازى قد اشتهر كلاعب وهو طالب فى المدرسة السعيدية قبل السفر إلى إنجلترا.

المهم عاد حجازى إلى مصر عام ١٩١٤ ولم يشأ أن ينضم إلى أى ناد، وانما شكل فريقا خاصا به عام ١٩١٥ أطلق عليه اسم «حجازى إلفن، أى (حجازى ١١) وأخذ يتحدى به الفرق الإنجليزية، وحدث أن تكونت فرقة من





وضع حسين حجازى بذرة التنافس والخصومة التقليدية بين الأهــلى والزمــالك، لكــن هذا التنافــس وهــذه الخصومــة أخــذا ينمــوان تدريجــيا

بعض جنود الاحتلال الذين كانوا يلعبون فى أندية انجلترا قبل تجنيدهم، وأشرف عليهم رجل انجليزى يدعى ستانلى، وسمى الفريق باسم (ستانلى تيم) وتحدى بفرقته فرقة حسين حجازى على رهان قدره عشرة جنيهات، وفاز فريق حجازى، فجن جنون ستانلى وصمم على إقامة مباراة ثأرية ارتفع فيها الرهان إلى ١٨٠ جنيها، وكان هذا المبلغ يعتبر ثروة فى ذلك الوقت، وبعد مباراة عنيفة حامية الوطيس. كما يقال. فاز فريق حجازى، وكان هذا الفريق يضم كلا من حسين منصور لحراسة المرمى والظهيرين محمد حسنين زوبة ويوسف وهبة وخط الدفاع عبدالحميد محرم ومحمد جبر وسعيد المهندس ودكتور محمد أباظة أو حسن علوبة وعبدالفتاح طاهر ويوسف محمد.. وكان حسين حجازى يلعب بفريقه فى الشوارع والميادين والأندية، ومنها النادى الأهلى ونادى السكة الحديد، ولعب بفرقته فى الإسكندرية وطنطا، والمنصورة وأسيوط، والمنيا.

ومع تألق حسين بك حجازى سعى النادى الأهلى إلى ضمه لصفوفه، وانضم حجازى بالفعل للأهلى عام ١٩١٧ ولحق به مجموعة من فرقته، بينما انضم الباقون إلى المختلط أو الزمالك، وهذا الانقسام فى فرقة حجازى، بين فريقى الأهلى والزمالك أضفى على الفريقين عناصر قوة وتميز وصنع الندية بينهما، وقد مكث حجازى فى الأهلى لمدة عامين، ثم انتقل إلى الزمالك فى عام ١٩١٩ فأصبح الزمالك أقوى الفرق المصرية، وزادت جذوة المنافسة والخصومة، وفى عام ١٩٢٢ أقيمت بطولة كأس الأمير فاروق وفاز المختلط (الزمالك) بالكأس، وفى عام ١٩٢٤ بعد انتقال المختلط إلى مقره الثالث الجديد قرر حجازى أن يترك الفريق لأن المقر الجديد لايوجد به مكان للعب البريدج والبلياردو، وانتقل حسين حجازى إلى الأهلى، وعلى مدى ٤ سنوات متتالية هبط مستوى فريق كرة القدم فى الزمالك لغياب حجازى، وارتفع مستوى فريق الأهلى لوجود حجازى!

وكان حسين حجازى عندما ينتقل من الزمالك إلى الأهلى أو من الأهلى إلى الزمالك يقول محرر صفحة الرياضة فى جريدة الأهرام: «دارت دورة الفلك».. وقد كان الانتقال من أسباب غرس جذور المنافسة ونبتة الغرماء بين الأهلى والزمالك، فكلاهما كان قد بدأ يكون الشعبية والجماهيرية، وكان انتقال حجازى بين الناديين سببا مباشراً فى غرس مشاعر الغضب والضيق لدى الجمهور الذى كان يحبه ويشجعه، وفى عام ١٩٢٨ عاد حسين حجازى إلى الزمالك غاضبا من الأهلى الذى أوقفه بسبب واقعة عدم تسلم لاعبى الفريق لميداليات المركز الثانى من الفريق صادق باشا يحيى كبير الياوران ومندوب الملك بعد هزيمة الأهلى فى نهائى الكأس أمام الترسانة. وعاد حجازى ليجدد شباب الزمالك (المختلط)، حيث كون فريقاً جديداً باسم المختلط الجديد، أسوة بفريق الأهلى الأبيض، وكان دورى منطقة القاهرة يتكون من خمسة أندية تتنافس فيما بينها على البطولة، وهى الأهلى والمختلط والسكة الحديد ونادى البوليس والنادى اليونانى.

والواقع أن حسين حجازى ساهم فى صناعة شعبية وجماهيرية الأهلى والزمالك، وكان انتقاله من هذا النادى إلى ذاك وراء روح التنافس والتحدى التى ظهرت بينهما، فمع انتقال حسين حجازى من الأهلى إلى الزمالك انتقلت معه جماهير كبيرة، وبقى عدد كبير آخر من الجماهير متمسكاً بالالتفاف حول الأهلى، ومع انتقال حجازى من الزمالك إلى الأهلى، يحدث نفس الأمر، تذهب خلفه جماهير وتبقى جماهير ملتفة حول الزمالك، وكان الانتقال فى حد ذاته يصيب الجمهور الباقى على حب فريقه الأصلى سواء الأهلى أو الزمالك، بالغضب من الفريق الآخر الذى انتقل إليه نجم الكرة المصرية الأول، وكان حب الجماهير والتفافهم حول حسين بك حجازى يرجعان إلى أن فريق «حجازى الفن» أرضى الغرائز الفطرية الكارهة للاستعمار بكثرة ما كان يحققه من انتصارات على الفرق الانجليزية وكان الكثيرون يتبعونه، فإذا لعب حجازى للأهلى فهم يشجعون الأهلى، وإذا لعب للزمالك فهم يشجعون الزمالك!

هكذا وضع حسين حجازى بذرة التنافس والخصومة التقليدية بين الأهلى والزمالك، لكن هذا التنافس وهذه الخصومة أخذا ينموان تدريجيا، ولوقائع متشابهة خاصة بانتقالات اللاعبين بين الناديين أو بسبب أزمات أو مباريات عاصفة!

فى عام ١٩٣٦ كان عبد الكريم صقر طالبا فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية وتألق فى دورى المدارس، وكان ابن عمه ممدوح مختار مديرا للكرة بالأهلى، فأقنعه بالانضمام للنادى ولم يكن عمره قد تجاوز ١٦عاماً. وبعد ٤سنوات انتقل ممدوح مختار إلى المختلط مديراً للكرة، ولحق به عبد الكريم صقر، وأيامها كان حيدر باشا هو رئيس المختلط ورئيس اتحاد الكرة، وعندما نشبت أزمة بين الأهلى والمختلط بسبب عبد الكريم صقر الذى تمسك به الأهلى، قرر حيدر باشا أن يترك الأمر لعبد الكريم صقر ليختار النادى الذى يلعب له فاختار الزمالك.

وزادت الخصومة بين الناديين وبين جماهير الناديين بسبب انتقال عبد الكريم صقر من الأهلى للزمالك، وتكررت القصة لكن بأسماء أخرى. فقد جذب عبد الكريم صقر صديقه محمد الجندى لاعب الأهلى إلى الزمالك، وفى عام ١٩٥١ انتقل يكن حسين وزكى عثمان من الأهلى إلى الزمالك، وكان موسم الاستقالات يسمح بانتقال اللاعب من ناد إلى آخر عقب نهاية كل موسم، غير أن اتحاد الكرة قرر فى عام ١٩٥٧ تطبيق لائحة جديدة، وبتطبيقها أصبح محرماً على اللاعب الانتقال من ناد إلى آخر إلا بموافقة ناديه الأصلى وحصوله على استغناء منه. وحدد الاتحاد نفس العام ليشهد آخر موسم انتقالات فى تاريخ الكرة المصرية، قبل تطبيق الاحتراف فى مطلع التسعينيات، وشهد عام ١٩٥٧ حركة انتقالات واسعة بين لاعبى الأندية، وفشلت محاولات الزمالك فى ضم عادل هيكل حارس مرمى الأهلى، ونجح الأهلى فى خطف ميمى الشربينى وطه إسماعيل قبل أن يقعا فى شباك الزمالك، وقام عبده البقال كشاف النادى الأهلى بإخفاء الشربينى وطه إسماعيل فى رأس البر لمدة أسبوعين بعيداً عن أعين الزمالك حتى تم لهما التوقيع للأهلى.

وفى يوليو عام ١٩٥٧ أجرى الأهلى والزمالك اتفاقاً بخصوص موضوع انتقالات اللاعبين واتفق الناديان على ألا يحاول أحدهما ضم أى لاعب من النادى الآخر إلا بعد الحصول على موافقة النادى التابع له بالاستغناء عنه، وقد تبادل رئيسا الناديين عبود باشا والدكتور محمود شوقى خطابين يتضمنان عدم قبول انضمام أى لاعب من لاعبى الناديين إلى الآخر إلا إذا كان معه تنازل من النادى الذى يتبعه.

لكن هذا الاتفاق لم يستمر، ومضى الناديان يحاولان خطف المواهب والنجوم من الاندية الأخرى ويتنافسان عليها. وفى سنة ١٩٦٦ حاول الأهلى أن يضم لمعى لاعب المنصورة، ودخل الزمالك منافساً له، وقامت الدنيا ولم تقعد فى الوسط الكروى، وباتت حكاية لمعى قصة رئيسية فى صفحات الرياضة، واستدعى الأمر تدخل طلعت خيرى وزير الشباب لإقناع لمعى بالانضمام للزمالك، إلا أن لمعى اختار الأهلى!

وكانت تلك قصة أخرى من القصص التى ساهمت فى زيادة حدة الخصومة بين الناديين وتكررت بصور أخرى وبأسماء أخرى، ولعل قصة رضا عبد العال مازالت فى الأذهان، فقد كان عبد العال نجما من نجوم الزمالك، وفجأة استيقظ شارع الكرة المصرية على خبر يقول أن رضا عبد العال وقع للأهلى، وانشغل الرأى العام بالقصة وبالمزايدة التى جرت على اللاعب. وقام الزمالك بمحاولة الرد على انضمام رضا عبد العال للأهلى بالحصول على توقيع التوأم حسام حسن وإبراهيم فى عام ١٩٩٤، لكن المحاولة لم تنجح إلا فى عام ١٩٩٩!

أزمة زيارة فلسطين

بين حيدر باشا وفؤاد باشا

وشطب ١٤ لاعبا من الأهلى!

وبطبيعة الحال لم تولد المنافسة التقليدية بين الأهلى والزمالك من بطن الانتقالات فقط، ولكنها زادت بسبب الندية بين الفريقين، وصراعهما المستمر على البطولات، وبسبب الأزمات، ومنها أزمة أحسب أنها أضافت الكثير من أسباب الخصومة بين فرعى الأسرة الكروية الكريمة!

كان ذلك عام ١٩٤٣ عندما طلب ليفون كاشيشيان المحرر الرياضى فى إحدى الصحف الفلسطينية سفر النادى الأهلى للعب ٣ مباريات ودية خلال الصيف، فأجرى الأهلى اتصالا باتحاد الكرة للحصول على الموافقة، فرفض الاتحاد، وتدخل فؤاد سراج الدين باشا، وكان عضواً بالأهلى ووزيراً للداخلية ووافق على سفر الفريق إلى فلسطين، وأرسل الموافقة إلى وزارة الشئون الاجتماعية التى تشرف على الاندية، إلا أن رئيس اتحاد الكرة حيدر باشا ووزير الحربية حصل على هذه الموافقة ومزقها.

ويبدو أن فى الأمر خلافاً بين حيدر باشا وفؤاد باشا، الذى علم بما جرى، فأمر بسفر الفريق واستخرج جوازات سفر للاعبيه، وأن يتشكل الفريق تحت مسمى «منتخب نجوم القاهرة» وليس فريق الأهلى.

وبالفعل سافر فريق الأهلى إلى فلسطين تحت اسم «نجوم القاهرة»، فقرر اتحاد كرة القدم برئاسة حيدر باشا شطب ١٤ لاعباً، وتوقف نشاط اللعبة فى الأهلى لمدة شهر، وعندما جاء موعد كأس الملك تدخل أحمد باشا حسنين لكى يعفو الاتحاد عن اللاعبين بشرط الاعتذار للملك رسمياً، وفى يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٤٣ اجتمع مجلس إدارة النادى الأهلى فى منزل جعفر ولى باشا رئيس النادى بمطرية الزيتون، وجرت مناقشة موضوع الإيقاف والشطب، وتناول الحضور مسألة سلطة الاتحاد على الأفراد وحقه فى منعهم من اللعب خارج القطر، وانتهى الاجتماع باقتراح من فكرى أباظة برفع مذكرة إلى اتحاد كرة القدم بملاحظات المجلس، التى تتلخص فى أن العقوبة وهى الشطب، أبدية، وأن السبب لم يذكر فى إنذار الشطب، وأن اللاعبين لم يحقق معهم، فإذا رأى الاتحاد ألا يؤخذ بوجهة نظر المجلس فإن النادى الأهلى مع الأسف الشديد لا يستطيع عملياً أن يدبر بحال إزاء شطب ١٤ من أبرز لاعبيه فريقاً لائقاً لمباريات الموسم.

وانتهت هذه الأزمة بعد أن وصلت للذروة بتهديد الأهلى بالانسحاب من اتحاد الكرة، وتدخل فيها القصر وأمر الملك فاروق وزير حربيته حيدر باشا بإنهاء المشكلة، ولعب الأهلى والزمالك نهائى كأس الملك وفاز الزمالك ٦/صفر وهى المباراة التى أعجب بنتيجتها الملك وبعدها تحول اسم الزمالك إلى فاروق!

وهذه المشكلة بكل جوانبها، وبالنتيجة التى انتهت بها المباراة أثارت جماهير الاهلى ضد الزمالك، قبل اتحاد الكرة إذ تصور جمهور الاهلى أن حيدر باشا رئيس الاتحاد ورئيس الزمالك فى الوقت نفسه لعب دوراً كرئيس للاتحاد لصالح موقعه كرئيس للزمالك، وقد اضافت تلك الازمة الكثير على جذور الخصومة بين الناديين الكبيرين!

وإذا كان السباق بين الناديين على ضم النجوم انعكس على طبيعة المنافسة بينهما، فإن الندية، وهى من قوانين الكون، زادت من حدة المنافسة، والحقيقة أن الجميع تعامل مع الأهلى والزمالك باعتبارهما قوتين متساويتين ومتضادتين والمنافسة بين الفريقين بدأت مبكرا، وقبل بدء بطولة الدورى العام فى ١٩٤٨ إذ كانت هناك كأس السلطان حسين من ١٩١٧ إلى ١٩٣٥ وقد فاز بها الزمالك مرتين عامى ١٩٢١ و١٩٢٢، أما الأهلى ففاز بها ٦ مرات فى أعوام ١٩٢٣، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٢٩، ١٩٣١.. وفى الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٩ كانت قاعدة المنافسة على بطولة كأس التفوق المصرية واسعة وتضم عدداً من الأندية، إذ فاز بها الأهلى ٧ مرات مقابل ٤ مرات للزمالك، ومرتين لكل من الاتحاد السكندرى والأولبى والترسانة، ومرة واحدة للترام، وفى الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٧ فاز الأهلى بكأس الأمير فاروق ٤ مرات مقابل ٣ مرات للزمالك .

وانتقل الصراع بين الناديين من إطار المحلية إلى المستوى الإفريقى، فقد توج الأهلى ناديا للقرن العشرين فى إفريقيا واحتل الزمالك المركز الثانى، وسبق الناديان أندية عربية وإفريقية كبيرة، وتعد الفترة من ١٩٨٢ إلى ٢٠٠٣ من أزهى فترات الكرة المصرية فى القارة. فقد أحرز الأهلى ٨ بطولات وهى بطولة أبطال الكئوس أعوام ٨٤ و٨٥ و٨٦ و١٩٩٣ وثلاث بطولات لأبطال الدورى أعوام ٨٢ و١٩٨٧ و٢٠٠١. وكأس السوبر عام ٢٠٠٢، بعد فوزه على صن داونز الجنوب إفريقى ٣/ صفر وفى المقابل فاز الزمالك بست بطولات ٥ لأبطال الدورى أعوام ٨٤ و٨٦ و٩٣ و١٩٩٦ و٢٠٠٢ وبطولة واحدة لأبطال الكئوس عام ٢٠٠٠.

كما فاز الزمالك بكأس السوبر الإفريقية ثلاث مرات، الأولى فى جوهانسبرج عام ١٩٩٤ بعد تغلبه على الأهلى والثانية بعد تغلبه على المقاولون عام ١٩٩٧، والثالثة عام ٢٠٠٣ بعد تغلبه على الوداد المغربى .

هذه الأرقام والبطولات والمقارنات تعكس حقيقة المنافسة بين الفريقين الكبيرين، والتى تعاظمت فيما بعد نتيجة لبدء بطولة الدورى العام، والانغماس فى البطولات الأفريقية، ونتيجة لظروف سياسية واجتماعية صبغت الشارع المصرى بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ .. ومازالت■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

حياة الشعب بالشعب

من الشعوب من يسلم زمام أموره إلى حكومته ويجرى طوع إرادتها، ومنها من يجعل للحكومة حداً محدوداً فى السلطة والنفوذ ويراقبها مراقبة شديدة إن أحسنت كافأتها وإن أساءت قضى عليها. فشعوب الشرق من النوع الأول وشعوب الغرب من النوع الثانى. ولذلك كان الشرق فى تأخر وانحطاط، وكان الغرب فى تقدم وارتقاء لأن الشعب هو فى الحقيقة صاحب البلاد وسيدها وحارس الوطن من كل الأخطار، وما الحكومة إلا وكيل عنه تختار من نخبة أبنائه ومن أشدهم على مصالحه.

وقد قضى تاريخ مصر أن تنقلب الأوضاع فى هذه البلاد ويصير الشعب عبداً للحكومة. وخادماً تسخره كيف تشاء وترسل به إن شاءت وتسىء إليه ما استطاعت وهو لا يقدر معارضة أو حراكاً لأنه أعتقد ورسخ فى أذهان بنيه أنه آلة فى يد أفراد يتصرفون فيه وفى مصالحه كما تشاء أهواؤهم وأنه ما خلق إلا لرضاء هؤلاء الأفراد. وبقدر ما اشتهر المصريون بالنباهة والطبيعية والذكاء الفطرى اشتهروا بالخضوع للحاكم وعدم مخالفة الحكومة.

ولا ريب أن الشعب المصرى لا يبلغ ما بلغته شعوب الغرب من التقدم والارتقاء ولا يأخذ من الحياة الحقيقية بنصيب وافر إلا إذا قام بنفسه ونهض بمحض إرادته وبقوة مجهوداته. يومئذ تدوم له الرفعة والسعادة ويدوم له المجد والاستقلال. وإلا إذا اعتمد على الحكومة فى كل شىء يطالبها بتحقيق أمانيه فشقاؤه يكون أبدياً وذله يبقى سرمدياً.

منهاج التاريخ الغربى و هوية مصر ولحظاتها الكبرى

محمود الوردانى

■■ ارتبط الاستشراق منذ بداياته الباكرة بتوجهات وأهداف استعمارية، وشكل فى بعض الأحيان الطليعة الاستكشافية التى تسبق الغزو الكولونيالى، وفى أحيان أخرى لعب الاستشراق دورًا استخباراتيًا وتجسسيًا لصالح الإمبراطوريات والدول الاستعمارية.

من جانب آخر لعب الاستشراق دورًا بالغ الأهمية على المستوى الثقافى والأدبى من خلال تحقيق عدد هائل من المخطوطات ونشرها وحفظها من الضياع، فضلاً عن المصنفات الكبرى والفهرسة فى الدين والفلسفة والفكر والأدب العربى التى وضعها المستشرقون، بل أنقذوا جانبًا مهمًا من التراث الصوفى والغنوصى، وأولوا اهتمامًا متزايدًا للحركات الدينية السياسية التى تم فرض ستار من السرية والإلغاء المتعمد لأصولها ومنابعها ووقائعها.. حتى على الرغم من أنه تمت الاستفادة من هذا الدور وتوظيفه لخدمة الغرب وللصورة النمطية التى ظل الغرب ينتجها ويعيد إنتاجها عدة قرون عبر «شرق متخيل».

لعل كل هذا معروف ولا أضيف جديدًا بالسطور السابقة.. غير أن هناك مع ذلك بعض الباحثين والمستعربين الجدد ذوى الرؤية اليسارية. بالمعنى العام والواسع. والمنهج اليسارى فى التناول وقراءة الأحداث وتحليلها قدموا فى واقع الأمر إسهامًا بارزًا، بل وإضافة حقيقية فى تفسير وفهم وتحليل الحركات الاجتماعية والتاريخ والاقتصاد، ومن ثم فى السياسة.

والملافت للنظر أنهم استخدموا مناهجهم الغربية وقاموا بتطويعها على نحو اتسم بالانفتاح والاستعداد للتلاؤم مع واقع مختلف، فضلاً عن الدأب والجدية والجهد العلمى المضنى الذى بذله بعضهم على النحو الذى سأحاول توضيحه فى السطور التالية:

من بين هؤلاء اخترت ثلاثة كتب لثلاثة مؤلفين: الأول: «كل رجال الباشا» لخالد فهمى وترجمة: شريف يونس. دار الشروق. والثانى: «الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر» لجوان كول، ترجمة: عنان الشهاوى. المجلس الأعلى للثقافة. والثالث: «الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر» لوولتر أرمبرست، ترجمة: محمد الشرقاوى وصدر أيضاً عن المجلس الأعلى للثقافة.

وعلى الرغم من أن الكتاب الأول لباحث مصرى (نابه بحق) هو الدكتور خالد فهمى الذى درس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، إلا أنه يكتب بالإنجليزية (وكما هو معروف اللغة ليست مجرد اختيار من الكاتب ولا تشمل مجرد الحروف والمفردات وقواعد النحو والصرف، بل هى أعمق وأكثر غورًا من هذا السطح الأملس)، وبعد حصوله على الماجستير فى العلوم السياسية من ذات الجامعة، حصل على الدكتوراة فى التاريخ الحديث من جامعة أوكسفورد، ويشغل الآن منصب أستاذ مساعد تاريخ الشرق الأوسط بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة.

بطبيعة الحال د. خالد فهمى باحث مصرى مرموق، ولا أضمه للباحثين التاليين. جوان كول وولتر أرمبرست. وربما كان السبب الوحيد لتناول كتابه يعود لتبنيه الواعى وتأثره بمنهج وكتابات كل من ميشيل فوكو ومجموعة دراسات التابع الهندية، وإن كان هذا التبنى ليس مصمتًا أو تطبيقًا ميكانيكيًا على واقع مختلف، بل هو امتلاك لمنهج واختبار له وحوار معه، مما شكل فى نهاية الأمر إضافة باهرة فى تاريخنا الحديث.

أما والى مصر محمد على باشا فقد حظى بهالة من السحر والتألق رفعته إلى مرتبة الأسطورة، بعد أن كان مجرد ضابط من ضباط الفرقة الألبانية التى حلت على مصر لفرض الأمن والسيطرة من جانب السلطان العثمانى عشية رحيل القوات الفرنسية عائدة لبلادها بعد احتلال استمر منذ ١٧٩٨ وحتى ١٨٠١. وكان من المنتظر أن يعين السلطان واليًا على البلاد لإعادة السيطرة، إلا أن الضابط الشاب فى الفرقة الألبانية. محمد على. استطاع التسلل والنفاذ لمشايخ الأزهر. أى النخبة فى ذلك الحين، ووثق علاقاته بمختلف القوى والتيارات الناشطة فى وطن كان قد جرى احتلاله لأكثر من ثلاث سنوات، كما وثق علاقاته وصلاته فى نفس الوقت بقوات السلطان العثمانى.

واستطاع فى شهور قليلة أن يصبح واحدًا من أهم الضباط، بل وانعقد عليه إجماع المشايخ ومن ثم بقية الطوائف المؤتمرة بأمرهم، وثار المصريون على السلطان العثمانى ورفضوا قبول الوالى الذى قرر السلطان تعيينه، وفرضوا محمد على فرضاً، وهو أمر كان فى ذلك الحين متجاوزًا لكل ما هو مستقر من شرائع وتقاليد وأعراف. على أى حال انطلق محمد على من مصر ليشيد ما يكاد أن يكون إمبراطورية، ونصّبه البعض بانيًا لمصر الحديثة بسبب مؤسسات الحداثة التى أقامها على مدى سنوات حكمه: الجيش والأسطول ومؤسسات التعليم والإنتاج وإعادة هيكلة الأرض، وبعد ما يقرب من ثلاثين سنة كانت جيوشه بقيادة ابنه (ساكن الجنان) إبراهيم باشا تقف على أبواب القسطنطينية، ولولا التحالف الأوروبى القائم وقتذاك لكان قد دخلها بالفعل، غير أن التاريخ لحسن الحظ لا يعرف كلمة «لو» كما يقولون.

تلك هى الخطوط العريضة لسيرة محمد على باشا، وهى خطوط منحته سحرًا أسطوريًا بوصفه المستبد العادل وبانى مصر الحديثة ومؤسس الجيش وصاحب الإصطلاحات والمسئول عن تشكيل وعى الأمة بذاتها.

هذه الترسانة من الأفكار والمفاهيم التى تشكلت على مدى قرنين من الزمان وأسهم فيها أساطين المؤرخين من القوميين والمستعربين تصدى لها خالد فهمى الذى هدف، كما كتب مترجم الكتاب شريف يونس إلى «إسقاط مجموعة متنوعة من الحصون التقليدية المنيعة فى تقاليد الكتابة التاريخية المصرية»، ويضيف «تحت قناع لطيف من الأسلوب السلس والنبرة الهادئة، وبغير أى انفعال زائد فى معظم صفحات الكتاب يقوض خالد فهمى جدرانًا بأكملها من صرح النمط الوطنى السائد فى الكتابة التاريخية المصرية ومسلماتها وضميرها وحججها».

---

١. كل رجال الباشا
خالد فهمى
ترجمة: شريف يونس
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

٢. الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر
جوان كول
ترجمة: عنان الشهاوى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

٣. الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر
وولتر أرمبرست
ترجمة: محمد الشرقاوى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

فى ثلاثة كتب لم نكتبها نحن:

بطبيعة الحال لم يكن سهلاً تجاوز ونقض كل هذه الترسانة التى دفعت بمحمد على ليكون مؤسس مصر الحديثة، بل عمد المؤرخون للتغاضى عن الجانب الاستبدادى والقمعى فى شخصيته، ومن ثم إجراءاته وجملة تغييراته، أمام إنجازاته الضخمة. لكن المؤلف تبنى خطابًا ومفهومًا مناقضًا لمجمل الخطاب السائد حول محمد على وحول الحداثة التى أسسها محمد على فى مصر، فالخطاب السائد وقع. حسبما عبّر. فى شرك الحداثة، واقتبس مفهومًا غريبًا لها، وهو المفهوم الذى يعتبرها الامتلاك التدريجي للعقلانية، ويرى التاريخ بوصفه صيرورة عالمية لتحقيق مبدأ العقل. بعبارة أخرى حاول مفكرو الحداثة أن يتحدوا المركزية الأوروبية ليس بنقد المبادئ النظرية التى قامت عليها، بل بتخيل هوية محلية مصرية مركزية تقوم على نفس المبادئ النظرية مع اختلاف مهم، هو اعتبار هذه الهوية مستقلة عن الغرب ومعارضة له.

من جانب آخر يعترف المؤلف. كما يليق بمفكر من طراز رفيع. بأن كثيرًا من الأفكار التى اعتمد عليها فى نقده للحداثة «مستقاة» من بعض أعمال المؤرخ الفرنسى ذائع الصيت ميشيل فوكو، خصوصًا فيما يتعلق بمظاهر التحول فى الأنظمة العقابية وأنماط التعذيب فى فرنسا منذ أوائل القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر. وتكمن العلاقة بين أفكار فوكو وجيش الباشا فى أن المؤلف سعى فى دراسته لنقد الحداثة كما تتجلى فى إحدى أهم المؤسسات الحديثة وهى الجيش النظامى الحديث، الذى يعد وسيلة مثالية لاختبار صحة مقولات فوكو عن السلطة.

لماذا؟

يجيب المؤلف: لأن الجيش الحديث شأنه شأن السجن الحديث مكان تظهر فيه آليات السلطة بشكل واضح وصريح، ويتجلى خطابها على نحو واضح. فجسد الجندى شأن جسد المجرم خاضع على الدوام لنظام صارم من الانضباط والمراقبة، لذلك يسعى خالد فهمى لدراسة الممارسات المختلفة بدءًا من التجنيد وحتى المعارك الحية.

وفى هذا السياق يعبر المؤلف عن استفادته أيضًا من كتابات مجموعة دراسات التابع، وهى أعمال مجموعة من الباحثين أغلبهم من الهنود، نشطوا منذ أواخر الثمانينيات فى إعادة كتابة تاريخ شبه القارة الهندية ممن تأثروا بأفكار إدوارد سعيد وجاك دريدا وجرامشى وفوكو. وتكمن استفادته فى توجيه انتباهه لدراسة تاريخ الجنود لا الضباط والقادة، تاريخ التابعين والمقهورين والوقود الحقيقى للمعارك، بينما احتفظ التاريخ بالنياشين وميداليات النصر ورايات الفاتح على صدور القادة والضباط.

وعلى الرغم من ندرة المصادر. وربما انعدامها. فلم يتعود الجنود. والمقهورون والتابعون عمومًا. على كتابة تاريخهم ولم يخلفوا أثرًا مقروءًا، مما دعا المؤلف لقراءة وتحليل عشرات المصادر العربية والتركية وأرشيف دار الوثائق القومية. خصوصًا منذ عام ١٩٨٩ والدوريات والسجلات وأوامر الجهادية لتعويض نقص المصادر وإعادة بناء التاريخ وتسجيله من خلال وجهة نظر الجنود وليس من وجهة نظر الحكام بغية استخلاص خطاب المقاومة من خطاب السلطة، أو كتابة التاريخ من أسفل حسبما عبر المؤلف فى حوار له فى أخبار الأدب (العدد ٤٦٣. ٢٦ مايو ٢٠٠٢)، فموضوع الكتاب إذن والإضافة الأساسية هى ليس آليات إنتاج السلطة بل كيفية استهلاكها.

«كل رجال الباشا». على هذا النحو. لا يتناول الحداثة والسلطة فقط، بل هو عن الحداثة التى يجب أن ننتقد خطابها لا أن نلهث وراءه، وعن السلطة ووسائلها فى الضبط والقمع. وهو أيضًا عن القومية بوصفها «مجتمعًا سياسيًا متخيلاً»، لأن الجيوش الحديثة «وسيلة لإنشاء تخيل الأمة»، حسب تعبير الكاتب. وهو أيضًا كتاب عن التاريخ الاجتماعى لا الحربى لجيش الباشا لأن اهتمامه انصب أساسًا على تاريخ الجنود وتفاصيل حياتهم اليومية.

وهكذا تتابعت فصول الكتاب السبعة دون ارتباط بالتتابع التاريخى. فالأخير ليس أحد أهداف الكتاب، فضلاً عن عدم الالتزام بتقديم سيرة ذاتية للباشا ورجاله وضباطه والنخبة ذات الأصول التركية المرتبطة به. ومن بين ركام الفوضى وأطنان المصادر التى لا تحفل إلا بسير القادة وأعمالهم، ووسط التاريخ الرسمى الذى سجله الموظفون والكتبة فى ديوان المعية، اتجه خالد فهمى لصياغة سيناريو آخر مناقض يتضمن







حياة الجنود المهمشين، الذين وقع عليهم عبء المعارك والموت. ليس فى سبيل الوطن. بل فى سبيل الباشا!

فعلى سبيل المثال، وعلى عكس ما هو شائع حول أسباب تجنيد الفلاحين، يتناول المؤلف هذه القضية مؤكدًا أن التجنيد يكاد أن يكون قد جرى فرضه فرضًا على الباشا. والمعروف أن الولايات العثمانية كان يتم السيطرة على الأمن فيها وعلى حدودها من خلال فرق عسكرية مرتزقة تابعة للسلطان العثمانى، ولم يكن مسموحًا لأهالى البلاد بالانخراط فى صفوف الجيش، ولم يكن التجنيد الإجبارى مطروحًا على الإطلاق.

كذلك يؤكد الخطاب الرسمى وسيل الكتابات التاريخية أن محمد على، بإنشائه للجيش وقراره بتجنيد الفلاحين قد دفع مصر خطوة واسعة نحو وعيها بذاتها وهويتها المستقلة، فالجيش الوطنى هو البداية الحقيقية لانخراط الفلاحين وانتمائهم لأمة يدافعون عنها ويستشهدون فى سبيلها.

وعندما يعيد خالد فهمى قراءة المضابط والسجلات وأوامر الجهادية منقبًا فى المسكوت عنه، يكتشف أن الباشا ظل حتى آخر لحظة خالى الذهن تمامًا من فكرة تجنيد الفلاحين، واتجه فى البداية الاتجاه الطبيعى، وهو زيادة الجيش بالمزيد من تجنيد المرتزقة الألبان الذين ينتمى إليهم الباشا فى الأساس، لكن الفرقة الألبانية الموجودة فى المحروسة وقتذاك كانت قد تكاثرت تمرداتها وثوراتها الصغيرة. من جانب كان أفراد الفرقة مازالوا يعتبرونه مجرد واحد منهم وليس حاكمًا أعلى للبلاد. ومن جانب آخر تآمروا عليه، واكتشف بالفعل عدة مؤامرات استهدفت حياته نظمها وعقد العزم على تنفيذها ضابط الفرقة الألبانية المذكورة.

لذلك، وعند أول فرصة لاحت له، قام بالتخلص منهم، ما أن طلب السلطان العثمانى مساعدته فى قمع التمرد الوهابى فى شبه الجزيرة العربية حتى سارع بإرسالهم إلى الفيافى العربية القاحلة، وعلى مدى سبع سنوات من الحرب الطاحنة





منهاج التاريـــخ الغـربي

ضد الوهابيين، تخلص الباشا من أغلب الألبان.

وعندما توسع الباشا فيما بعد في الجنوب متجهًا للسودان، لم يكن بعد قد فكر في تجنيد الفلاحين لسبب رئيسي، وهو أنهم القوة المنتجة للمصدر الأساسي لدخله وهو زراعة الأرض، فاتجه لإرسال حملات عسكرية للسودان لتجنيد السودانيين.. نجحت الحملات أول الأمر، غير أن ابنه إسماعيل باشا الذي قاد إحدى الحملات، كان عديم الكفاءة عنيدًا لا يتمتع بشخصية قيادية، وانتهت حملته بمأساة تراجيدية، فلفرط قسوته وتهوره قام السودانيون بحرقه حيًا!

ومع ذلك جمعت قوات الباشا آلاف العبيد من السودان لهذا الغرض تحديدًا: أي لتجنيدهم في مصر وتشكيل جيش للدفاع عنه وتأمين حكمه ونظامه، وحتى هذه اللحظة لم يكن قد لجأ مطلقًا للفلاحين المصريين.. أما عبيد السودان فقد تساقطوا أثناء الرحلة إلى القاهرة، ومات أغلبهم قبل وصولهم بسبب بُعد المسافة وكوارث الطريق، فضلاً عن تفشي الأمراض بينهم، حتى أن الباشا أمر باستئجار عدد من الأطباء الأمريكيين ليعالجوهم من الأوبئة التي أوشكت على القضاء عليهم.

غير أن المصائب لا تأتي فرادى كما يقال، فلم يتكيف الجنود الأتراك والألبان الذين أرسلوا للسودان مع المناخ هناك، وفتكت بهم الأمراض وفي مقدمتها الدوسنتاريا.

ويكشف المؤلف عن خطاب أرسله الباشا في فبراير ١٨٢٢ إلى أحمد باشا مدير مديرية جرجا يقول فيه:

«من الواضح أننا نرسل قواتنا بقيادة أبنائنا إلى السودان ليجلبوا لنا السود لنستخدمهم في مسألة حملة الحجاز وخدمات أخرى مماثلة.. إلا أنه لما كان الأتراك من جنسنا ويجب أن يظلوا قريبين منا طوال الوقت، ولا يرسلوا إلى هذه المناطق البعيدة، أصبح من الضروري جمع عدد من الجنود من الصعيد. ولذلك وجدنا أنه من المناسب أن تجند حوالي أربعة آلاف رجل من هذه المديريات».

وهكذا اضطر الباشا لتجنيد الفلاحين، وبناء الجيش (الوطني) اضطرارًا، أي أنه لم ينطلق من وجهة نظر متكاملة فيما يتعلق ببناء مصر الحديثة، وهو ما تبناه عدد كبير من المؤرخين على مدى ١٥٠ عامًا من الكتابة التاريخية.

أما أحلامه التي (باعها) لنا المؤرخون في فتح فلسطين وسوريا وبناء إمبراطورية مترامية الأطراف تضم السودان ومصر والجزيرة العربية والشام فلم تكن سوى صراع يدور داخل الحدود الفكرية والأيديولوجية للسلطنة العثمانية، بل هي صراع أسري داخل نفس القبيلة!

مثال آخر ورد في مقال للمؤلف نشر في أخبار الأدب في نفس العدد المشار إليه، يكشف فيه عن خطاب أملاه الباشا وعثر عليه خالد فهمي أثناء إعداد كتابه وأورده أمين سامي في كتابه «تقويم النيل»، وكان ضمن مقتنيات مكتبة الملك فؤاد الخاصة. في هذا الخطاب يأمر الباشا موظفيه بصرف النظر عن ترجمة قانون ما من إحدى اللغات الأوروبية لكي يطبع ويطبق في مصر لأنه «عُمل بحسب طبائع وأخلاق وعادات أوروبا وأقلامه (أي مواده) لا توافق المصلحة».

وهكذا يبدو من النص السابق أن محمد علي حاكم متنور مهموم بمصالح شعبه ومدرك للهوة التي تفصل مصر عن أوروبا، وهي الصورة التي حرص المؤرخون على (بيعها) لنا، لكن المؤلف عاد للأصل التركي لذات الخطاب وأعاد ترجمته ليكتشف أن ما قاله الباشا أن هذا القانون يجب أن يصرف النظر عنه لأنه «يناسب الأوروبيين وهم شعب متنور متحضر، أما شعبنا فهم مثل بهائم البراري، فلن يكون هذا القانون مناسبًا لهم».

وفي النهاية لابد من الإشارة إلى الإنجاز الأكبر من إنجازات خالد فهمي، والمتمثل في السعي المتواصل عبر كل فصل من فصول الكتاب من أجل نفض الغبار عن الركام الهائل من المصادر والأوامر والسجلات والمضابط للوصول لحياة الجنود وعذاباتهم ومشاكلهم وما تعرضوا له من قسوة مفرطة منذ القبض عليهم في الحقول، ثم تجنيدهم وتغيير ملابسهم وعاداتهم وفرض حياة يرفضونها أصلاً، حتى أن الآلاف كانوا يقومون ببتر أصابعهم أو فقء إحدى عيونهم حتى لا يجندوا!

وهكذا.. في كل فصل يبدأ المؤلف من حياة الجنود المهمشين الذين غفل عنهم المؤرخون وسجلوا انتصارات القادة ونياشينهم، بينما ظل الجنود متوارين يقدمون تضحياتهم ويموتون في صمت.

أما الكتاب الثاني فهو «الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر» لجوان كول (وأغلب الظن أنه أمريكي، على الرغم من أنه فات على المترجم عنان الشهاوي ومراجعه عاصم الدسوقي أن يقدما سيرة ذاتية مختصرة للمؤلف، فهي ضرورية للقارئ العربي وليست مجرد حلية لا أهمية لها لأننا نحن القراء. نقرأ كتابًا عنا وعن إحدى أهم وأخطر الانتفاضات والثورات في تاريخنا الحديث).

وإذا كانت انتفاضة عرابي قد تناولها عشرات المؤرخين المصريين والأوروبيين بدءًا من الرافعي والخفيف وأحمد شفيق باشا وسليم خليل النقاش وبلنت وبرودلي والجميعي ولطيفة سالم وبركات وغيرهم، بحيث أوسعوها بحثًا وتمحيصًا، فإن جوان كول اختار البحث عن الأصول الاجتماعية والثقافية لمن قاموا بالانتفاضة أو أيدوها أو تعاطفوا معها أو عارضوها. لذلك درس المؤسسات الثقافية والسياسية لنظام الحكم حتى يحدد المسار الذي اتخذه التعبير الاقتصادي والديموجرافي ونمو سلطة الدولة. حسبما أشار د. الدسوقي في تقديمه. والذي أوجد مصالح جديدة للفلاحين والطوائف المدينية والأنتلجنتسيا.

في هذا السياق قام جوان كول ليس فقط بالاشتباك مع من سبقه من المؤرخين المصريين والغربيين، ودرس المخطوطات والوثائق والمضابط والمراسلات والسجلات والمكاتبات ووقائع المحاكمات والمحافظ والدوريات المعاصرة لأحداث الانتفاضة، بل اشتبك أيضًا مع المناهج المعتمدة لدراسة التاريخ لدى علماء الاجتماع والمؤرخين في الغرب، ليختبر مقولاتهم لا ليطبقها كما هي، متيحًا الفرصة كاملة كي تقوده دراسته لنتائج مختلفة مستجيبًا لما تكشف عنه الدراسة والبحث. خصوصًا أن كثيرًا ممن تناولوا حركة عرابي من الكتاب والمؤرخين الغربيين كانوا يبحثون وينقبون عما يتشابه مع ما جرى للبلدان الأوروبية، حتى لو اقتضى الأمر التعسف والتطبيق الأعمى لمناهج لا تصلح إلا لتجارب بلدانهم.

بطبيعة الحال يعرف المؤلف العربية جيدًا حيث أشار إلى مخطوطات أرشيفية اكتشفها للمرة الأولى داخل دار الوثائق أو دار الكتب. إن المادة الوفيرة المتنوعة والغزيرة مكنته من الإحاطة الشاملة بالمؤسسات الثقافية والسياسية لنظام الحكم بطبقاته وقواه وأدواته من ناحية، والإحاطة بالأصول الاجتماعية والثقافية لقوى الثورة العرابية ومعارضيها من ناحية أخرى.

يستهل جوان كول عمله الشامل برسم صورة للمؤسسات المادية والثقافية لمصر الخديوية في ظل الإمبراطورية العثمانية، حيث استمر نفوذ السلطنة العثمانية خلال حكم الولاة ونواب السلطان. ورغم أن إدارتها محلية، بقيت جزءًا من أجزاء الإمبراطورية. تدفع الجزية وتوفر الجند، بينما يعتمد السفراء والتعيينات العليا في اسطنبول. أما فيما يتعلق بالنخبة فإن المؤلف يؤكد «وقد أقنعتني المخطوطات والكتابات الدورية التي راجعتها أن المتعلمين المصريين في أغلبهم الأعم كانوا يرون أنفسهم رعايا موالين للسلطان».

بعد السلطان يأتي الخديو بطبيعة الحال، ويميل المؤلف إلى اعتبار نظام الحكم في مصر بيروقراطية إصلاحية»، ويولي اعتبارًا خاصًا للتغيرات التي رافقت حكم إسماعيل، ففي عهده انتشرت زراعة القطن في كل الأنحاء حتى أصبح محصولاً نقديًا موجهًا للعمل في السوق العالمية، وأنشئ أول مجلس للنواب. غير أن خطأه الأساسي أنه جعل من نفسه خليطًا من الحاكم المطلق القاسي والرأسمالي الزراعي المعتد بذاته والذي يضع مصالحه الخاصة فوق مصالح الولاية التي يحكمها.

أما التقدم المزعوم في عهده فقد استفادت منه مجموعة صغيرة من النبلاء والتجار والأجانب، بينما تفاقمت مشاكل الفلاحين وطوائف الفلاحين وقطاعات من الأنتلجنتسيا.

تولى خدمة الخديو بيروقراطيون وموظفون من العثمانيين والشراكسة وبعض الأرمن والتكنوقراط المصريين من أهل البلاد، ورغم تنافسهم العرقي إلا أن هناك ثقافة «عثمانية- مصرية» واحدة اشتركوا فيها واعتمدت على اللغة والأزياء من إسطنبول والمشاركة في الخدمة بولاية مصر العثمانية، وانقسم هؤلاء الموظفون إلى جماعة مناصرة للأوروبيين تسعى



لتكامل مصر مع أوروبا، وجماعة أخرى تعارض انتهاكات أوروبا لصالح الارتباط بعلاقات أكثر متانة مع الأناضول. ومع أن أغلب أصولهم من الشراكسة وتم جلبهم من وسط الجحافل الزاحفة إلى القوقاز كعبيد ومحظيات وجنود عبيد منذ القرون الوسطى، إلا أنهم سرعان ما ذابوا داخل الطبقة الحاكمة التى تشكلت قطاعاتها الأخرى من أتراك مهاجرين.

بقيت ثلاث فئات هى «الأعيان المصريون» من أبناء البلاد. وقوام هذه الفئات كبار ملاك الأرض، ومن ارتقى فى وظائف إدارية عليا، وكبار العلماء وبعض خريجى المدارس المدنية. وفى الوقت الذى بدأت فيه طبقة جديدة من النبلاء العثمانيين فى انتزاع الأرض الزراعية واحتلال مكانة أعلى من عائلات أعيان الريف المصريين، استحوذت فئة جديدة من العلماء الحنفيين على السلطة فى الأزهر بعد أن كان شيخ الأزهر تقليديًا شافعيًا.

كما بقى الأوروبيون وهى ثانى الفئات التى وصل نفوذ أفرادها إلى حد تشكيل نوع من «المجلس الأعلى» القادر على فرض سلطانه على الخديو والوزراء تدعمهم السفن الحربية الرابضة فى البحر المتوسط و١٣٠٠ أوروبى يعملون فى الخدمة المدنية لدى الخديو ونحو ١٠٠ ألف من اليونانيين والإيطاليين والفرنسيين والإنجليز. وثالث الفئات هى «الشوام» من مسيحيى لبنان الذين تدفقوا على مصر مع ازدهار القطن كتجار ومترجمين فضلتهم الإدارة المصرية بسبب تمكنهم من اللغات الأوروبية وأساليب الحسابات على النمط الأوروبى. انقسم هؤلاء الشوام إلى جناح معاد للأوروبيين يناصر الاتجاه الدستورى، وهى مفارقة لا تخلو من دلالة، وإلى جناح مؤيد للأوروبيين ويناصر الحكم المطلق.

وشق رجال المال من الأوروبيين طريقهم من خلال إقراض المال للوالى أو المضاربة على القطن. وفى عام ١٨٧٦ يشجعهم إنشاء المحاكم المختلطة على الاستثمار فى الأراضى، وبعد ثلاث سنوات فقط يقصى القناصل الأوروبيون الخديو إسماعيل وينصبون ابنه.

ينطلق جوان كول فى الفصل التالى لمعالجة التغيرات الاقتصادية التى لحقت بمصر منذ عصر إسماعيل وتأثيرها الاقتصادى على الفلاحين والطوائف من المدنيين والمثقفين. واقتضى هذا دراسة ملكية الأرض التى خضعت لفورانات



سعاد حسنى



عادل إمام



سناء جميل

زلزالية فى القرن ١٩ تحديدًا. وشكلت ثلاث قوى طبيعة ملكية الأرض. الأولى الإدارة المنبثقة من قصر الخديوى حيث تم خلق فئات جديدة موالية من خلال مصادرة الأراضى وإعادة تمليكها فضلاً عن التوسع فى عمليات الاستزراع.. وهكذا تشكلت الحاشية الجديدة المحيطة بالخديو. القوى الثانية تمثلت فى أن القطن وقيمته فى السوق العالمية دخل كعامل أسهم فى التشجيع على إنشاء ملكيات زراعية كبيرة. العامل الأخير هو النمو السكانى المتزايد بعد عام ١٨٥٠ الذى أسهم فى تضخم الأسعار وانخفاض أجور الفلاحين وتفتيت الملكية الزراعية.

تخضع كل قوة من هذه القوى أو العوامل لتمحيص وافر ودراسة شاملة موثقة، ويتتبع المؤلف كل منها والتأثيرات المتبادلة بينها مستخدمًا وثائق لم يلتفت إليها من سبقوه من الباحثين والمؤرخين. على سبيل المثال يدرس تأثير التغيرات الاقتصادية، على طوائف الحرف من خلال ما اكتشفه من عرائض مقدمة من الطوائف للحكومة يلتمس فيها هؤلاء الشيوخ (شيوخ الطوائف) تحقيق مطالب معينة مثل شيخ طائفة سائقى العربات الذى تقدم بشكوى من إجبار الحكومة لهم على تحديد أجرة ثابتة يتقاضونها، أو شيخ طائفة الوزانين الذى يتعرض لاحتجاج من التجار المصريين على خصخصة نشاط كان مستقلاً خاضعًا فى السابق لقوانين الطائفة وتحت إشراف الدولة.. والحقيقة أننى أوردت هذا المثل السابق لأبين فقط كيف عالج المؤلف الوثائق الجديدة التى اكتشفها، وكيف أعاد من خلالها تقييم ودراسة التغيرات الاقتصادية المصاحبة لزلزال القطن.

وينتقل لدراسة الموقف فيما يتعلق بالانتلجنتسيا من المهنيين والزعامات الدينية الشعبية والجماعات المتعلمة التى تعمل مقابل الأجر (أى مثقفى العصر الحديث الذين تعلموا فى المدارس الأهلية الجديدة) مستخدمًا وسائل مشابهة للوسائل الجديدة التى أعاد بها قراءة ما اعترى الطوائف وشيوخها بعد زلزال القطن. فهو يورد مثلاً التظلمات التى أرسلها أصحاب الياقات البيضاء إلى نظارة الداخلية فى عصر إسماعيل مثل على راسخ كبير الأطباء بحى الأزبكية الذى أكد فى شكواه أن تصنيفه المدنى توقف عند رتبة الملازم ٢٠ عامًا، أو شكوى العاملات فى مهنة الطب يطلبن الانتقال للإقامة قريبًا من أسرهن. وكشفت العرائض والتظلمات عن واقع يتسم بانسداد الأفق أمام مهن بأسرها ورواتب شحيحة وشروط عمل رديئة وتأخير صرف المرتبات مما أسفر عن انتقال قطاعات مهمة من الانتلجنتسيا لصفوف المعارضة ثم الاشتراك فى الثورة التى اندلعت فيما بعد.

على أى حال ينتهى كول إلى أن الفلاحين وعمال المياومة والمثقفين عانوا من «الاحباطات الاقتصادية» على حد تعبيره فى سبعينيات القرن ١٩ أكثر مما عانوه من النخبة الحاكمة، وأدى انطلاق القطن كمحصول نقدى إلى تأجيج الصراع بين الطبقات الاجتماعية، خصوصًا مع الطفرة الديموجرافية التى أصابت البلاد.

بهذا المنهج المنفتح على أدوات جديدة للبحث والدراسة قرأ جوان كول فى الفصول التالية التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الممهدة للانتفاضة. فعندما يدرس الأمة والبيروقراطية يشير إلى ازدياد تدخل الدولة فى المجتمع المدنى على نحو لم يحدث من قبل. وفى نفس الوقت ازدياد خضوعها للأهداف الأوروبية.

كما ينتهى إلى أن ازدهار القطن لم يكن العامل الوحيد لهذه التغييرات، بل لعبت ثورة الاتصالات فى ذلك العصر دورًا مهمًا فى سرعة انتشار الأخبار والأحداث السياسية. خطوط التلغراف مثلاً أتاحت استقبال الأنباء العالمية عبر الخدمات السلكية، كما أمكن شحن الصحف والجرائد العثمانية والأوروبية بسهولة من الإسكندرية عبر السكك الحديدية إلى القاهرة، ثم بدأت الصحف الخاصة فى الصدور فى مصر وتوسعت بشدة واستخدمت العامية المصرية فى الكتابة بدلاً من اللغة التقليدية المثقلة بألوان البديع.

من جانب آخر أدى التوسع الهائل فى نظام المدارس الأولية إلى وجود أعداد لا يستهان بها من المتعلمين. ومع انتشار الصحافة التى خلت من اللغة المهجورة واستبدلتها بلغة أقرب للغة الحياة اليومية، تبلور حس جديد وواسع من المشاركة الشعبية الجماعية فى الأحداث الكبرى، ومن ثم



منهاج التاريـــخ الغـــربى

غرست بذور نمط جديد من الوعى الوطنى والنقدى.

على هذا النحو يمضى كول لمناقشة دور الصالونات السياسية فى بلورة أيديولوجية المعارضة، والتطورات التى لحقت بتنظيمات الطوائف، ثم انفجار الصراع الأوروبى المصرى. ويلفت النظر فيما يتعلق بهذا الصراع أن الروايات الكلاسيكية له تركزت على دور الأعيان وضباط الجيش والمثقفين ضد التدخل الأوروبى الفج والمباشر، بينما تم إغفال دور الجماهير. ولا يكتفى كول بدور جماهير القاهرة والإسكندرية، بل إن المادة الأرشيفية التى اعتمد عليها أتاحت له أن يطوف فى مدن الدلتا والصعيد والقناة.

ولا تسمح المساحة الآن بعرض ومناقشة الجهد التحليلى الهائل الذى أورده المؤلف فيما يتعلق بأدوار القوى الاجتماعية المختلفة وما لحق بها من تغييرات حاسمة، دون أن يغفل الظروف الدولية المحيطة. غير أننى سأتوقف قليلاً عند مناقشته للأصول الاجتماعية والثقافية لثورة عرابى. والحقيقة أنه من بين مآثر كول اكتشافه لعرائض موقعة وقوائم اعتقال، ومعرفة وظائفهم أتاحت له تحديد القوى الاجتماعية الرئيسية فى الثورة، خصوصاً فيما يتعلق بقائمة اعتقال ضمت ألف شخص على يد حكومة الخديو فى خريف ١٨٨٢، وكذلك الموقعين على بيان ٢٩ يوليو ١٨٨٢.

ولم يكن الضباط فقط وحدهم فى خضم هذا الصراع، بل إن الأعيان فى القرى من ملاك الأراضى المتوسطين والصغار والمثقفين بمختلف فئاتهم ومهنهم وطوائف الصناع والعمال والجماهير.. كل هؤلاء لعبوا أدواراً فى اشتعال الحريق الثورى.

الأخيرون تحديداً، أى الجماهير، لا نكاد نعرف عنهم سوى العبارات «الحماسية» العامة، ولم يهتم مؤرخو الانتفاضة العرابية بتوثيق دورهم على هذا النحو الذى قام به كول. يؤكد فى البداية أن الجماهير تصرفت على نحو سياسى وتلقائى فى آن واحد، ولم تكن مشاعر الكراهية التى اندلعت مبعثها أسباب دينية أو عرقية فى المحل الأول، بل لأسباب سياسية واقتصادية فى الأساس.

يعتمد كول للوصول إلى تفسيره الخاص على شهادة المصابين التى أدلوا بها من فوق أسرة المستشفى منذ بداية أحداث «الشغب» فى ١١ يونيو ١٨٨٢، ويتابع بدقة تطور الأحداث فى شوارع الإسكندرية. ووفقاً لقوائم المصريين المعتقلين فى محفوظات الخارجية البريطانية نرى أن ربع المعتقلين ممن ينتمون إلى مهن تنتظم فى صفوف الطوائف الحرفية ومن بينهم شيخ طائفة الخياطين، إلى جانب من يعملون فى مهن بسيطة مثل الحمالين وكناسى الشوارع وعمال الصباغة. كما اعتقلت الشرطة «تسع نساء» لاشتراكهن فى أعمال النهب أو لحيازتهن منهوبات، أو بسبب كلامهن التحريضى. واعتقلت عشر نساء أخريات عند قيامهن ببيع المنهوبات فيما بعد. وبالتالى أصبح العدد تسع عشرة امرأة جرت محاكمتهن، يمثلن ٩٪ من إجمالى المتهمين.

وهكذا تتمثل إضافة كول الباهرة فى ربطه بين المصالح المادية والإمكانات التنظيمية والموارد والمفاهيم والخطاب الثقافى ليفسر كيفية اندلاع الثورة، وإغفال أحد هذه العناصر سوف «يختزل قوة الحجة التفسيرية» على حد قوله.

الكتاب الأخير فى هذا العرض يقفز بنا قفزة واسعة نحو مائة عام، وهو كتاب «الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر» لوولتر أرمبرست، ترجمة: محمد الشرقاوى وصدر عن: المجلس الأعلى للثقافة. المؤلف دارس أمريكى زار مصر فى أوائل التسعينيات وأقام بضع سنوات، حيث عمل بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والتحق فى نفس الوقت بصحيفة «الأهرام ويكلى».

مرة أخرى تبرز مشكلة الترجمة فى هذا الكتاب، فبغض النظر عن مستوى الترجمة، فالملاحظ أن المترجم لم يبذل أدنى مجهود من أجل كتابة مقدمة توضح السبب الذى دفعه لترجمة مثل هذا الكتاب، والسياق الذى تم فيه إعداده، إلى جانب الحواشى الضرورية والتعليقات المختلفة، والاتفاق والاختلاف مع الكاتب فى القضايا التى يطرحها.. فالترجمة ليست مجرد نقل كتاب من لغة إلى أخرى، خصوصاً إذا كان الكتاب يناقش قضايا دقيقة وتتصل بنا على هذا النحو المباشر.

على أى حال، إذا كان المستعربون يوجهون عنايتهم وهم يناقشون قضايا الفكر والثقافة، نحو مسائل الهوية والتحديث والقومية، فإن أرمبرست اختار أن يناقش هذه المسائل على نحو مختلف تماماً، ولا يتاح عادة إلا لمن تمرس واستوعب اللغة العامية والعادات والتقاليد والأفكار «الشعبية» المطروحة خلال السبعينيات.

من جانب آخر، يثير الكتاب العديد من علامات الاستفهام حول ضرورة وأهمية هذا النوع من الكتب والقضايا التى يطرحها، وهو الأمر الذى كانت المقدمة - التى تخلى المترجم عن كتابتها للأسف - كفيلة بالإجابة عليها. ويمكن استنتاج أن الكتاب الذى صدر عن جامعة كامبردج بالولايات المتحدة موجه أساساً للنخبة الأكاديمية المهتمة بدراسات الثقافة وعلم الاجتماع.

لم يوجه أرمبرست اهتمامه إذن نحو القضايا التى ينشغل بها المستعربون فى العادة، والمادة التى اعتمد عليها فى إعداد كتابه تشمل علاقاته وأصدقاءه والأسر التى تعرف عليها فى القاهرة، إلى جانب الأغانى والأفلام السينمائية والمسرحيات. ومنذ الصفحات الأولى لكتابه يشير إلى أن الثقافة الشعبية لها مكانها المتميز فى حياة المصريين والعرب عموماً، ومع ذلك فإن «عدم الاهتمام الذى تلاقيه الثقافة الشعبية فى وسائل الإعلام من قبل الأكاديميين أمر محير».

ويضيف أرمبرست أن المانع الرئيسى فى دراسة الثقافة الشعبية أن هناك من يرى أنها ثقافة تجارية يعتقد أنها تمحو الثقافة الأصلية. والمقصود بالثقافة الشعبية: الثقافة التى يحتوى عليها خطاب الأفلام السينمائية ومسلسلات التليفزيون والأغانى الشعبية التى توصف عادة بأنها «هابطة». أى أفلام عادل إمام - الذى يتمتع بإعجاب خاص من جانب المؤلف - ومسلسلات أسامة أنور عكاشة وتحديداً «الراية البيضاء»، وأغانى عدوية.

تلك هى المادة التى عكف المؤلف على دراستها ومحاولة فهم تأثيرها. والحقيقة أن المؤلف لم يجانبه الصواب تماماً فى إشارته إلى ترفع باحثينا وكتابنا عن هذه الثقافة «الهابطة»، حتى إنهم نادراً ما يلتفتون لها أو يعترفون بوجودها!

غير أن أرمبرست يرى أن التحديث هو مفتاح الثقافة الشعبية فى وسائل الإعلام، وتاريخياً كانت هذه الثقافة وسيلة لتحقيق الهوية القومية، إلا أنها نشأت مختلفة كيفياً عن الخطاب الرسمى. وإذا كان التحديث فى الغرب ارتبط بإعادة بعث أو اكتشاف اللغات اللاتينية الكلاسيكية، التى أهملت بمرور الوقت، واتجه الأوروبيون إلى اللغات المحلية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية والبولندية.. إلخ) وأسهم هذا بشدة فى تقوية القوميات الأوروبية المختلفة.. إذا كان هذا هو الحال فى الغرب، فإن مصر والبلدان العربية ليس أمامها خيار، لأن اللغة مرتبطة بالدين، أى لغة القرآن، لذلك ظلت هناك «لغتان»، صحيح أنه ليس هناك سور صينى يفصل بينهما وثمة تأثير وتأثر متبادل فى علاقة كل منهما بالأخرى، الأولى: هى الكلاسيكية المعقدة التى يحتفى بها الخطاب الرسمى والكتاب والمثقفون، والثانية: هى اللغة المحلية الشعبية التى يتحدث بها الناس.

فى هذا السياق يتناول المؤلف فترة السبعينيات، مؤكداً أنها شهدت تمايزاً حاسماً للثقافة الشعبية الحداثية، ويدلل على هذا بمثل يستمده من السينما. ففى فيلم «لو كنت غنى» الذى أنتج عام ١٩٤٢ جرى حل مشكلات التحديث من خلال تدخل الأرستقراطى المتعلم الذى لا يملك المال فقط، بل يملك سر المهنة الذى يمكنه من إدارة المؤسسات الحديثة.. وهكذا ينتهى الفيلم وكلٌ فى مكانه الصحيح: العمال السعداء يرقصون فى الشوارع والأرستقراطى المتعلم يتزوج من فتاة متعلمة!! أما فى «شعبان تحت الصفر»، النسخة المعدلة لفيلم «لو كنت غنى» بعد أربعين عاماً، يذهب نفس البطل المعدل فى نهاية الفيلم إلى السجن.

وفى هذا السياق أيضاً يتناول مسلسل «الراية البيضاء» الذى كتبه أسامة أنور عكاشة ولعب بطولته سناء جميل وجميل راتب وهشام سليم وسمية الألفى وحقق نجاحاً وشهرة مدوية فى أغلب الأقطار العربية. ولا يكتفى المؤلف بتحليل الشخصيات الرئيسية، بل يسعى للتعرف الشخصى على الممثلين. ولفت نظره مثلاً تحول هذه الشخصيات إلى رموز على ما يجرى، والأكثر أهمية أن بعض العبارات والجمل التى وردت على لسان «فضة». ولعبت دورها سناء جميل



منهاج التاريـــخ الغـربى

ومثلت قوة ونفوذ المال الجاهل فى السبعينيات. هذه العبارة تحولت فى الشارع إلى «قوة مستقلة» واكتسبت نفوذًا وهيمنة متزايدة. وبدأ الناس فيما بينهم يتبادلون هذه العبارات على نحو مستقل. وهكذا تحول مسلسل تليفزيونى بعد وأثناء عرضه إلى جزء أساسى من الحياة اليومية واكتسب دلالات أكثر اتساعًا.

وكما عبر أرمبرست فإن غرض «التركيبات الإعلامية من أمثال «الراية البيضاء» هو الجمع بين الصورة الحسنة (لابن البلد). الجوهرة فى الطيبة. والأفضل ثقافيًا، ويتم بذلك التوحيد بين ماضى مصر العامى الشعبى ومستقبلها الحداثى».. لكن «المعلمة فضة المعداوى». بنت البلد. تحولت هنا إلى رمز لفساد السبعينيات، بل وتحول الدكتور «مفيد أبو الغار» السفير وممثل الطبقة الوسطى إلى رمز للهوية القومية والقابض على التراث القومى والمدافع عنه.

فى الفصل التالى ينتقل لظاهرة الانقسام اللغوى، ويعرض للآراء المختلفة التى تناولتها، مؤكدًا أن التعليم العام «الموحّد للغة» هو الطريق الرئيسى للتحديث فى رأى الثقافة الرسمية، بينما تحفل الموسيقى الشعبية بإنجازات لا يمكن الاستهانة بها. فمقامات بيرم التونسى مثلاً تؤكد أن الثقافة الجماهيرية أكثر من مجرد فولكلور أو تعبير فنى ساذج شأنها شأن أعمال سابقيه مثل عبد الله النديم، أو لاحقيه مثل فؤاد حداد وصلاح جاهين وأحمد فؤاد نجم.

أما «الموسيقى الموهوب» محمد عبد الوهاب فيحتل الفصلين التاليين بوصفه الأسطورة التى استمرت منذ العشرينيات وحتى التسعينيات، وانتقل عبرعلاقته بالشاعر أحمد شوقى من صفوف الطبقات الشعبية التى ينتمى إليها، إلى طبقات أعلى من خلال التحول فى اتجاه الحداثة، ذات التأثير الغربى، حيث قام بتغيير «التخت» والبناء الموسيقى، وبدلاً من الطابع التركى، قدم طابعًا جديدًا يمزج بين الموسيقى الشرقية والغربية. وفى نفس الوقت يقدم المؤلف تحليلاً معمقًا لسلسلة أفلامه التى عبرت فى الثلاثينيات والأربعينيات عن حداثة تطمح للالتحاق بالغرب من خلال ابن الطبقة المتوسطة التى ألقى على عاتقها مهام التحول. غير أن عبد الوهاب كان بالغ الذكاء فى تحقيق هذه المهام، بل إن ذكاءه الشخصى وليس إنجازه الموسيقى هو فى الشهرة المدوية التى حققها.

أما فى السبعينيات فقد تغير كل شىء، لذلك يركز المؤلف على فيلمين لهما دلالة تتجاوز مجرد كونهما فيلمين سينمائيين، وهما «خللى بالك من زوزو» و«كابوريا»، كلاهما تعبير عن نبض جديد وتوجه مختلف. فى الأول تبدو الأحداث امتدادًا منطقيًا لفيلم عبد الوهاب «الوردة البيضاء»، على الرغم من أن تسعة وثلاثين عامًا تفصل بينهما. وبينما يدعو فيلم خللى بالك من زوزو إلى التخلى عن التراث المتخلف واللحاق بركب الحداثة دون إدانة التراث الشعبى إدانة كاملة، نجد فيلم كابوريا منحازًا لرفض الشباب الفقراء للأغنياء الفاسدين، فهم يعودون لحارتهم الفقيرة، وتقدم الأغنية. التى اورد المؤلف نصها. «قزقز كابوريا.. أنا فى اللابوريا» تعبيرًا مختلفًا عن مجتمع جديد ينهض.. اى أن وسائل الثقافة الجماهيرية تلعب دورها الحاسم فى التحولات وكذلك الإجابة على الأسئلة التى يطرحها التطور على المجتمع.

فى هذا السياق يجب مناقشة أمر مختلف لا يجب أن يغيب عن الذهن، وهو أن الباحثين الذين يرسلهم الغرب والولايات المتحدة، لم يعودوا مجرد «خواجات» يرتدون القبعات ويتعاظلون حول نصوص التراث، أو حتى أعمال المفكرين والكتاب القوميين والنهضويين، بل يتوجهون الآن إلى العمق، إلى اللهجات المحلية والثقافة الشعبية ووسائل الاتصال الجماهيرى والأغانى والمسلسلات والأفلام المؤثرة والمطروحة فى الشارع بقوة.

الكتب الثلاثة التى عرضتها فى السطور السابقة، ليست سوى أمثلة وتتوقف عند لحظات تاريخية متباينة تمامًا، غير أنها تكشف لنا عن بدايات تشكل خطاب جديد للمستعربين ولحركة الاستعراب. والمفارقة فى هذا الأمر، أن هناك الكثير مما يمكن الاستفادة منه للباحثين والمؤرخين العرب، وهناك أيضًا وسائل جديدة للدراسة والبحث أغفلناها للأسف■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

كيف تبلغ الآمال؟

يشعر كل مصرى بأن بلاده متأخرة عن سائر البلدان، وأنها ليست فى المكانة التى خلقت لأن تنالها بين الممالك والأوطان، ويحس كل واحد منا بأن هذا الوطن المصرى الغنى الكثير الخيرات لو كان لنا دون غيرنا لكنا أسعد الأمم وأحسن الشعوب، ويود لو رآه كذلك، ورأى أبناء جنسه أسيادًا فى بلادهم أعزاء فى ديارهم محترمين فى البلاد الأجنبية مبجلين حيث يذهبون. إذا عرف الأجنبى أنهم أبناء مصر انحنى لهم تعظيمًا وإجلالاً لشرف البلاد التى ينتسبون إليها وعظمة المملكة التى هم أبناؤها ولكن هذه الآمال وتلك الأمانى تحتاج ضمائر المصريين وتمر على أنفسهم آنًا بعد آن، لا تستقر عندهم ولا تجد منهم رجالاً يعملون لتحقيقها واحترامًا للوطن، أمناء يسرعون فى إحياء مجده ورد ثروته إلى أبنائه. نعم إنك لو طفت البلاد وجدت أهلها مجمعين على كراهة المحتلين مشغوفين بخلاص مصر من تحت نيرهم الثقيل، رأيت أفرادًا يمتازون عن غيرهم بالحمية الوطنية والغيرة الملية، ولكن لماذا هؤلاء الأفراد مفترقون؟ ولماذا لا نراهم مجتمعين حول لواء واحد لخدمة غرض واحد عاملين بإتقان لتحقيق آمالهم الطاهرة الشريفة موجهين قوتهم فى سبيل مشترك؟

نحن نعرف جميعًا أدواء مصر ومم تشتكى هذه الأم الحنون التعيسة. فكيف يكون الدواء في أيدينا ولا نعمل لشفائها من هذه الآلام القاسية والأسقام الشديدة؟

لعمرى إن ساعة العمل قد أذنت ولم يبق عذر لأحد فى التقصير عن خدمة الوطن العزيز وقد علم الخاص والعام أن خير سبيل للقيام بالواجب الوطنى هو نشر أنوار العرفان بين أبناء البلاد وتربيتهم على أساس متين.

الزهيمـــــر.. ســـــيرة

سو هولبرن

أعماق الظلمات

كتب «جارى سمول» فى كتابه «إنجيل الذاكرة» محذراً وناصحاً يقول: «ليس الوقت متأخراً جداً ولا مبكراً جداً لننتصر فى لعبة تقدم المخ فى السن» (إذا كان للسرطان قواعده، فإن لعبة الخرف ستكون أكثر إثارة)

■■ من الغرابة أن تنسب سيرة حياة لمرض «الزهيمر»، وكأن له حياته الخاصة المنفصلة عن حياة ضحاياه، غير أن «للزهيمر» بالفعل حياة خاصة يعيشها فى الرعب الذى يسببه. وقد قامت جمعية «ألزهيمر» فى ربيع سنة ٢٠٠٢م بإجراء استبيان شامل فى جميع أنحاء الولايات المتحدة. جاءت نتيجة الاستفتاء على النحو التالى: قال ٩٥٪ أن «ألزهيمر» مرض الخرف أو الجنون، مشكلة حقيقية تواجه الأمة، وقال القسم الأكبر من هؤلاء (٦٤٪ منهم) والذين تراوحت أعمارهم بين ٣٥ و ٤٩ سنة أنهم «مهمومون باحتمال إصابتهم بالمرض». يصيب الزهيمر ٥٪ من الأشخاص فوق سن ٦٥. و هناك الآن أربعة ملايين أمريكى مصابون «بالزهيمر». من المتوقع أن يرتفع عددهم إلى أربعة عشر مليونا بحلول منتصف القرن الحالى. ويقول «جارى سمول» (Gary Small) مدير أحد المراكز المعنية بالتقدم فى العمر. فى كتابه «إنجيل الذاكرة: استراتيجية جديدة للاحتفاظ بالمخ شابا» (The Memory Bible : An Innovative Strategy for Keeping Your Brain Young) «يوماً ما سنقترب كلنا من الإصابة بمرض ألزهيمر».

وبنفس المنطق يمكن القول بأننا «يوماً ما سنقترب أكثر من علاج مرض الزهيمر». وفى سنة ١٩٩٩ وأثناء انعقاد مؤتمر «الآلية الجزيئية لمرض ألزهيمر» الذى يعقد كل سنتين، قال أحد الباحثين اليابانيين «لدافيد شينك» مؤلف الكتاب الذى نعرضه «النسيان»: «لم يتبق سوى عشر سنوات تفصلنا عن علاج ألزهيمر». كان الباحث اليابانى سطحيا مثل بقية الباحثين الذين التقى بهم «دافيد شينك»، لكن أكثر هؤلاء سطحية كان «إيفان لايبربرج» (Ivan Lieberburg) رئيس البحوث والتطوير فى شركة «إيلان للأدوية»، والذى صرح «لدافيد شينك» قائلا: «إننا فى الواقع نقف على أعتاب عصر جديد، وأعتقد أننا قد اقتربنا كثيرا من خط المرمى».

جاء تصريح «لايبربرج» بعد مرور قرن كامل تقريبا على زيارة قامت بها امرأة مريضة للطبيب الألمانى «ألويس الزهيمر» (Alois Alzheimer). كانت المرأة مضطربة ولم تكن قادرة على تذكر اسمها، لكنها فيما يبدو كانت بصحة جيدة. وصفت المرأة حالتها بدقة قائلة: «لقد فقدت نفسى». وعلى مدى أربع سنوات ونصف بعد ذلك استمرت حالة المرأة فى التدهور ففقدت المقدرة على الكلام ثم على إطعام نفسها وعلى السير وأخيرا فقدت حتى المقدرة على إدراك عجزها. ارتبك «ألزهيمر» ولم يعرف كيف يشخص حالتها التى لم تكن تتسق مع أى مرض معروف. وعندما توفيت المرأة وشاهد «ألزهيمر» قطاعات من مخها اكتشف ما يمكن أن يكون السبب وراء الخرف المبكر الذى أصاب المرأة. ويصف «دافيد شينك» ذلك قائلا:

«لقد شاهد ألزهيمر المرض أخيرا بعد تكبيره مئات المرات تحت الميكروسكوب. كان المرض واضحاً فى المخ فيما يشبه بثور الحصبة أو الجديرى. وكان اللحاء ملطخا ومبقعا بتجمعات قشرية بنية اللون على شكل صفائح ميكروسكوبية بأعداد كبيرة. كانت الصفائح مختلفة الشكل والحجم والبنية، وكانت تبدو وكأنها خليط من حبيبات وخيوط قصيرة معقوفة، وكانت كمغناطيسات تجذب إليها النفايات. أما فى الطبقتين الثانية والثالثة من اللحاء فكان ثلث الخلايا العصبية. العصبونات. تقريباً مطموساً من الداخل بواسطة حزم نادرة من الشعيرات المتشابكة والمجدولة بشدة».

ومنذ ذلك الحين أصبحت الصفائح والتشابكات هى العلامات المميزة والمحددة للمخ المصاب بالمرض الذى صار يحمل اسم «ألزهيمر». وليس معروفا بالضبط أى هذه العلامات وراء موت الخلايا العصبية وانكماش المخ وانطواء الجسد على نفسه ثم وفاته: هل هى الصفائح أم التشابكات أم كلاهما؟ أم أن كل هذه الأشياء مجرد مخلفات يتركها المرض وراءه فى حطام الخلايا العصبية؟

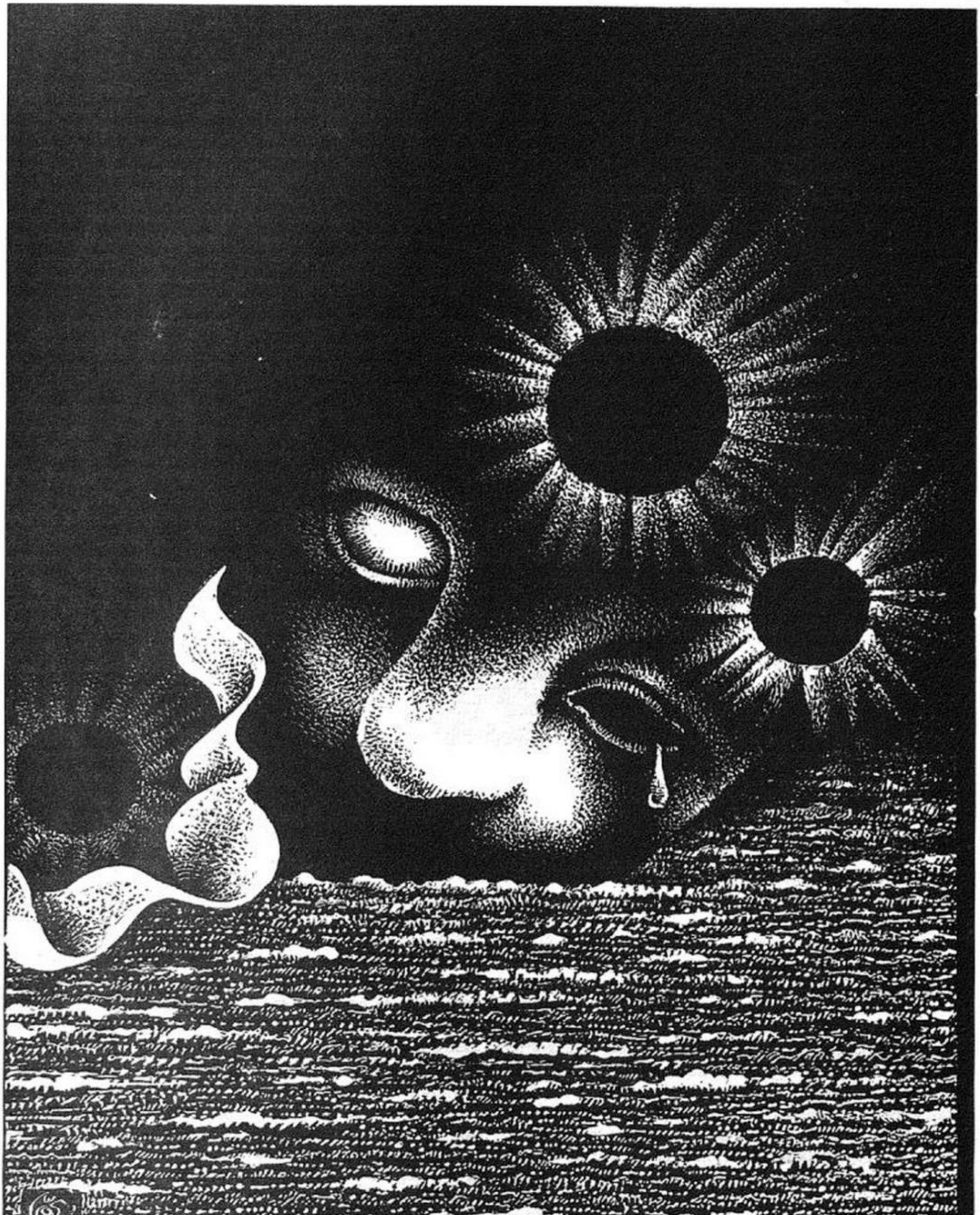
كان الباحثون فى شركة «إيلان للأدوية»، مثل معظم الباحثين يعتقدون أن الإجابة على هذه التساؤلات تكمن فى الصفائح. وقد جاء أحد الباحثين من هذه الشركة. اسمه «دال شينك» (Dale Schenk) وهو لا يمت بقرابة «لدافيد شينك» صاحب كتاب «النسيان». بفكرة جديدة وبسيطة تتلخص فى التطعيم ضد تلك الصفائح. قامت الفكرة على أساس أن الصفائح عبارة عن بروتين غريب عن الجسم البشرى اسمه «بيتاأميلويد» (beta-amyloid)، ولذلك إذا حقن المريض بكميات صغيرة من هذا البروتين فستتكون كميات من الأجسام المضادة له تكفى لاقتناصه والتخلص منه فى المخ، تماما كما فى حالة حقن كميات قليلة من فيروس حى ضعيف، مثل فيروس شلل الأطفال. لكى يحث نظام المناعة فيكون الأجسام المضادة للفيروس. وحيث إن نظام المناعة الطبيعى فى المخ (الحاجز الذى يمنع الدم من إغراق المخ) ليس متقنا تماما، فإن عدداً قليلاً من الأجسام غير المرغوب فيها تتمكن دائما من اختراق هذا الحاجز. لذلك فإن حقن بروتين «بيتاأميلويد» فى الدم سيؤدى فى النهاية إلى عبور عدد من الجسيمات المضادة للبروتين إلى المخ. ولما كان الجسم ينتج الأجسام المضادة بصورة مستمرة، فإن كمية لاتزيد على ثلاثة أجزاء فى الألف تعد كافية من وجهة نظر «دال شينك» لاختراق الحاجز.

بعد فترة وجيزة من تصريحات «إيفان لايبربرج» المندفعة حول انتهاء اللعبة تقريبا فى سنة ٢٠٠٠م، (قرب التوصل لعلاج لمرض ألزهيمر)، تأكدت فكرة «دال شينك» ونجحت الأجسام المضادة للبروتين «بيتاأميلويد» فى إزالة الصفائح من مخ فئران التجارب. لم تكن الفئران عادية، فالفئران العادية لا تتكون لديها صفائح فى المخ ولا تتعرض لمرض «ألزهيمر». كانت الفئران معدلة جينيا (Transgenic) بغرض تكوين صفائح فى مخها. وقد أظهرت تجارب «دال شينك» اختفاء الصفائح بعد الحقن باللقاح. كتب «دافيد شينك»:

«كان بروتين بيتاأميلويد المحقون يحث نظام المناعة فى الجسم لينتج الأجسام المضادة المطلوبة والتى كان جزء صغير منها يخترق الحاجز الفاصل بين الدم والمخ ويرتبط مباشرة ببروتين بيتاأميلويد فى المخ. وتتم إزالة المادة المركبة من

ترجمة فتح الله الشيخ
عن: New York Review of Books

حيـــــــــاة مـــــــــرض!



البروتين والأجسام المضادة بعد ذلك كنفاية من نفايات الخلايا».

تمكن «دال شينك» وباحثون آخرون من تكرار هذا النجاح مع حيوانات تجارب أخرى مثل خنازير غينيا والأرانب والقردة، ثم جاءت تأكيدات إضافية من الباحثين في جامعة جنوب فلوريدا، حيث اتضح أن الفئران المصابة لم تشف فقط بل أصبحت أكثر ذكاء. ويبدو أن التخلص من الصفائح قد مكّن الفئران من بناء تشابكات عصبية جديدة أكثر من تلك التي اجتثت بفعل المرض. وقد كتب «دافيد شينك» في كتابه النسيان: «لقد شُفيت الفئران تماماً وأصبحت عادية لطيفة ومحصنة ضد الإصابة بمرض الزهيمر».

أحدث النجاح الذي حققته شركة «إيلان للأدوية» دوياً كبيراً، فقد تناقلته وكالات الأنباء في جميع أنحاء العالم وسار معها في ركب هذا النجاح المدوي العديد من وسائل الإعلام مثل CNN وBBC ومجلة «التايم». ونشرت معظم وسائل الإعلام ما يفيد أن النجاح لم يكن مقصوراً على حيوانات التجارب فقط، بل تبين أن «بيتاأميلويد» غير ضار بالإنسان. لم يكن ذلك يعني أن اللقاح يعمل بنجاح في حالة الإنسان، لكنه كان آمناً ويسمح بتجربته على متطوعين لتحديد فعاليته.

كانت هذه هي لحظة الأمل التي انتهى عندها كتاب «النسيان» في سرده لسيرة حياة مرض «ألزهيمر» لكن السباق من أجل العلاج كان لايزال مشتعلاً وبدا وكأنه قاب قوسين أو أدنى من النهاية. انعكس ذلك في لمسة الحزن التي دغدغ بها «دافيد شينك» أحاسيسنا في كتابه:

«في دراستنا للزهيمر نستعرض مراحل حياتنا لندرك ما ينتابها من اهتزازات والتواءات. فعندما يتقدم المرض بلا رحمة نحو الانطفاء النهائي لمن يعانونه، يكون بمثابة ممارسة للموت بصورة يندر أن تتوفر بطريقة أخرى. فاللحظة الفاصلة التي تخفق فيها الروح نراها في عرض بطيء جدا يمتد لسنوات. إنها شيء مؤلم بشكل أكثر كثيراً مما يمكن أن يتخيله بشر، لكنها كذلك قد تكون أكثر الأمور حدة وتأثيراً فيما يتعلق بالسؤال الحائر: لماذا وكيف أصبحت الحياة الإنسانية أمراً غير عادي؟ وهي. اللحظة الممتدة لسنوات. أفضل ما نملك حتى الآن من وسائل نسلطها على مفهوم الضياع».

كل ذلك حقيقة كانت وما زالت قائمة. في يناير ٢٠٠٠م وبعد عامين من الإعلان المدوي عن الشفاء الموعود بواسطة لقاح «بيتاأميلويد» وبعد أقل من ستة أشهر من ظهور كتاب «النسيان» اضطرت شركة «إيلان للأدوية» أن تعلن عن شيء آخر لكن في هدوء ودون ضجة إعلامية أو صخب. ظهر الإعلان على موقع الشركة في «الإنترنت»: «فجأة وبدون مقدمات أُصيب أربعة من المشاركين في المرحلة الثانية لاختبارات فعالية لقاح «بيتاأميلويد» بالتهاب في المخ (Encephalitis)، والسبب غير معروف». [التهاب المخ. حالة تصيب المخ نتيجة العدوى بفيروس في معظم الأحوال أو بالبكتريا في حالات قليلة، وتختلف أعراضه من مجرد صداع خفيف لفترة محدودة إلى الحمى والغيبوبة ثم الوفاة. المترجم] وبعد شهر أي في فبراير سنة ٢٠٠٠م أصيب أحد عشر شخصا من مجموع الثلاثمائة المشاركين بنفس الالتهاب في المخ. وقد صرح «إيفان لايبربرج» لمندوب «الواشنطن بوست» بأنه لم يلحظ أبدا أية علامة تدل على أن هذا الشيء الفظيع يمكن أن يحدث، وأن الأمر كله صدمة كبيرة «لإيلان». وفي مارس أوقفت الشركة تجاربها على لقاح «بيتاأميلويد» لكنها ما زالت تواصل أبحاثها على أدوية أخرى لمرض «ألزهيمر» عن طريق إثارة جهاز المناعة ضده.



وفي مواجهة الإخفاق في التوصل إلى دواء لعلاج المرض، كما حدث لشركة «إيلان»، وندرة ما يمكن الاعتماد عليه من أدوية أخرى، وفي ضوء التحديات التي تضعها الحياة أمامنا، وفي وجود جيل يتوقع أن يرى أعدادا متزايدة من أبنائه تقع ضحية «للزهيمر» (سواء ضحية مباشرة للمرض أو تكاليف مرتفعة للإنفاق عليه أو مجرد معايشته في الأهل والأصدقاء)، في هذا الجو لا بد أن يرتفع توزيع أي كتاب مبسط في علم الأعصاب. وتخاطب الكتب من هذا النوع المصابين بالمرض من جهة وجمهور القراء المعرضين للإصابة به من جهة أخرى، وهم ببساطة نحن، أي الذين يستشعرون زحف المرض البطيء الماكر بشدة. ولا تمثل هذه الكتب علامات ثقافية في لحظة معينة من تاريخ الطب فقط بل تمثل كذلك علامات شاهدة على العجز الجماعي الذي تتنامى أعداد المصابين به.

وترتبط هذه الكتب ببعضها بشكل قدري محتوم، فكلها تلعب على أوتار الرهبة والخوف متاجرةً بالأمل. وقد تورط في ذلك كتاب «لورانس والي» (Lawrence Whalley) العلمي الأكاديمي بعنوان «الدماغ الذي يتقدم في العمر» (The Aging Brain)، ومع ذلك فهو مقروء بيسر. قام المؤلف في هذا الكتاب بعرض وتحليل الأبحاث الحديثة ليرسم خريطة التغيرات الفسيولوجية التي تحدث في المخ عندما يتقدم العمر بالإنسان. ولا يتناول الكتاب الموضوع بمصطلحات علمية رفيعة فقط بل يستخدم لغة ميسرة لطيفة. كتب «والي» في مقدمته: «يعتمد هذا الكتاب على التقدم الهائل في أبحاث البيولوجيا الجزيئية وتقنية الكمبيوتر ويتسلح بهما في مواجهة التشاؤم السائد حيال ما يخبئه لنا المستقبل». ويقول في مكان آخر من المقدمة: «تعرض هذه الأفكار الجديدة احتمالات حدوث تحولات للحياة في مراحل العمر المتقدم وذلك بإيقاف التلف الذي يصيب خلايا المخ ويدفعه إلى التدهور. وقد يصبح من الممكن توجيه هذه العملية في الاتجاه العكسي. أي إعادة إحياء الخلايا العصبية التالفة».

وفي الواقع فإن أسلوب كتاب «الدماغ الذي يتقدم في العمر» أكثر جاذبية من المقدمة. ويميل «لورانس والي»، الذي كان عضوا في الفريق الذي اكتشف في سنة ١٩٨٠م الارتباط بين الكروموزوم ٢١ والإصابة المبكرة بمرض «ألزهيمر»، يميل إلى توجيه الأسئلة أكثر من ميله إلى صياغة الاستنتاجات من الأبحاث التي يعرضها، وهو لا يفضل التفسيرات البسيطة والمألوفة للأبحاث. فمثلا، يتسلسل تفكيره على النحو التالي: إننا لا نتوقع أن تؤدي مناقشة تأثير «الشقوق الحرة» (Free Radicals) على تلف الخلايا العصبية إلى اندفاع القراء لتناول جرعات كبيرة من فيتامين (E هـ) ومضادات الأكسدة الأخرى، لكن سيؤدي ذلك بالأحرى إلى استيضاح ما إذا كانت الأكسدة سببا في تلف الخلايا العصبية أم أنها نتيجة لهذا التلف. وقد يكون بروتين «بيتاأميلويد» هو المسئول عن تكون الشقوق الحرة في مجرى الدم. ومن الممكن أن تؤدي دراسة الخصائص السمية العصبية لهذا البروتين إلى اقتراح استراتيجيات علاجية تتضمن إضافات من فيتامين (E هـ) الغرض منها الإقلال من التأثيرات السمية العصبية «لبيتاأميلويد».

وفي مكان آخر يتناول «والي» اللدانة (المرونة) الأساسية للمخ، أي مقدرة المخ على بناء الوصلات وإعادة توجيه نفسه، الأمر الذي قد يكون حاسماً في التغلب على أنواع معينة من التلف الذي يصيب المخ، فيقول:

«تنتشر بين الباحثين شكوك لها أساس قوي من الصحة تتعلق برد الفعل المتفاوت تجاه التقدم في العمر، فبعض وظائف المخ تتأثر أكثر من غيرها. ومن المثير في الأبحاث الجارية الآن محاولة اكتشاف مصدر هذا التفاوت. فإذا ثبت أن السبب بيولوجي (وهو على الأرجح كذلك)، فإننا نكون قد اقتربنا من اكتشاف الكيفية التي نسترجع بها مقدراتنا العقلية مع تقدمنا في السن».

كتب «جاري سمول» في كتابه «إنجيل الذاكرة» محذراً وناصحاً يقول: «ليس الوقت متأخراً جداً ولا مبكراً جداً لننتصر في لعبة تقدم المخ في السن» (إذا كان للسرطان قواعده فإن لعبة الخرف ستكون أكثر إثارة). وتتضمن استراتيجية النصر التي يقترحها «سمول» النوم لفترات كافية (يحتاج المخ للنوم ليعيد رص وترتيب الذاكرة) والإقلال من الضغوط (تدفع الضغوط الجسم ليفرز هرمونات تتداخل مع الذاكرة وتطمسها) وتناول الكثير من ثمار الطماطم والتوت (فهي من المصادر الجيدة لمضادات الأكسدة) وتجنب الدهون الضارة (حان الوقت للبدء في حمية. ريجيم. منخفضة الدهون لنحتفظ بمخنا شابا وندرأ عن أنفسنا مرض «الزهيمر») وممارسة التمارين الرياضية بانتظام (تزويد المخ بالمزيد من الأكسجين لأيض أفضل للسكريات)، غير أن أكثر ما ينصح به «سمول» هو التدريبات الذهنية مثل تعلم لغة أجنبية أو حل الكلمات المتقاطعة والمسائل الرياضية أو الاهتمام بهواية معينة. ويؤكد «سمول» أن كل هذه الأشياء ستمكن القارئ من الانتفاع بلدانة. مرونة. المخ:

تمر المعلومات في أدمغتنا خلال بلايين الزوائد الدقيقة التي تمثل

أطراف خلايا المخ، وهى تشبه فروع وأغصان الشجر التى تصغر فى الحجم كلما ازدادت تشعبا وامتدت إلى الخارج. وإذا لم تستخدم هذه الزوائد فإنها تنكمش وتضمر، لكننا إذا مارسنا التدريبات الذهنية الجديدة بطريقة خلاقة ستداوم الزوائد نشاطها كلما عبرت من خلالها معلومات جديدة. والجدير بالذكر أنه بهذه الطريقة يمكن ان تتكون زوائد وأطراف جديدة حتى بعد ضمور الزوائد والأطراف القديمة فى خلايا المخ. وتدل الشواهد على أنه يمكننا إنشاء زوائد أو أطراف جديدة وجعلها تمتد بعدة طرق. فالنشاط اليومى العادى مثل العناية بالحذاء أو غسل الأطباق يمكن أن تمثل رحلة «المخلوقات الميكروسكوبية». التى هى خلايا المخ. بأطرافها وزوائدها إلى «صالة الجمنيزيوم».

ويعتمد الأطباء على المفاهيم العلمية الأساسية فى ممارسة أعمالهم حتى ولو كانت لهجتهم منفرة ومتهكمة أحيانا. وهم يقومون بتصوير المخ بطريقة المسح الطبقى بالانبعاث الموجب (Positive Emission Tomography) ويرمز لها اختصارا : (PET) وقد أظهرت هذه الصور أن نشاط المخ يزداد عند تعلم شىء جديد أو بالمواظبة على التعليم والتحصيل. وقد بينت الدراسة الشهيرة التى أجراها «دافيد سنودين» (David Snowden) على أكثر من ٧٠٠ (سبعمائة) راهبة لمدة ١٥ عاما أن الأذهان الأكثر انشغالا هى الأقل احتمالا فى الإصابة بمرض «ألزهيمر». ومن المعروف أن بعض أجزاء المخ تتوقف عن العمل إذا لم تستخدم، فإذا استعرنا مرة أخرى تعبير «تدريب خلايا المخ فى الجيمنيزيوم» فإننا سنجد أن ذلك يؤدى إلى تخليق المسارات العصبية. ويبدو أن هذه المسارات تقوم مقام الخلايا العصبية عندما تموت الأخيرة فى منتصف العمر أو فى الشيخوخة.

يحذو «جون راتى» (John Ratey) - أستاذ علم النفس بكلية الطب جامعة هارفارد. حذو «جارى سمول» فى كتابه «دليل استخدام المخ» (User's Guide to the Brain) فى اقتناعه بأن قيمة الكتاب الموسوعى. مثل كتابه. تكمن فى كونه مفيدا، ويكتب «فإذا فهمنا كيف يتطور المخ لاستطعنا تدريب مخنا من أجل حياة صحية مزدهرة ومديدة». والأمر الواضح دون موارية خلف هذه الكلمات هو أن أى واحد منا يستطيع أن يدرأ القدر «الإحصائى المحتوم» ويتجنب الجنون أو الخرف. وهو نفس المعنى الذى تناوله كتاب «إنجيل الذاكرة» وبدرجة أقل كتاب «الدماغ الذى يتقدم فى العمر». وفى الحقيقة فإن هذه المقدرة تكمن فى أدمغتنا نفسها. وكما يقول «جون راتى»: «فى نظام معقد مثل المخ يعتمد الأمر علينا كليةً».

ويبين ذلك أهمية وخطورة أن نعرف كل شىء عن المخ، ولنا بعد ذلك الحرية المطلقة وحيث إن كل ما نفعله يؤثر فى كل ما يتبع ذلك فإننا نجد المخ يتطور بطريقة لا يمكن التنبؤ بها. والعامل الجينى (الوراثى) مهم لكنه ليس الوحيد الذى يحدد مسار تطور المخ، فقد يكون لبعض العوامل الأخرى نفس التأثير فى حياتنا مثل نوع التدريبات التى نمارسها والنوم وقائمة الغذاء والأصدقاء والأنشطة التى نختارها.

وقد بذل الباحثون الكثير من الجهد خلال العقدين الأخيرين فى البحث عن الأساس الجينى لمرض «ألزهيمر» فى محاولة لاكتشاف علاج طبى له، وتمييزا للمفهوم الوراثى عن مفهوم «الحرية المطلقة» عند «راتى». وفى هذا الصدد قام «لورانس والى» بإحصاء المحاولات المتعددة والمتداخلة لفك الشفرة الجينية للمرض فى أكثر الأجزاء تشويقا وتحديا من كتابه. وقد تضمنت هذه المحاولات أبحاثه الخاصة والتى ساهمت فى محاولة الربط بين «أعراض داون» [(Down's Syndrome) أعراض تنتج عن خلل فى الكروموزومات وتظهر فى التخلف العقلى وتفلطح الوجه ووجود انثناءات فى الجلد عند حافة العين الداخلية ولذلك كان يسمى «المنغولية» ويمكن اكتشافه فى الأجنة قبل ولادتها. المترجم] ومرض «ألزهيمر» وذيل الكروموزوم ٢١ [الكروموزوم. بنية معينة موجودة فى أنوية الخلايا الحية تحمل الجينات، ويتكون كل كروموزوم من ضفيرة طويلة جدا من دنا DNA الحمض النووى، ملفوفة، ويملك الإنسان ٤٦ كروموزوما فى خلاياه. المترجم] ومن المعروف أن كل من يصاب بأعراض «داون» ينتهى الأمر به مصابا بمرض «ألزهيمر»، كما أنه من المعروف كذلك أن المصابين بأعراض «داون» يمتلكون نسخة إضافية من الكروموزوم ٢١ أو نسخة إضافية من ذيل هذا الكروموزوم ملتصقة بكروموزوم آخر. لذلك من المتوقع أن يكون هناك شىء ما يستحق أن نعرفه عن مرض «ألزهيمر» مختبئاً فى داخل الكروموزوم ٢١، وهكذا شرع العلماء فى جمع مكتبة جينية خاصة بذيل الكروموزوم ٢١، وأخذوا ينقبون بالذات عن الأسر التى تتكرر فيها الإصابة بمرض «ألزهيمر». وفى نفس الوقت كان هناك باحثون آخرون فى معامل أخرى يحاولون فك شفرة (تسلسل) بروتين «بيتاأميلويد».

أدى الفحص الدقيق للمكتبة الجينية لذيل الكروموزوم ٢١ المستخرج من اللحاء البشرى إلى اكتشاف التطابق بين جزء من «دنا» (DNA) مع التسلسل فى بروتين «بيتاأميلويد». كان ذلك جزءاً من جين مشفر للبروتين المكون من ٦٩٥ حمضاً أمينياً يطلق عليه الآن «سلف بروتين الأميلويد» (Amyloid precursor protein) أو اختصاراً APP .



لم تكن الخطوة التالية مفاجأة بالمرة فقد اكتشف الجين APP فى الكروموزوم ٢١.

أدى ذلك إلى اكتشاف السبب فى إصابة عدد قليل «بالزهيمر» فى سن مبكرة، والذى اتضح أنه خلل فى بنية APP . وقد بينت البحوث التى جاءت بعد ذلك أن حالات أخرى للإصابة المبكرة بمرض «ألزهيمر» قد تسبب فيها تطفير زوج من الجينات الموجودة فى الكروموزومين ١ و ١٤.

وتصل نسبة الإصابة المبكرة «بالزهيمر» إلى ١٠ ٪ من مجموع المصابين. لكن المرض يصبح أكثر انتشارا بعد سن الخامسة والستين وتتضاعف أعداد المصابين به كل خمس سنوات من التقدم فى العمر بعد ذلك. وهؤلاء المصابون هم من كان «ألويس ألزهيمر» يظن أنهم يعانون من مجرد التقدم فى السن. وبينما يرتبط مرض «ألزهيمر» بالتقدم فى السن، فإن العوامل الجينية بلا شك لها تأثير ملحوظ هى الأخرى. ويبدو أن إحدى صور جين معين يقوم بتخليق بروتين ينقل الدهون والكوليسترول عبر الجسم (بروتين APOE 4) تزيد من احتمال إصابة المسنين بمرض «ألزهيمر» بنسبة ٤٠ ٪. وقد لاحظ «والى» أن هذا الجين يظهر فى ٢٢ ٪ من حالات الإصابة «بالزهيمر». لكن كيف ولماذا يحدث ذلك؟ لا يعرف أحد حتى الآن. وتبعاً لأحد الفروض فإن هذا الجين يعمل كمرافق أو وصيف جزيئى يلازم «بيتاأميلويد» عبر المخ. لكن فرضا آخر يقول أن هذا الجين يقلل من مقدرة المخ على تكوين التشابكات.

وقد أصبح من الممكن اليوم الكشف عن (APOE 4) عند الأشخاص لتحديد المعرضين منهم للإصابة بمرض «ألزهيمر». لكنهم ليسوا بالقطع سيصابون بالمرض. وتكمن فائدة الكشف عن APOE 4 ، كما يقول «جارى سمول»، فى إعداد الأشخاص المعرضين للإصابة ليتبعوا أسلوبا معينا فى تدريب المخ وممارسة التدريبات الرياضية وتقليل الدهون فى طعامهم. (لاحظ «جارى سمول» أن الأشخاص الذين ثبت وجود APOE 4 لديهم وقاموا باتباع حمية. ريجيم. غذائى منخفض الدهون قد تحسنت فرصتهم كثيرا فى تجنب المرض).

من الممكن أن يكون تغيير أسلوب الحياة هو بداية الطريق للفكاك من القدر المحتوم (الإصابة بالمرض) أو حتى تجنبه تماما. وحيث إن وجود الجين عند شخص ما لا يعنى بالضرورة أنه سيصاب بالمرض، وحيث إن تسجيل وجود الجين فى التاريخ الطبى للشخص سيصمه بعلامة مميزة مما يستوجب السرية التامة، فإن المعهد الوطنى للتقدم فى العمر وجمعية «ألزهيمر» دأبا على تسجيل اعتراضهما على استخدام الكشف الجينى لتحديد الأشخاص المعرضين للإصابة بالمرض. ولا تجرى عملية الكشف عن الجين APOE 4 الآن إلا فى حالات الشك فى التشخيص التى يرجح فيها الإصابة (وحتى الآن لا يمكن إجراء التشخيص النهائى إلا بعد الوفاة عندما يمكن تشريح المخ)❖❖، وهو ما يتبعه الباحثون جميعا بمن فيهم «جارى سمول».

وينحاز الباحثون للرأى القائل بأن مستوى التحصيل التعليمى هو أفضل مؤشر لا يمكن التغاضى عنه للتنبؤ باحتمال الإصابة بمرض «ألزهيمر». ويصدق هذا المؤشر على الدراسات التى تجرى على الأعداد الكبيرة مثل راهبات «دافيد سنودين» أو الأبحاث التى أوردها كل من «والى» و«راتى» و«سمول». ولا يستطيع أحد أن يعرف لماذا أو كيف تعمل هذه الآلية؟ لكن من الحكمة البحث عن تفسير لها. وقد وجد «جارى سمول» وفريقه أثناء فحص مجموعة من الشباب الأصحاء أنه :

«عندما دراستنا تأثير التعليم العالى بالإضافة إلى العامل الجينى APOE4 للزهيمر،

وجدنا كما توقعنا أن الشباب ذوى النشاط الذهنى الأكبر هم الذين أنهوا دراستهم الجامعية ولا يوجد لديهم الجين APOE 4. ومن المثير أننا اكتشفنا ان تأثير التعليم العالى على مخزون (أو رصيد) النشاط فى مخ الإنسان أقوى من تأثير الجين الخطر APOE 4 ، غير انه لا توجد أية دلائل تفسر آلية الحماية التى يوفرها التعليم لخلايا المخ».

وقد تكون العلاقة بين التعليم العالى ومرض «ألزهيمر» مجرد علاقة وصفية أكثر منها شيئا يمكن توظيفه لتوقع الإصابة بالمرض. يقول كل من «والى» و«سمول» أن الالتحاق بالتعليم العالى ربما يكون نتيجة لأمور أخرى تؤثر فى حد ذاتها على الصحة عموما وعلى تطور المخ بالتحديد، مثلها فى ذلك مثل التغذية الجيدة أو الحياة الرغدة. وربما يكون الأشخاص الذين اختاروا متابعة التعليم العالى هم الذين يتمتعون بمخ فطن ذكى ومتزن، حتى فى السن المبكرة، يجنبهم الإصابة بالخرف. أما «دافيد سنودين» و«جارى سمول» فمن رأيهما أن عينة من كتابات الأشخاص وهم فى العشرينيات من عمرهم تمثل مؤشرا جيدا لاحتمال الإصابة بالزهيمر عندما يتقدم بهم العمر، فكلما كانت الجمل المكتوبة أكثر تعقيدا فى بنيتها، قلت فرص الإصابة بالخرف بعد أربعين أو خمسين سنة. وعلينا أن نرصد منذ الآن ما سيحدث فى بلدنا (الولايات المتحدة) الذى تتزايد فيه نسبة الشباب الذين يختارون الالتحاق بالتعليم العالى لنرى مدى صحة هذا الرأى.

تصنع الاستثناءات الإحصائية قصصا جيدة مع أنها لا تثبت أى شىء. ومن هنا تأتى قيمة كتاب «دافيد شينك» . «النسيان»، فهو لم يصبح سيرة حياة لمرض «ألزهيمر» بل أخذ يتتبع مسار المرض فى عدد من مشاهير المفكرين والفنانين مثل «رالف والدو إيمرسون» (Ralph Waldo Emerson) و«جوناثان سويفت» (Jonathan Swift) و«ويلام دى كوننج» (Willem de Kooning) ويلام دى كونينج هو حالة «ألزهيمر» الوحيدة المؤكدة، أما الآخران فقد لقيا منيتهما قبل اكتشاف مرض «ألزهيمر». وقد بنى «دافيد شينك» تشخيصه لمرضهما من واقع السجلات. عاش كل من هؤلاء حياة ذهنية متميزة، وكان كل منهم نشطا ذهنيا حتى حلول اللحظة التى هجره فيها ذكاؤه. (وفى لحظة نادرة وربما غير مسبوقة فى حدة الذهن بالنسبة لشخص يعانى مرض «ألزهيمر» غادر «سويفت» هذا العالم وهو يكتب «إننى غبى»). أما حالة «دى كونينج» فهى تثير أسئلة مهمة حول الفن والعزم والتصميم: ما قيمة العمل الذى ينتج والمخ ملىء بالثقوب؟ غير أن قصة «دى كونينج» أخاذة. أما «إيمرسون» فقد كتب فى مقاله «الذاكرة» سنة ١٨٥٧م يقول: «إننا نقيم الإنسان بقدر ما يتذكره» وبحلول عام ١٨٨١م كان بالكاد يستطيع أن يوقع باسمه، وإذا فعل فإنه كان لا يتذكر ذلك.

كان التدهور الذى أصاب «إيمرسون» مذهلا للذين من حوله، وتبعا لرواية ابنه «إدوارد»، فإن الكاتب نفسه لم يكن يلحظ ذلك. ويظن البعض أن هذا النسيان النهائى بمثابة عزاء أو مواساة لمرضى «ألزهيمر»، فالشخص المصاب لا يعى ولا يدرك ما الذى فقده.

وقد كتب «إدوارد إيمرسون» فى أواخر أيام والده أنه كان يعانى قليلا جداً.

لكن، هل النسيان عزاء ومواساة بالفعل؟ تجىء الإجابة عن هذا السؤال من كل صفحة من صفحات مذكرات «دى باجيو» (DeBaggio) الفظيعة وعنوانها «فقدان العقل». كان «دى باجيو» يكسب عيشه من العمل بستانيا فى واشنطن D.C. ومن الكتابة. أصيب الرجل «بالزهيمر» سنة ١٩٩٩م وهو بعد فى السابعة والخمسين من العمر. وفيما عدا ذلك فقد كان صحيحا وسليما ونشطا من الناحية الجسمانية، وقد أنجز ثلاثة كتب وله تاريخ سياسى حافل وأسرة متماسكة. لكن شيئاً من ذلك لم يشفع فى التغلب على ما يمكن أن نسميه الحظ الوراثى السيئ:

«كنت أغضب... عندما أسمع شخصا ما يتحدث عن هذا المرض وكأنه جاء نتيجة تغذية غير صحية أو سلوك سيئ... يمكنك أن تفعل كل ما هو صحى وجيد لتمتد حياتك أكثر، كما يمكنك اعتناق فكرة أن الإنسان يمكن أن يعيش حتى ٢٠٠ عام، لكن لا تنس أن لك والدين، رجالاً ونساءً جاءوا نتيجة قرون من التبادل الجينى... وعندما تستيقظ من نومك كل صباح فإنك تفعل ذلك وأنت مثقل بحمل من تاريخك الوراثى... وهو حمل لاتشعر به لخفته... وليس خطأك أن يكون لك جين معطوب سيقضى عليك يوما ما، لكنه نصيبك أو قدرك الذى عليك أن تحمله على كاهلك أينما ذهبت..ولا مجال للتأنق وأنت تلاحق صحتك».

ولا يحتوى «فقدان العقل» أى تأنق، فالتأنق مثل أوجه الثقة بالنفس الأخرى ليس متاحا لذهن يعج بالشكوك والصمت. (يكتب «دى باجيو»: عندى إحساس واضح بالتاريخ، لكننى لا أدرى هل هذا التاريخ يخصنى أم لا؟) تختفى الألفاظ (الأسماء) التى تلازم الأشياء ويختفى معها الإحساس بالأماكن وبالحدود الفاصلة. لكن الذكريات البعيدة تبقى. ويجاهد «دى باجيو» أن يجمع سويا قطعا من ذكرياته الخاصة معا (بطريقة التفكيك والتربيط) بلا نظام واضح ليمنح حياته تاريخا. وعلينا أن نتخيل التحديات المعجزة القاسية التى واجهها ليضع الجمل والفقرات فى كتابه دون أن يشعر بذلك. كانت كتابته سلسة على الرغم من الصعوبة البالغة التى كانت تواجهه لمجرد الكتابة. «لقد علمنى «ألزهيمر» أن أبحث فى نفس المكان عدة مرات عن الشىء الذى أريده» كما يقول:



«ترسو الحياة على شاطئ الذكريات». كانت كلماته تشع ذكاء وشوقا إلى الانطلاق والحرية، وكانت كلماته تنير عالما ممتدا من الظلام.

استغرق الأمر تسعة أشهر، لم يكن بعدها «دى باجيو» قادرا على حمل هذا المشعل المضىء. أصبح يتعثر ويتوقف بين الكلمات لكن اللغة لم تعجزه أبدا فقد كان عليه أن ينتهى من الكتاب. «إننى أقف على حافة عالم جديد، وهو مكان لن أتمكن من وصفه» ثم يكتب فى النهاية «إنه آخر الأماكن المختبئة، يقف عليه نصب كأنه شاهد على ضريح... إنه أمر موحش أن تقف فى انتظار الذاكرة، أن تتوقف، وأنا خائف ومرهق». كان الصمت فى آخر صفحة من الكتاب هو صمت الكاتب..وكان رهيبا مدويا.

وتدور آلة التنافس فى البحث العلمى يحركها فناء الأشياء. وقريبا ستختفى من على الأرفف الروائع التى كتبها «لورانس والى» و«جون راتى» و«جارى سمول» ليحل محلها روائع أخرى أكثر حداثة. وفى غيبة العلاج والدواء ستعنى بعض هذه الكتب بتلطيف وتخفيف الرعب والمخاوف التى يفرضها مرض «ألزهيمر». وقد تنجح بعض الكتب فى ذلك، لكن كتاب «فقدان الذاكرة» لن يلعب هذا الدور ولن يسكن مخاوف أى أحد. لذلك، ولهذا السبب بالذات، وللجمال الرهيب والصدق الذى يضمه الكتاب بين دفتيه، لن يصبح هذا الكتاب قديما أبدا.

نهاية الحديث:

تمكن الباحثون فى جامعة «تكساس» فى الولايات المتحدة من استزراع خلايا جذعية (stem cells) فى مخ فئران التجارب وتحويلها إلى خلايا عصبية مستخدمين مواد كيميائية معينة. وهكذا يبزغ أمل قوى أن نتمكن يوماً ما. لعله ليس ببعيد. من تعويض الخلايا العصبية التالفة فى مخ الإنسان للقضاء على أمراض مثل «ألزهيمر». ■

هوامش

The Forgetting: Alzheimer's Portrait of an Epidemic by David Shenk

The Memory Bible: An Innovative Strategy for Keeping Your Brain Young By Gary Small, M.D.

A User's Guide to the Brain: Perception, Attention, and the Four Theaters of the Brain By John J. Ratey, M.D.

The Aging Brain By Lawrence Whalley

Losing My Mind: An Intimate Look at Life with Alzheimer's By Thomas DeBaggio

(*) مواد كيماوية فى غاية النشاط تتفاعل بسهولة جداً وتنتج بصورة طبيعية فى الجسم ولها علاقة بالإصابة بالزهيمر والسرطان وأمراض القلب.

(**) كتب الدكتور «سمول» فى حاشية على كتابه «إنجيل الذاكرة» يقول إن أعضاء فريقه البحثى قد اكتشفوا طريقة حديثة لرصد صفائح «أميلويد الزهيمر» والتشابكات أثناء تراكمها فى مخ أشخاص على قيد الحياة، وذلك بواسطة حقن المرضى بمادة كيماوية تسبب تلوين الصفائح والتشابكات أثناء تصويرها بطريقة PET .

«خريطـــة» أمريكيـــة....

متـــاهــــــة الفلســطينيين

صغاراً كنا حين جرّبنا لأول مرة الألعاب المطبوعة على ورق. وكانت أول تلك الألعاب «متاهة الطريق». وكانت فى أيامنا . ما قبل الـ Video Game . تكاد تكون ركناً ثابتاً فى مجلات الأطفال. ولا أعرف لماذا كانت تنتابنى دائماً مشاعر الغيظ من مصممى تلك اللعبة. وأتساءل: لماذا لا يكون «الطريق» مباشراً: خطاً مستقيماً بين النقطتين؟ متجاهلاً، عن عمد . أو عجز . أن تلك هى الحكمة من «اللعبة».

وكان أن اطلعنا بعد أسابيع من مبادرة الأمير عبدالله التى اعتمدتها قمة بيروت (مارس ٢٠٠٢) مبادرةً «عربيةً» للسلام (شاملةً وواضحةً ومحددة) على ما تسرب من أفكار «أوربية» لخطة سلام لحقتها على مدى أشهر ثمانية تعديلات وصياغات وتدخلات، عديدة، قبل أن ترتدى ثوبها «الأمريكى» الفضفاض وتنشر رسمياً فى الرابع عشر من الشهر الماضى (يونيو) وباسمها الأمريكى الموحى «خارطة الطريق». ويجرى ترويجها . بالصورة والكلمة . على أنها تجسيد لـ«رؤية» الرئيس. الذى هو فى الحقيقة ذاهب إلى انتخابات قد لا تجعل منه «الرئيس» بعد أشهر.

يومها تذكرت اللُعْبَة القديمة: «متاهة الطريق». وأنها هكذا لأن تلك هى الحكمة من اللعبة.

هل تذكرون كم لُعْبَةً تاه فيها الفلسطينيون؟

الملف مزدحمٌ بالاتفاقات والمعاهدات والخطط والمبادرات والخرائط والتفاهمات. والذاكرة مُرهَقَةٌ بأرقام قرارات وتوصيات وأسماء مدن وعواصم ومؤتمرات. وفى النهاية.... لا شىء.

هل تذكرون ١٨١ الذى يتناساه الجميع و٢٤٢ الذى أدمن التواجد فى كل تصريح ووثيقة و١٩٤ الخاص باللاجئين والذى يعتبره كوفى عنان. بحكم وظيفته . مازال سارى المفعول، فى تصريح له قبل أيام.

وهل تذكرون مدريد، أوسلو، واشنطن، كامب دافيد، بلير هاوس، شيبرز تاون، جنيف، شرم الشيخ وطابا.

وهل تذكرون توصيات ميتشيل (ابريل ٢٠٠١) وتفاهمات تينيت (يونيو ٢٠٠١) واتفاقات شرم الشيخ (سبتمبر ١٩٩٩ وأكتوبر ٢٠٠٠) والقاهرة (مايو ١٩٩٤) وواى ريفر (أكتوبر ١٩٩٨). وهل تذكرون مسارات مدريد ولجانه متعددة الأطراف. وهل تذكرون أن اتفاقات أوسلو ١٩٩٣ («سلام الشجعان» ذا الصورة الشهيرة فى حديقة البيت الأبيض) كانت تنص على مرحلة انتقالية لمدة خمس سنوات (تنتهى فى ١٩٩٩) تمهد لتسوية دائمة تقوم على أساس قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ وذلك بافتراض أن المفاوضات حول الوضع النهائى تكون قد بدأت وانتهت أثناء فترة السنوات الخمس الانتقالية.

كل هذا .. وماذا بعد؟

لا شىء. غير فرض حقائق الواقع الاحتلالية على الأرض، تهويد القدس، ومزيد من المستعمرات/ المستوطنات (عدد المستوطنين فى أراضى ٦٧ زاد إلى الضعف خلال الفترة الانتقالية) وآلاف الأفدنة من الأراضى المصادرة، وأشجار الزيتون المحترقة، وجدارٍ مكهرب. ومزيدٍ من طائرات الأباتشى الأمريكية، وبالطبع مزيد من مشاعر الإحباط والكراهية والدماء (هنا وهناك). ومزيدٍ من الدموع والهتافات وطوابير الجنازة.

هل هذا فقط؟

لا .. فهناك أيضاً المزيد من الأوراق والخرائط والخطط التى تحمل اسم السلام أو أسماء أصحابها. بدءاً من آرثر داكهوب (١٩٣٤) وإلى رؤية بوش (٢٠٠٢) مروراً بالكتاب الأبيض (١٩٣٩) وبرنادوت(١٩٤٨) وتيتو (١٩٦٣) وأبا ايبان (١٩٦٨) وجون فوستر دالاس (١٩٥٥) وكارتر (١٩٧٧) ورونالد ريجان (١٩٨٢).. وغيرهم كثير.

هل يختلف الأمر هذه المرة.. ربما . رغم حقيقة أن كلينتون أمضى ١٢ يوماً كاملة فى محاولة الوصول إلى اتفاق فى كامب دافيد. وأن بوش صاحب وعد الدولة فى ٢٠٠٥ قد يخرج من البيت الأبيض فى ٢٠٠٤. وأن شارون «رجل السلام» كما يقول بوش أعلن صراحة أنه لن يسمح بدولة فلسطينية «ذات سيادة» وأن العودة إلى حدود ١٩٦٧ «غير مطروحة» ابتداء. ولكن المتفائلين يرون أن هذه المرة تختلف. فبوش يريد أن يرى «رؤيته» تتحقق. وهو. يؤكدون . جادٌ فى حديثه عن «الدولة». وهنا لا يستطيع السامعون إلا أن يطرحوا السؤال الرئيس: «أى دولة.. وبأى ثمن؟»

يقول البروفيسور الأمريكى ناعوم تشومسكى أن رئيس الوزراء الإسرائيلى اريل شارون، بقبوله . المشروط . لخريطة الطريق الأمريكية، إنما دفع إلى الواجهة ما كان يطالب به عملياً منذ عام ١٩٩٢. وهو الاقتراح الذى كان يومها مستحيلاً ومتطرفاً. ولكن الآن، بعد أن بدا لبوش أنه يحكم العالم، يظن شارون أنه الوقت الأنسب لكى يضع بقلمه «علامات الطريق» على خارطة الحل النهائى.

ويرى تشومسكى أن «خارطة الطريق» ما هى إلا صدى لخطة آلون» عام ١٩٦٨ والتى نصت على احتفاظ إسرائيل بـ٤٠٪ على الأقل من الضفة الغربية.

هناك حديث عن دولتين. ولكن لم يقل أحد ما هى حدود هاتين الدولتين وما هى سلطاتهما (استخدمت الولايات المتحدة حق النقض عام ١٩٧٦ ضد قرار لمجلس الأمن يدعو إلى قيام دولتين «فى إطار الحدود الدولية المعترف بها»!)

ويقارن الفيلسوف الأمريكى صاحب كتاب Middle East Illusion بين الأقوال والأفعال. فالأقوال مجالها التصريحات أما الأفعال فتتولاها الجرافات الإسرائيلية التى تعمل بنشاط لتغير الحقائق على الأرض. الذى نراه الآن. وهنا يلخص تشومسكى رأى كثيرين. هو شىء أكبر مما أصر باراك على الاحتفاظ به فى كامب دافيد. «ستحتفظ إسرائيل بسيطرتها الكاملة على نحو ٥٠٪ من الضفة الغربية إضافة إلى جيوب استيطانية داخل الحصة الفلسطينية من الضفة تقسمها عملياً إلى ثلاثة كانتونات منفصلة عن بعضها البعض.

وحتى مع افتراض وجود من بإمكانه . يأساً . القبول بهذا المستقبل. فإن مشكلة الكثيرين مع خارطة الطريق تلك هى فى اختزال مرحلتها الأولى فيما تم تحديده «صراحة» من جانب الإسرائيليين والأمريكيين بضرورة قيام السلطة الفلسطينية باجتثاث المقاومة: تنظيمات

«لا تنفذ إسرائيل أى نوع من الهجمات ضد منشآت رئيس السلطة الفلسطينية أو قوات أجهزة الأمن، الاستخبارات، الشرطة الفلسطينية، أو السجون فى الضفة الغربية وفى غزة»

تفهمات تينت
٢٠٠١/٦/١٣

«إذا لم يكن هناك حل بحجم تضحيات الشعب الفلسطينى، فالأفضل الاستمرار بالعمل العسكرى بأشكاله كافة.

محمد.. (مزارع من بيت لاهيا)
٢٠٠٣/٦/٢٠

«لقد مضى عام بالضبط منذ أن تحدث الرئيس بوش عن دولة فلسطينية تعيش جنباً إلى جنب مع إسرائيل. واليوم أصبح التفاؤل أقل منه عندما تم التصريح بهذه الجملة أمام العالم»

الهيرالد تريبيون
٢٠٠٣/٦/٢٣

و«طريق» إسرائيلى الجديدة....!

أيمن الصياد

وأدوات وإمكانات، بل واعتبار الدعوة لمقاومة الاحتلال «تحريضاً»، يمثل خروجاً عن «الطريق» الذى رسمته الخريطة. ويعطى الحق بالتالى للإسرائيليين فى التنصل من التزاماتهم اللاحقة والتى هى غامضة أصلاً. وغير محددة فى النص المنشور للمراحل الثلاث.

ما هو مقابل ما يبدو باباً لحرب أهلية فلسطينية؟

لا شىء غير التصوير التليفزيونى لمشاهد تفكيك ما يسمونه بؤراً استيطانية عشوائية، وهى ليست فى الواقع أكثر من علامات توضع على الأرض، وتتخذ شكل كوخ مراقبة مرتفع أو عربة سكنية متنقلة.

أياً ما كان رأى المتفائلين أو المتشائمين (أو المضطرين)، فالحقائق تقول أنه بحسب الجدول الزمنى لخريطة المراحل الثلاث تلك، من المفترض أن تكون المرحلة الأولى قد انتهت فى مايو/أيار (هل ترون شيئاً من ذلك؟!) لا شىء غير الدماء ومشاهد تليفزيونية لإزالة بعض الأكواخ الخشبية، وتحريك بعض المنازل المتنقلة من مكانها إلى مكان آخر فى الأرض المحتلة ذاتها، بدعوى تفكيك المستعمرات غير الشرعية (وهل هناك مستعمرات شرعية؟!).

على الورق، وصلنا إلى المحطة الأولى وبدأت . حسب الخطة . المرحلة الثانية. وعلى الأرض/ الواقع، المشاهد كثيرة ومتباينة: على شاطئ العقبة، صورة باسمة لشارون مع بوش وأبومازن. وفى شوارع غزة صورة لسيارة الرنتيسى المحترقة، وأشلاء الضحايا العابرين بالصدفة. إذن فى الواقع . كما الصورة الباسمة . تستمر الأباتشى فى اغتيالاتها، وقوافل الشهداء المزنرة بالمتفجرات فى طريقها إلى الجنة. وتستمر الجرافات فى هدمها للمنازل، وتجريفها للبيارات، وتمهيد الطرق الالتفافية مقطعة أوصال الضفة. وفى الواقع أيضاً يعلن آفى ايتام وزير الإسكان الإسرائيلى (عشية العقبة) إحياء مشروع استيطانى ضخم يشمل بناء نحو ١٥٠٠ وحدة على مساحة لا تقل عن ٣٠ ألف متر مربع من أراضى الضفة الغربية. (تفيد الأرقام بوجود ٤٠٠ ألف مستوطن و١٥٢ مستوطنة فى أراضى ١٩٦٧). وفى الواقع . أيضاً . وعلى شاطئ العقبة نفسه يلبى صاحب «الخريطة» رغبة مخططى «الطريق»، فيعلن إسرائيل «دولة يهودية نابضة بالحياة». مصادراً ما تنص عليه الخطة ذاتها من التفاوض غير المشروط حول تفاصيل الحل النهائى فى المرحلة الثالثة. ومدشناً شرعية أول دولة عنصرية «رسمياً» فى تاريخ ما بعد الحرب الثانية. ولا عزاء للمتفائلين، أو المراهنين على الاهتداء بعلامات طريق غطتها باكراً رمال المراوغات الناعمة المتحركة.

عندما يعلن رئيس شعبة المخابرات العسكرية الإسرائيلية أهارون زئيفى أن واشنطن أعطت الضوء الأخضر لمواصلة إسرائيل اغتيال كوادر «حماس»، وعندما لا يُكذب جورج دبليو بوش، ولا أركان إدارته (باول و رايس) ذلك، بل يؤكدون جميعاً حتمية «اجتثاث» أبومازن لحماس والجهاد وكتائب شهداء الأقصى، لا مجرد إيقاف عملياتها (كخطوة أولى على الطريق/ الخارطة) فإن ذلك يعنى عملياً إجهاض الخطة كلها. فلا أبومازن بقادر، ولا براغب (عكس ما قد يقوله البعض). ولا الفلسطينيون على استعداد للدخول فى حرب أهلية (كما يأمل آخرون). ويبقى أمام الجميع حقيقة أن علامة الطريق/ الشرط تلك على الخارطة الأمريكية (اجتثاث منظمات المقاومة) إنما هى علامة تشير إلى «الطريق الإسرائيلى» للتسوية كما يريدها شارون.

يعتبر المفكر الفلسطينى/ الأمريكى إدوارد سعيد . وعلى رأيه دلائل كثيرة . أن خارطة الطريق «ليست خطة للسلام بمقدار ما هى خطة للتهدئة»، وأنه «لولا حقيقة رفض الفلسطينيين العنيد القبول بأنهم شعب مهزوم كما وصفهم أخيراً رئيس الأركان الإسرائيلى، ما كانت هناك خطة سلام». الكثير منها مأخوذ من خطط سابقة. وما كان وافق الإسرائيليون (بغض النظر عن حقيقة أنهم بدأوا يعملون فعلاً على إفراغ موافقتهم من مضمونها). وأنه لولا احتياج بوش إلى صورة انتخابية وإلى غطاء عربى. إسرائيلى لما يحدث فى العراق ولمغامراته العسكرية فى أماكن أخرى لما شاهدنا خارطةً ولا سمعنا عن طريق.

علينا إذن أن نضع الخارطة وأوهامها فى مكانها الطبيعى. بعيداً عن أحلام الحل النهائى والسلام الدائم وغير ذلك من كلام جميل. سواء على هذا الحل خلاصاً للبعض أو اعتبره سواهم تهديداً لنضالهم ودماء شهدائهم. فهو . فى الواقع. ليس هذا ولا ذاك. بل لحظة من لحظات الصراع، ونقطة على الطريق الطويل. لا طريق الخارطة. لابد من التعامل معها. واعين بالتمسك بثوابت الحق الفلسطينى. وبالنهاب. مرونةً. مع «الكاذب حتى باب الدار». فالطريق الحقيقى خارج الخارطة. والطريق الحقيقى مازال طويلاً.

تعالوا لنصف الموقف على الأرض. ببساطة: يشكو الفلسطينيون من الاحتلال. ويشكو الإسرائيليون من المقاومة/ الإرهاب. والثابت أنه إذا زال الاحتلال توقفت المقاومة. فلماذا «متاهة الطريق»؟ ولماذا لا نصل خطاً مستقيماً بين النقطتين؟!

قد لا يحتاج المرء إلى قراءة ما بين السطور ليدرك أن العيب الرئيس فى «خارطة الطريق» فضلاً عن طابعها الإنشائى وعموميتها المفرطة، وافتقارها إلى الوضوح والتحديد والآلية؛ إنما يكمن فى أنها قائمة على فكرة أن: «المشكلة تتمثل فى ضراوة المقاومة الفلسطينية.. وليس الاحتلال الذى تسبب فى نشوئها» وسيبقى الجالسون فى منعطفات المتاهة المتشابكة المعقدة يكومون إلى جانبهم أوراق الاتفاقات والمعاهدات والقرارات الدولية.. وخرائط الطرق. ويتحسسون شعر لحاهم الأبيض، ومفاتيح قديمة علاها الصدأ لبيوت ربما لم يبق من أحجارها غير صور فى الذاكرة. يهرمون مكانهم.. يحلمون بهبة الضراغمة».. وينتظرون «العدل».■



الخارطة: والطريق رويتر

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

كسر شيفرة المورثات: الجينوم

تأليف: كيفن ديفس
تعريب: د. ياسر العيتى
الرياض: العبيكان، ٢٠٠٣، ٤٨٠ صفحة



أقرت الحكومة الأمريكية سنة ١٩٩٠ خطة مدتها ١٥ سنة وبتكاليف بلغت ٣ بلايين دولار لدعم مشروع قراءة الشريط الوراثى البشرى الرامى إلى تحديد تتابع ثلاثة بلايين رمز يشكلون الحمض النووى الريبى البشرى منزوع الأكسجين DNA كان جيمس واتسون على رأس المشروع، وقد استقال بعد عدة سنوات فقط من بداية المشروع، وذلك بسبب خلاف مع مدير المعهد الصحى القومى برنادين هيالى حول براءة الاختراع المتعلقة باكتشاف المورثات.

خلف جيمس واتسون فى منصبه عالم المورثات الشاب المتألق فرانسيس كولينز الذى اكتشف المورثة المسئولة عن مرض التليف الكيسى Cystic Fibrosis gene، وكما ذكر المؤلف فإن فرانسيس كان مؤمنًا حقَّ الإيمان بأن تتابع الرموز فى الشريط الوراثى البشرى هو الدلالة الأبلغ على دقة صنع الخالق.

حينما أصبح كولينز مديرًا للمشروع كان كرايج فنتر العالم المتميز المختص بفك شيفرة الحمض النووى الريبى منزوع الأكسجين DNA، والمحارب القديم فى فيتنام قد استقال من المعهد الصحى القومى لينشئ مركزًا خاصًا للأبحاث. ولقد أوجد طريقة سريعة وبسيطة لتحديد المورثات على الحمض النووى الريبى. وقد طبقت شهرته الآفاق حينما نجح للمرة الأولى فى فك الشيفرة الكاملة للشريط الوراثى لإحدى الجراثيم. فى بداية ١٩٩٨ كان ٣٪ فقط من الشريط الوراثى البشرى قد فكت رموزه فى حين انقضت نصف الفترة الزمنية المحددة لإنجاز المشروع. وفى السنة نفسها أذهل فنتر العالم حينما أعلن عن تأسيس شركة جديدة لفك رموز الشريط الوراثى البشرى فى خلال ثلاث سنوات فقط وبكلفة ٣٠٠ مليون دولار.

■

فنون الفرجة الشعبية (دورية)

رئيس التحرير: د. أسامة أبو طالب
القاهرة: المركز القومى للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ٢٠٠٣، ١٦٠ صفحة



يأتى العدد الأول من هذه الدورية استجابة، بحسب الكلمة الافتتاحية، لتحديات تواجهها الثقافة فى عمومها، والثقافة الشعبية على وجه الخصوص، فى زمن العولمة وما بعد الحداثة، وهى تعنى بفنون الفرجة الشعبية، تلك الفنون ذات الصلة الوثيقة بالذاكرة البصرية للناس والتى لا يمكن وأدها أو استئصالها بسهولة، والتى ماتزال ماثلة فى الأفراح الشعبية والموالد والاحتفالات الدينية وليالى المداحين وسير الأبطال ودراما خيال الظل وعشرات غيرها من فنون الفرجة.

وفى هذا العدد يكتب العالم الأنثروبولوجى الدكتور أحمد زيد عن ثقافة الفرجة، ثم نطالع دراسات عن الأزجال فى الظاهرة المسرحية الشعبية، والدواما الشعبية، وعرائس خيال الظل فى مصر الإسلامية، والفرجة الشعبية، ودراسات ميدانية عن الرقص الشعبى ومسرح الضريح وليلة حرق اللمبى والمولوية واحتفالات شم النسيم وأسبوع الآلام عند الأقباط، وتجارب تطبيقية لبعض فرق الفنون الشعبية، وشهادات لشوقى عبد الحكيم ومحمد مستجاب، وملف عن فنون الأداء والدراما الشعبية فى منهج عبد الحميد يونس.

■

أسود وأبيض

إملى نصر الله
القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠٢، ١٨١ صفحة



ثلاث عشرة قصة قصيرة، تضمها المجموعة القصصية الجديدة التى صدرت للكاتبة اللبنانية إملى نصر الله.

وهى المجموعة التاسعة فى سلسلة أعمال إملى نصر الله القصصية بعد: جزيرة الوهم، الينبوع، المرأة فى ١٧ قصة، الطاحونة الضائعة، خبزنا اليومى، محطات الرحيل، روت لى الأيام، الليالى الغجرية.

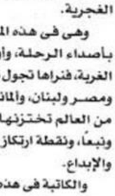
وهى فى هذه المجموعة تحتفى بأصداء الرحلة، وأوجاع السفر، وآلام الغربة، فنراها تجول فى الإسكيمو، وكندا ومصر ولبنان، وألمانيا، وأماكن عديدة من العالم تختزنها وتمثل لها فيضًا ونبعًا، ونقطة ارتكاز أو انطلاق للكتابة والإبداع.

والكاتبة فى هذه المجموعة تمزج فى كتابتها بين القص وأدب الرحلة ونلحظ ذلك بوضوح فى قصص: الإسكيمو ١، الإسكيمو ٢، رحلة فوق النيل، والصور متقاطعة، الجدار، أسود وأبيض، خط الرجاء.

■

النشيد الأبدى

أمل دنقل.. سيرة شعرية ثقافية
حسن الغرفى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ١٣٠ صفحة



فى يونيو ١٩٨٣، رحل أمل دنقل، بعد صراع سنوات مع مرض السرطان، لتنتهى حياته باكرًا، عن ثلاثة وأربعين عامًا، خلف خلالها ستة دواوين شعرية هى: البكاء بين يدى زرقاء اليمامة (١٩٦٩)، تعليق على ما حدث (١٩٧٧)، مقتل القمر (١٩٧٤)، العهد الآتى (١٩٧٥)، أقوال جديدة عن حرب البسوس (١٩٧٦)، أوراق الغرفة ٨ (١٩٨٣).

ويجمع هذا الكتاب المقابلات التى أجريت مع أمل دنقل والتى تتضمن آراءه فى الشعر والشعراء، وفى الواقع السياسى والاجتماعى لمصر والأمة العربية، ويفسر مواقفه التى عبر عنها شعريًا ووضعت فى مواجهة حادة مع السلطة، والتى تعد قصيدة لا تصالح نموذجها الأكثر وضوحًا، وربما تكون شهادة أمل دنقل على شعراء جيله، وحتى السابقين عليه هى الجانب الأكثر طرافة، فهو يرى أن الأدباء المصريين السابقين لجيله انسحقوا أمام الحضارة الغربية، وتمثلوها تمثلاً آخر فيما بعد بالمفاهيم الثورية التى تبنوها(...) وكان من نتيجة ذلك أن تحول كاتب وطنى مثل عباس محمود العقاد إلى مجرد كاتب يكتب لحساب السفارة الأمريكية، كذلك تنقل طه حسين تنقلاً غير مبدئى بين أحزاب متناقضة ومتطاحنة، وأصبح كل همه هو أن يكون دائمًا فى الصورة، أما توفيق الحكيم الذى بدأ كاتبًا مسرحيًا، فقد تحول فى منتصف الطريق إلى مجرد نجم من نجوم مؤسسة أخبار اليوم التى أحاطته برعاية مستمرة تتسم بالابتذال. ويقول عن المثقفين بعد يوليو ١٩٥٢: أصبح عندنا مثقفون يأكلون على كل الموائد، دون أن يحسوا بأية غضاضة أو تأنيب ضمير.

إلى ذلك يضم الكتاب كثيرًا عن بدايات أمل دنقل ومفهومه للقصيدة وموسيقى الشعر واللغة والالتزام فى الشعر والموقف الاجتماعى والوطنى للشاعر ودلالاته، وغيرها كثير مما يرسم صورة وضاءة لهذا الشاعر الذى كان نسيجًا وحده.

■

يوسف إدريس

دراسة فى تكوين المبدع وإبداع الأصالة وأصول النبوغ
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٣، ٣٥٠ صفحة



يرتكز المؤلف على يوسف إدريس كنموذج لدراسة العلاقة بين الأصالة والنبوغ وهو لا يكتفى بتحليل قصص يوسف إدريس فى مراحله المختلفة: البدايات، الانتماء لتنظيم حدتو (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) وهو أحد تنظيمات اليسار المصرى قبل الثورة، قصص مرحلة الانتماء لجوهر الحياة، ثم أخيرًا مرحلة الأفول، هو لا يكتفى بتحليل هذه النصوص والتعاطى معها نقديًا، إنما يبدأ بمحور عن تكوين المبدع، ونظريات علم النفس ذات الصلة بالإبداع واحتياجات الإنسان وخصائص تحقيق الذات الإبداعية، وفى المحور ذاته يدرس بذور عشق إدريس للنجومية وسعيه إليها، والبذور الأولى التى

ساهمت فى بزوغ موهبته كواحد من اهم كتاب القصة القصيرة فى العالم العربى.

وإلى جانب ما يكشفه الكتاب، وهو فى الأصل أطروحة جامعية نال عنها صاحبها درجة الدكتوراة، من وقائع مثيرة عن حياة يوسف إدريس، من قبيل معاملته لسنوات فى المدرسة بوصفه لصاً، أو إحساسه بأن امه متوحشة، أو علاقته بالمرأة، واحتكاكه بعالم الإدمان والمرض النفسى. فإنه يتضمن محاولة جيدة لربط إنتاج يوسف إدريس الإبداعى بسيرته الذاتية ومجتمعه، وكيف تأثر هذا الإنتاج بالممارسة الطبية ومدارس الفكر الجدلى التى شاعت فى زمنه.

ويرى المؤلف من زاويته، أن اهمية الكتاب تكمن أساساً فى التزامه تصوراً للنبوغ، ينظر إلى الإبداع من خلال تكوين المبدع وظروف نشأته واستجابته الخلاقة بظروف مجتمعه، بما يعنى، من ناحية أخرى، ضرورة تهيئة المناخ الملائم للنبوغ والإبداع فى المجتمع.

■

النظر والعمل والمأزق الحضارى العربى والإسلامى الراهن
أبو يعرب المرزوقى

حسن حنفى

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣، (سلسلة حوارات لقرن جديد)، ٣٦٠ صفحة



المجادلة هنا بين أستاذين للفلسفة فيما يشبه حوار المشرق الذى يمثله الدكتور حسن حنفى (مصر)، والمغرب الذى يمثله الدكتور أبو يعرب المرزوقى (تونس) والمفاضلة هى بين النظر والعمل، أو النظرية والتطبيق وعلاقة كل منهما بالمأزق الحضارى العربى والإسلامى الراهن، فثمة من يقدم العمل على النظر ويتساءل: هل يواجه الاحتلال بالبيان، والاجتياح بمؤتمر قمة، والعدوان بالشجب والإدانة؟ وثمة من يرى أن النظر أسبق، ويفرد مشكلات العالم العربى إلى خلوه من الفهم والتحليل اللذين يصنعان شروط العمل الجاد.

يبدأ المرزوقى بتبيان الدلالات الحضارية للعلاقة بين النظر والعمل، وبعد سياحة فى الفلسفة العربية والإسلامية، ومحاولة إثبات الصلة بين الفكر الفلسفى الحديث وعلوم الكلام والتصوف، وصلة الفكر الفلسفى الحديث بالحدث التاريخى، والإشارة إلى ما ينبه إليه الفلاسفة من أن وراء مداركنا الحسية والعقلية المعرفية، يوجد عالم الطبائع قائماً بذاته بوصفه مرجعاً وحكماً. وما يفترضه الدين الإسلامى من أن وراء مداركنا الخلقية والروحية عالم الشرائع، ينتهى إلى أن غايتى الوجود العمرانى الإنسانى هما جوهر فعل النظر (الرياضيات والمنطق)، وجوهر فعل العمل (السياسات والتاريخ)، أما واسطتاه فهما الفنون المستندة إلى النظر أى الفن الصناعى والتشكيلى، والفنون المستندة إلى العمل أى الفن التربوى والأدبى، وهكذا فإن العلاقة بين النظر والعمل هى عينها العلاقة بين ضربى الفنون، وهى سدى العمل البشرى ولحمته.

من جهته يبدأ حسن حنفى بتأكيد أولوية العمل على النظر، وأن هذا الاختيار هو الذى يدعم بناء الدول وعمرانها وانتشار الحضارة، فإذا ما ذبلت هذه الحضارة وهرمت وتوقفت عن الإبداع، تحول همها العملى إلى هم نظرى، ويدلل على ذلك بانشغال اليهود «بالنظر» على حساب العمل فى زمن السبى البابلى، وكذلك فى المسيحية أثناء سيطرة اليهود والرومان فى فلسطين، وعند الصوفية حين استحالت المقاومة الفعلية بعد استشهاد ائمة آل البيت وسيطرة آل عثمان، لكن فى لحظات الخلاص. يضيف حنفى. يهبط الناس من الخيال إلى الواقع، ومن عالم التمنى إلى عالم الفعل.

باختصار يرى حنفى أن أولوية العمل على النظر أحد متطلبات الواقع العملى المعاصر، أكثر من هذا، يرى أن التمترس حول البحث النظرى والتخندق فى التحليل الإبستمولوجى والتستر بالغطاء العرفى إنما هو نقص فى الالتزام.. «الإبستمولوجيا تنتشر فى دور النشر وتؤدى إلى الجوائز العلمية فى الخلية، فى حين أن الفعل يؤدى إلى السجون والمعتقلات والاغتيالات

مراجعة

أخطاء وأوهام فى موسوعة وطنية!

وقع فى يدى أحد كتب التراجم المعاصرة، قامت على إصداره وتحريره مؤسسة وطنية وظيفتها فى الأساس وظيفة خبرية معلوماتية، وفى نفس الوقت تمثل بلدها فى هذا الصدد، إلا أن المرجع الذى أصدرته. للأسف الشديد. حفل بالعشرات من الأغلاط والأوهام البيوجرافية والتاريخية والمطبعية، والآن نحاول رصد بعض ما استطعنا حصره من هذه الأغلاط وتصويبها لكى يتداركها القائمون على المرجع فى طبعاته التالية، ولا سيما أنه يضم ما مجموعه (٢٠٠٠) ترجمة لأعلام مصر فى القرن العشرين، وإن كنت أرى حذف الكثير منهم خاصة الذين لم يسهموا مساهمة كبيرة فى بناء تاريخ مصر الفكرى أو الثقافى أو العلمى أو الحضارى فى القرن العشرين:

١. ص (٧١) د. إبراهيم أنيس

ورد تحت اسم تاريخ الوفاة فقط ١٩٧٧ والصواب هو ١٩٧٨ ولم يذكر تاريخ الميلاد وهو ١٩٠٦.

٢. ص (٧٣) د. إبراهيم (باشا) الدسوقى اباظة

سبق اسم الاختصار (د.) وهو فى الحقيقة لم يحصل على درجة الدكتوراه، كما ورد تحت اسم التاريخ ١٨٨٩ وهو تاريخ الميلاد فقط ولم يرد تاريخ الوفاة وهو ١٩٥٣. ويذكر أن المترجم له هو والد الأديب الراحل ثروت اباظة.

٣. ص (٧٤) إبراهيم زكى قناوى

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩٠١ . ١٩٩٢ والصواب ١٩٠١ . ١٩٩٩، انظر: (صحيفة الأهرام عدد ٣ أبريل ٢٠٠٣م).

٤. ص (٨٣) د. أبو الوفا التفتازانى

يضاف إلى اسم أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

٥. ص (٨٥) أحمد أمين

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٨٦ . ١٩٤٨ والصواب ١٨٨٦ . ١٩٥٤.

٦. ص (٨٨) أحمد حسن الزيات

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٩٥ . ١٩٦٨ والصواب ١٨٨٥ . ١٩٦٨.

٧. (١١٣) د. أحمد محمد الحوفى

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩١٠ . ١٩٤٨ والصواب ١٩١٠ . ١٩٨٣.

٨. ص (١١٦) أحمد مصطفى المراغى

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩٨٨ . ١٩٥٢ والصواب ١٨٨٨ . ١٩٥٢.

٩. ص (١٢٧) أم كلثوم

يضاف إلى اسمها فاطمة إبراهيم بنت الشيخ إبراهيم البلتاجى.

١٠. ص (١٣١) أمينة السعيد

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩١٢ . ١٩٥٥ والصواب ١٩١٢ . ١٩٩٥.

١١. ص (١٣٢) أنطون الجميل

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٨٠ . ١٩٣٢ والصواب ١٨٨٧ . ١٩٤٨.

١٢. ص (١٣٥) أنيس منصور

يضاف إلى اسمه أنيس محمد منصور.

١٣. ص (١٥٥) د. جابر عبد الرحمن

يضاف إلى اسمه جابر جاد عبد الرحمن.

١٤. ص (١٨٤) حسنين مخلوف (الشيخ)

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨١٠ . ١٩٥٨ والصواب ١٨٩٠ . ١٩٩٠ ويضاف إلى اسمه حسنين محمد مخلوف العدوى.

١٥. ص (١٩٠) حسين كامل (السلطان)

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩٥٣ . ١٩١٧ والصواب ١٨٥٣ . ١٩١٧.

١٦. ص (١٩٥) د. أحمد رياض ترك

ورد فى ترجمته وزير البحث العلمى عام ١٩٦٣ والصواب ١٩٦٤.

١٧. ص (٢١١) راغب عياد

ورد تاريخ ميلاده ١٨٩٣ والصواب ١٨٩٢ (١٨٩٢/٢/١٠).

١٨. ص (٢٢٥) زكى مبارك الدكاترة

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٩٣ . ١٩٥٣ والصواب (١٨٩١ . ١٩٥٢).

١٩. ص(٢٣٨) د. السيد مصطفى السعيد والصواب السعيد مصطفى السعيد

٢٠. (ص ٢٥٨) عبادة سرحان

وصواب الاسم أحمد البدوى عبادة سرحان، ويرتب فى حرف الألف مع إعداد إحالة النظر من عبادة سرحان إلى أحمد عبادة سرحان.

٢١. ص (٢٩١) عبد الجليل عيسى

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٨٨ . ١٩٧٩ والصواب ١٨٨٨ . ١٩٨١.

٢٢. ص (٢٩٢) عبد الحكيم الرافعى

والصواب عبد الحكيم الرفاعى

٢٣. ص (٢٩٨) عبد الرحمن الرافعى

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٨٩ . ١٩٦٣ والصواب ١٨٨٩ . ١٩٦٦.

٢٤. ص (٢٩٩) عبد الرحمن زكى

ورد تاريخ الميلاد فقط ١٩٠٤ ولم يرد تاريخ الوفاة وهو ١٩٨٠.

وبعد فهذا بعض ما استطعنا حصره فى هذه العجالة، وورود هذه الأغلاط بهذا الحجم فى مرجع يمثل مؤسسة قومية تسبقها سمعتها المهنية، يستوجب سرعة مراجعته مراجعة حقيقية مسئولة قبل التفكير فى إصداره فى طبعة جديدة.

موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين

القاهرة: وكالة أنباء الشرق الأوسط، ١٩٩٦، ٥٢٣ صفحة

إبراهيم عبد الموجود حسن

خبير المكتبات والمعلومات بدولة الكويت

والتصفيات (...) وهو نفس مصير الفقهاء القدامى، فريق أخذ الصرة والحلة والجاه والمنصب والرياسة (فقهاء السلطان)، وفريق سُجن وعُذب وصُلب وذبح، (فقهاء الأمة والناس).

بعد ذلك يرد كل من العالمين الجليلين على الآخر مفنداً تصوراته ورؤاه، ونظن أن السجال مازال مفتوحاً لمشاركات أخرى، من داخل حقل الفلسفة أو من خارجه، فى إطار هذه السلسلة فائقة الأهمية.

■

رسائل مفتوحة إلى الرئيس الأمريكي

تأليف: جيمس جى شيرو وبرايس وآتر هاوس كوبر
تعريب: أيمن الأرمنازى
الرياض: العبيكان، ٢٠٠٣، ٣١٢ صفحة



تمثل الحكومة الأمريكية بمؤسساتها وهيئاتها أكبر منظمة فى العالم؛ والرجل الذى يقود هذه المنظمة يضطلع بمسئوليات جسيمة مستمدة من سلطته التنفيذية. فى هذا الكتاب يوجه كبار مديرى الشركات فى أمريكا كلامهم مباشرة إلى الرئيس الجديد، مقدمين له النصح حول إدارة منظمة مؤلفة من أربع عشرة وزارة ومائة مؤسسة حكومية مستقلة بالإضافة إلى مليونى موظف.

بكلمات لا مراء فيها، يدلى مديرو هذه الشركات المرموقة بآرائهم من خلال رسائل مفتوحة موجهة إلى الرئيس الجديد أياً كان. وهذه الآراء تستند إلى خبرتهم التى لا يستهان بها فى الإدارة، بجوانبها كافة، التى تمس مختلف إدارات الحكومة الفيدرالية. يترك الكاتبون القضايا السياسية للسياسيين ويركزون على تقنيات الإدارة التى ثبتت نجاعتها فى القطاع الخاص، ويلفتون عناية الرئيس إلى أهمية تسخير التكنولوجيا وبصفة خاصة تكنولوجيا المعلومات فى إرساء قواعد إدارة فاعلة، بالإضافة إلى قضايا أخرى مثل المناقبية فى العمل والتعامل مع المتغيرات وتنمية العنصر البشرى.

إن ما كتبه هؤلاء المديرون البارزون، وما يطرحونه من حلول وأفكار على رئيس الولايات المتحدة جدير بأن يقرأ. وسواء أكان القارئ مديراً تجارياً يتوق إلى التعلم، أم مواطناً يهتم بإدارة الدولة أم طالباً يهتم بالعلوم السياسية أو الإدارة العامة، فإنه سيجد مادة الكتاب رائعة ومفيدة.

■

اللولب المزدوج

جيمس د. واطسون
ترجمة: أحمد مستجير. محمود مستجير
القاهرة: دار سطور ٢٠٠٣، ٢٧٢ صفحة



ولد جيمس واطسون فى أبريل ١٩٢٨، وحصل على البكالوريوس من جامعة شيكاغو عام ١٩٤٧، وعلى الدكتوراة من جامعة انديانا فى علم الوراثة عام ١٩٥٠، ونال جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب عام ١٩٦٢ لتوصله بمساعدة بروفيسير آخر إلى حل لغز تركيبة جزىء الدنا.

وهو فى هذا الكتاب لا يقدم رواية علمية لحل لغز الدنا، وإنما يقدم روايته الشخصية، بأقل قدر ممكن من التفاصيل العلمية، وبأسلوب بسيط لا يخلو من دعابة.

إلى ذلك فإن المؤلف فى مواضع متعددة يتناول التقاليد العلمية والموروثات الثقافية التى تقود خطى العلماء، فبينما كان فرانسيس ميالاً للخوض فى موضوع الدنا، فإن اقترابه من هذا الموضوع كان سيسبب له حرجاً علمياً بالغاً، إذ أنه كان يعمل فى مجال البروتينات، فى وقت كان صديقه موريس ويلكنز يعمل على موضوع الدنا منذ سنتين، ووفقاً للتقاليد العلمية الإنجليزية، فإن اقتراب فرانسيس من هذا الموضوع يعد تجاوزاً أو خيانة علمية، فيما يشير المؤلف إلى أن هذا ما كان ليطرح فى فرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً.

وهو يشير فى موضع آخر وبلغة مرحة بسيطة، إلى العلاقة المتوترة التى جمعت بين موريس ومساعدته روزى، والتى كانت متخصصة فى علم البلورات، والتى كان يأمل موريس فى أن تساعده بتخصصها الدقيق فى الإسراع بتحقيق نتائج سريعة لأبحاثه، إلا أنها ادعت أنها منشغلة مثله بموضوع الدنا، وبذلك بدت منافسة أكثر منها مساعدة، وبخفة الروح ذاتها يتحدث عن بداية علاقته بموريس ويلكنز، الذى كان سباقاً فى أبحاث الدنا، وكيف أنه استغل إعجاب موريس بأخته اليزابث القادمة من أمريكا، كى يقترب منه ويعرف أكثر عما توصل إليه من نتائج فى موضوع الدنا، لكن توقعاته ذهبت هباء، فقد اكتفى موريس من اليزابث بحديث قصير وموعد غداء، وعاد بعده لينكب على عمله دون إبطاء.

أشياء من هذا القبيل يرويها المؤلف فى كتابه، كاسراً الحواجز بين العلماء وعامة الناس، وليبين أن ممارسة العلم ليست سوى محاولة يقوم بها بشر عاديون، وإن تخفوا خلف نظارات مقعرة ومعاطف بيضاء.

■

ما بعد إسرائيل

أحمد المسلمانى
القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٣، ٢٠٠ صفحة



عبر ثلاثة فصول، يسرد المؤلف سيرة الدولة العبرية منذ ما قبل الفكرة، وحتى تحولها إلى واقع يمشى على قدمين.

اتكأ الحلم اليهودى فى بداياته على نصوص توراتية مرتبكة، ساعدت طول الفترة الزمنية الفاصلة بين نزولها وتدوينها على تعميق تناقضها وارتباكها، إذ أن الفضل فى تدوين التوراة على ما هى عليه يعود إلى شخص يسمى «عزرا»، وقد تم تحريرها وتوحيد الكتاب المقدس على يد أحد الكهنة فى عام ٤٠٠ ق.م، أى أن التوراة استغرقت أربعة قرون كاملة كى تصبح نصاً معتمداً لدى تابعيها، وكانت هذه الفترة كافية لإشاعة قدر غير يسير من الارتباك العقيدى، أما التلمود، وهو الرواية الشفهية الموازية للتوراة والتى تناقلها الحاخامات جيلاً بعد جيل، فيفصلها على التوراة المعتمدة نحو ستة قرون، أى أن ما بين نزول التوراة وتدوين التلمود ألف عام تقريباً، وضمت التوراة ٣٩ سفراً وضم التلمود ٣٥ جزءاً.. «تجاوزت فيها النصوص اليهودية تعاليم العقيدة والمعاملات إلى وصف التاريخ والمغامرات، فاختلطت الأسطورة بالنبوءة وغطت الدراما على حقائق الأشياء».

فى الفصل الثانى من الكتاب يتابع المؤلف المشروع الصهيونى السياسى منذ تيودور هرتزل ومؤتمر بازل فى سويسرا ١٧٩٨، وبعد سرد تاريخى للخطوات العملية التى اتخذها يهود العالم فى هذا الإطار، ينتهى المؤلف إلى هذه الحقيقة المؤلمة: مضت عقود وانتصف قرن ثم طال وإسرائيل تمضى أكثر قوة، والأحلام العربية تمضى صوب البحر.

ويلاحظ أن مشروعات التسوية توالت منذ هزيمة ٦٧ من بن جوريون إلى إيجال آلون إلى ديان إلى بيريز وصولاً إلى مدريد وأوسلو، وبقى السلام هدفاً بعيد المنال.

ويرصد الفصل الثالث أفكار المؤرخين الجدد فى إسرائيل، الذين ينتظمون فيما بات يعرف بحركة ما بعد الصهيونية، وداخلها تمايزات عديدة، وإن اعترف كثيرون منهم بممارسات دولتهم العنصرية وتحولهم من ضحايا للنازى إلى جلادين أكثر قسوة وصلافة، ويشير على وجه الخصوص إلى أفكار «بنى موريس»، ودراسته حول مشكلة اللاجئين، والتى اعتبرت البداية العملية لحركة المؤرخين الجدد، ويطالب بحركة فكرية موازية على الصعيد العربى، متوازنة وإنسانية الطابع، أقل انفعالاً وأعمق تأثيراً.

■

الديمقراطية وحاكمية الأمة

محمد خاتمى
ترجمة: سرمد الطائى
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣، ١٨٤ صفحة



ينظر إلى السيد محمد خاتمى، ليس بوصفه رئيساً لجمهورية إيران الإسلامية ذات العلاقات الإشكالية فى محيطها وخارجه، وإنما أيضاً بوصفه مفكراً إصلاحياً يملك رؤى مستنيرة واضحة، فى مواجهة «استرابة» غربية، امريكية أساساً، تجاه ما تمثله إيران الإسلامية من مخاطر على المشروع الحضارى والثقافى الغربى.

وهذا الكتاب، يضم محاضرات خاتمى التى ألقاها خلال العامين الأولين من دورته الرئاسية، وفيها رؤاه حول عديد من القضايا منها: دور الشعب فى الحكومة الدينية، العلاقة بين الدين والحرية، أهمية الدستور فى العملية الديمقراطية، دور الصحافة فى تدعيم الديمقراطية، الجامعات والحرية، السياسة الخارجية وحاكمية الشعب، الشيعة والسنة والديمقراطية، التنمية السياسية وحقوق الشعب، الديمقراطية الدينية، وغيرها.

إنها أفكار تستحق التأمل لمفكر بارز، جاء إلى السياسة من باب الثقافة، وعزز الأولى بالثانية.

■

العلاقات العربية الآسيوية

نحو مستقبل مشرق
تحرير: سامى عبد الله خصاونه
عمان: الجامعة الأردنية، ٢٠٠٣، ٦٤٠ صفحة



أكثر من ثلاثين بحثاً علمياً مدققاً يضمها الكتاب، وهى حصيلة مؤتمر

«العلاقات العربية - الآسيوية نحو مستقبل مشرق»، الذى عقدته الجامعة الأردنية، وشارك فيه أكاديميون وباحثون من مختلف الأقطار العربية والآسيوية، تناقشوا حول سبل توفير قواعد البناء الصحيحة لعلاقات عربية آسيوية، فى المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية.

من عناوين الأبحاث: العربية جامع مشترك بين ثقافتى العرب وإيران الكبرى، الاستيطان الهندى فى العراق فى أوائل القرن العشرين، الصلات التجارية العمانية الصينية، مكونات العلاقات العربية الآسيوية، العلاقات العربية اليابانية، مستقبل التعاون بين النظام الإقليمى العربى والنظام الإقليمى الآسيوى، التحالفات الاستراتيجية بين الشركات الآسيو - عربية، العلاقات العربية الأرمنية، نحو إطار نظرى للحوار العربى الآسيوى.

■

زلزلة فى العولمة وسعى نحو العالمية

تحرير وعدل فسلام
أحمد صدقى الدجانى
القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٣، ٤٨٠ صفحة



العنوان الثانى للكتاب يحدد بدقة فكرته الرئيسية، فلا يمكن أن يقوم سلام قبل أن تتحرر الدول الواقعة تحت ربقة الاحتلال بمعناه المباشر كما فى فلسطين، أو غير المباشر كما فى سطوة العولمة الغاشمة الهادفة إلى السيطرة على العالم كله.

أما الزلزلة التى أصابت العولمة، فيقصد بها المؤلف ما جرى فى الولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١، وما تبع ذلك من إعلان حرب ضد ما تسميه أمريكا الإرهاب، ويسميه المؤلف «حرب العولمة»، التى تستهدف فرض تسلط العولميين، ويميز المؤلف بين العولمة والسعى نحو العالمية، والأخيرة تتجلى مظاهرها فى صور مختلفة، أعظمها وأنصعها، حركات التحرر التى تجابه الاستعمار، وفى مقدمتها انتفاضة الأقصى، وهى حلقة فى سلسلة نضال الشعب الفلسطينى ضد الاستعمار الاستيطانى الصهيونى العنصرى.

كما أن من صور مقاومة العولمة، نضال جماعات كثيرة، وجمعيات مدنية شتى فى مختلف بقاع الأرض، تطمح إلى استتباب العدل بين البشر، والطرفان، الساعى إلى التحرر من الاستعمار، والطامح إلى تحقيق العدل، غايتهما أن يسود السلام فى عالمنا المفعم بالقلق والاضطرابات والمواجهات على أشكالها.

يتألف الكتاب من أربعة أبواب: يحمل أولها عنوان «مزيد من العولمة» ويتناول شروحًا للعولمة ومخاطرها وفوائدها، ويمايز بينها وبين العالمية، ويمنح اهتمامًا أكبر لجوانبها الثقافية وحقوق الطفل والمرأة فيها، وتحت عنوان «من وحى الزلزلة» تدور فصول الباب الثانى، ويبحث باب «نهوض» كيفية تحقيق النهضة العربية الإسلامية فى ضوء هذه المخاطر والتحديات، ويخصص الباب الرابع والأخير للتأثيرات المتبادلة بين حرب العولمة، والكفاح الشرعى من أجل تحرير فلسطين.

■

مفهوم الوطن فى فكر الكاتبة العربية

شيرين أبو النجا
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ١٥٣صفحة



عبر عدة نصوص أبدعتها نساء، تناقش المؤلفة هموم الوطن فى الكتابة النسوية، من خلال قراءة نقدية لروايات «أوراق النرجس» لسمية رمضان، و«الفردوس اليباب» للسعودية ليلى الجهنى، و«صهيل النهر» للسودانية بثينة خضر مكى، و«نساء على أجنحة الحلم» للمغربية فاطمة المرنيسى، و«بنت الخان» للعراقية هدية حسين، و«مريم الحكايا» للبنانية علوية صبح، و«البدو» للفلسطينية نعمة خالد.

وتنتهى المؤلفة إلى أن الكاتبات العربيات ينسجن خطابًا يعبرن عن الوطن كما يتمثل فى وعيهن، وفى نسج هذا الخطاب النسوى، لم تسع الكاتبة إلى استعارة أى خطاب، بل شكلت خطابها من مفردات تجربتها الحية، وهى المرجعية التى تنطلق من الخاص لتعيد صياغة العام.

وتلاحظ أن هذا الخطاب فى شكله النهائى ليس منفصلاً عن الموروث الذى شكل الوجدان تجاه الوطن، وهو يعيد صياغة الوطن فى منطقة بينية، إذ تنسج الذات الأنثوية خطابها حول الوطن عبر فضح التناقضات الداخلية أو كشف الفساد أو تكشف حضور النساء تعويضًا عن الغياب المفترض.

والكاتبات لا يشكلن خطابًا أحاديًا متشابهًا، بل ينهلن من مصادر مختلفة لا تتفق سوى فى مرجعيتها الأساسية. وهذه التعددية هى التى تقاوم الأحادية المسيطرة وتزيد من مفهوم ثراء الوطن، وتبلور رؤية نقدية بعيدة عن المنظومة الأبوية التى ترسم صورة ثابتة كاملة للوطن، فوطن الكاتبة يبتعد عن هذه الصورة ليكشف عن هوامش، وتعيد بناء المتشظى.

■

المستقبل العربى

عدد يونيو ٢٠٠٣
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



افتتاحية العدد تحمل عنوان «فلسطين والعراق.. الخريطة ليست الطريق»، وهى تعرض للارتباك الأمريكى فى إدارة العراق المحتل والانحياز السافر لمصالح إسرائيل فى المنطقة.

فى العدد ملف عن تداعيات الاحتلال الأمريكى للعراق، يشير إلى زيف الادعاءات الأمريكية وتجاوزها كافة القوانين والأعراف الدولية، ومقال عن الصراع على العراق وإمكانية بروز مجتمع مدنى.

يتضمن العدد أيضًا دراسة لسلمان أبو ستة عن إسرائيل ٢٠٢٠ وأخرى لغادة سعد الدين عن التغلغل الإسرائيلى فى شرق أفريقيا وانعكاساته على الأمن القومى العربى، وفى باب آراء ومناقشات، مقالة للرئيس اللبنانى الأسبق سليم الحص عنوانها: خريطة الطريق ليست نهاية الطريق، ويكتب عبد العزيز التويجرى عن مستقبل التعليم فى الوطن العربى، إضافة إلى عروض كتب ومتابعات لأهم الندوات والمؤتمرات التى عقدت خلال الشهر.

■

البترول العربى.. دراسة اقتصادية سياسية

حسين عبد الله
القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٣، ٥٢٠ صفحة

بالإضافة إلى التحليل الذى يقدمه المؤلف لاقتصاديات البترول يطرق مواضيع ربما تبحث لأول مرة بهذا التفصيل، ومنها العلاقة بمنظمة التجارة العالمية، ومسألة التغير المناخى وبروتوكول كيوتو، وتأثير ذلك على البترول.

ويتناول الباب الأول التعريف بصناعة البترول موضحًا المنتجات البترولية وتصنيعها واستعمالاتها، كما يشرح أساليب البحث عن البترول فى الطبيعة ومعايير الاكتشاف التجارى وتقدير الاحتياطيات البترولية، ثم الوسائل المستخدمة فى تنمية الحقول المكتشفة والإنتاج منها، وما طرأ على تلك الوسائل من تقدم تقنى خلال السنوات الأخيرة.

ويشرح فى الباب الثانى التغيرات الهيكلية التى طرأت على جانب الإنتاج والعرض العالمى للبترول خلال النصف الثانى من القرن العشرين، ابتداء بالكارتل العالمى القديم الذى كونته الشركات العالمية الكبرى لكى يحمى ويدعم سيطرتها على السوق العالمية للبترول حتى مطلع السبعينيات، ثم تطور هياكل تلك الشركات واتجاهها فى السنوات الأخيرة إلى الاندماج لتكوين كيانات ديناصورية وعودتها مؤخرًا للتنقيب عن البترول والغاز فى دول أوبك، وبخاصة دول الخليج العربى. ويتناول بالشرح الاتفاقيات البترولية التى تنظم العلاقة بين الدول المنتجة للبترول وبين الشركات العاملة فى أراضيها وبصفة خاصة عقود الامتياز التقليدية، وعقود المشاركة، وعقود اقتسام الإنتاج، والنظام الفنزويلى المتفرد.

وفى الباب الثالث يتناول التعريف بدراسات التنبؤ بالطلب على الطاقة موضحًا الصعوبات التى تواجه تلك الدراسات، وشارحًا بإيجاز نماذج ونظم التنبؤ بالطلب على الطاقة لكى يتحول إلى تحليل التوقعات المستقبلية للطلب العالمى على الطاقة.

ويبدأ الباب الرابع باستعراض تاريخى لأسعار البترول منذ الحرب العالمية الثانية، وكيف أن انخفاض الأسعار بقرارات منفردة من الشركات العالمية الغربية قد صاحب زيادة الاهتمام ببترول الشرق الأوسط لتلبية متطلبات إعادة البناء فى أوروبا واليابان وتحول الولايات المتحدة إلى مستورد صاف للبترول منذ ١٩٤٨.

بعد هذا الاستعراض لمنظور سوق البترول القادمة ينتقل المؤلف فى الباب الخامس لمعالجة مسائل البترول العربى فى ظل منظمة التجارة العالمية واتفاقيات الجات ويتعرض لكثير من المسائل الأخرى المرتبطة بمنظمة التجارة العالمية، مثل شروط العضوية، وتطورها، وكيفية الدخول إلى المنظمة، إلى تعدد الاتفاقيات فى إطار المنظمة، كتلك المتعلقة بتجارة الخدمات والملكية الفكرية، والاستثمار، والمشتريات الحكومية، والدعم أو الإعانة المحظورة، والتدابير التعويضية، ومكافحة الإغراق، والتجارة والبيئة، والعوائق

الفنية للتجارة، والاتحادات الجمركية، ومناطق التجارة الحرة، وتدابير الاستثمار المرتبطة بالتجارة. ومن الواضح أن لكثير من تلك الاتفاقات علاقة قوية أو ضعيفة بمسألة البترول، إلا أنها أكثر شمولية ولذا يعتبر هذا الباب تعريفاً أيضاً بمنظمة التجارة.

ويناقش المؤلف في الباب السادس والأخير القضية التي سيطرت على النقاشات المطروحة في مجال حماية البيئة منذ منتصف الثمانينيات وهي قضية التغير المناخي وعلاقته باستهلاك الطاقة من المصادر الأحفورية.

■

البحـــرين

رئيس التحرير: مي بنت محمد آل خليفة
ربيع ٢٠٠٣



عدد الربيع من هذه الدورية الثقافية يضم دراسات عن أبي الطيب المتنبي (جابر الأنصاري)، والحداثة والعولمة والمجتمع التقليدي (عبد الله إبراهيم)، في معنى الحداثة وترجيعاتها العربية (فخري صالح)، النص العربي والوسائط المتفاعلة (سيد يقطين)، المجتمع العربي في القرن العشرين (مسعود ضاهر).

كما يضم تحليلات نقدية يكتبها صبحي حديدي ومنيرة الفاضل وأوكتافيو باث وبدر عبد الملك ويوحنا دانيال، ونصوص ومراجعات من عواصم عربية عدة.

■

أدب ونقـــد

رئيس التحرير: فريدة النقاش
القاهرة: حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، يونيو ٢٠٠٣



تواصل أدب ونقد الصدور بإصرار عنيد، برغم ضعف الموارد واشتداد الحصار، وللسنة الثامنة عشرة تقاوم وترفع شعارها الأثير: مجلة الثقافة الوطنية، وهي تقدم في هذا العدد دراسة عن الجهر بالسوء في مصر، وملفاً عن الأديب السعودي الراحل عبد العزيز عشري، يشارك فيه كتاب ونقاد ويعده محمد القشعمي، كما يقدم دراسة عن شاعر الأردنية ميزرا غالب ومختارات من شعره، فضلاً عن نصوص لمبدعين عرب والأبواب الثابتة للمجلة.

■

وقفات وتأملات.. رؤى ومناقشات حول قضايا إسلامية معاصرة

صبري قنديل
الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٣، ٢٢١ صفحة



تشتبك القضايا التي يثيرها هذا الكتاب مع العديد من القضايا المهمة والمعاصرة ذات الصلة بالتاريخ والفكر الإسلامي، منها قضايا التعليم والتربية والطفولة والمرأة والإدارة والاقتصاد والتطرف والإرهاب، والمؤلف يقارب بمنهجه فكر الداعية الإسلامي الراحل الشيخ محمد الغزالي.

وفي قسم آخر من الكتاب يطرح المؤلف تأملاته لما تفيض به بعض العبادات والفروض على عقل وشخصية الإنسان المسلم، كالصيام والحج، وفي قسم ثالث يحلل برؤية نقدية سبعة كتب لمؤلفين وعلماء مسلمين، ويختم بحوار فلسفي في معنى الحياة وغاية الوجود.

■

القفز فوق العولمة

محمد رءوف حامد
القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٣، ٢٠٥ صفحات



ليست العولمة شراً خالصاً، ولا هي، خصوصاً بالنسبة لبلدان العالم الثالث خيراً محضاً، لكنها تبقى إحدى مراحل التطور الإنساني التي لا يمكن تجاهلها، ولابد من التعاطي معها بعملية وموضوعية، حتى يمكن قطف ثمارها الإيجابية وتجاوز مخاطرها.

المؤلف يخاطب دول العالم النامي، ونحن منها داعياً إياها للقفز فوق العولمة، مشيراً إلى أن الغلبة في توجيه أدوات العولمة، هي لصالح رأس المال العامل والحكومات المتحالفة معه، وفي المقابل، تبزغ حركة مناهضة لهذا التوجه الأناني الشرس، تقاوم سلبيات العولمة وخطايا منظمة التجارة العالمية، عبر منظمات وتكوينات أهلية عابرة للحدود، مستخدمة ما أتاحته العولمة ذاتها من إمكانيات هائلة في المعلوماتية والاتصالات، وتمثل هذه التوجهات بحسب المؤلف، الأمل الحقيقي لحماية الإنسانية من «غبائيات» العولمة، وسنداً قوياً للجهود التي يبذلها الجنوب في استنهاض ذاته.

يناقش المؤلف هذه الأفكار عبر أربعة أبواب: عولميات، محليات، تصحيح ومتطلبات، وأخيراً معادلة التقدم.

■

أحـزان بلدنا

مكرم فهيم
القاهرة: اتحاد الكتاب، ٢٠٠٣، ١٤٠ صفحة



تغوص هذه الرواية في موضوع شائك ومهم في الوقت ذاته وهو العلاقة بين المسلمين والأقباط في مصر، وهي تنسج من هذه العلاقة حكايات عن الوطن وناسه، عبر رحلة أسرة راغب مسعد الذي ترك عائلها الأسرة صبياً ليعمل في محل التاجر اليهودي «شوحيط»، وانتقال الأسرة من حي شعبي في القاهرة إلى حي راق وتكشف أنماط جديدة من العلاقات والتوازنات والتعصبات في مصر الثمانينيات والتسعينيات، وصعود التطرف واستقوائه، وتأثير ذلك على أقباط مصر.. من أجواء الرواية:

يعود فوزي إلى الذاكرة، واحة الذات، تنقسم الذات على نفسها، تصبح ذاتاً متأملة وموضوعاً للتأمل، ها هو البيت الريفي الفسيح، حجرات النوم في الدور فوق الأرضي، تفتح الحجرات جميعها على صالة واسعة، لكنها ريفية الطابع.

■

فلسطين والفلسطينيون

سميح فرسون
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٦٦٣ صفحة



كُتب الكثير عن فلسطين والقضية الفلسطينية، بل إنها قد تكون القضية الأكثر إثارة للحبر كما للدم العربي، على أن الأبحاث والدراسات التي نشرت تركزت في أغلبها على فترات معينة، وقليلة هي المراجع التي تناولت القضية الفلسطينية بإطلالة شاملة، أي منذ ما قبل النكبة وما تبعها، مروراً بالأحداث إلى يومنا هذا.

يحاول هذا الكتاب أن يعوض النقص في المكتبة العربية، فهو يتناول الاقتصاد السياسي لفلسطين قبل النكبة وبعدها، والسوسيولوجيا السياسية للمجتمعات الفلسطينية الرئيسية الثلاثة (في الضفة والقطاع وفي داخل إسرائيل وفي الشتات) ومؤسساتها وحركة تحررها الوطني والانتفاضتين اللتين قامتا ضد إسرائيل واحتلالها.

الكتاب يقدم أيضاً تقويماً لاتفاقيات أوسلو التي عقدت بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وعواقب تلك الاتفاقيات على مستقبل فلسطين والفلسطينيين.

وهو إذ يطرح السؤال: فلسطين والفلسطينيون.. إلى أين؟ فإنه يقدم بعض الأجوبة الاستشراقية الجديدة بالتمعن.

يتضمن الكتاب تسعة فصول:

الأول: القضية الفلسطينية والفلسطينيون.

الثاني: قبل النكبة: التاريخ الاجتماعي الحديث لفلسطين.

الثالث: الطريق إلى النكبة: الانتداب البريطاني.

الرابع: بعد النكبة: الشتات الفلسطيني (١٩٤٨ - ١٩٩٣).

الخامس: بعد النكبة: الفلسطينيون في إسرائيل.

السادس: صعود وهبوط حركة التحرر الوطني الفلسطينية.

السابع: المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي.

الثامن: الاتفاقيات بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل ومستقبل فلسطين والفلسطينيين.

التاسع: فلسطين والفلسطينيون إلى أين؟

■

The Kennedy Assassination
(اغتيال كيندى)

Jensen A .J
Xlibris, 2003, 344PP.



صدرت عشرات إن لم يكن مئات الكتب عن الرئيس الأمريكى الراحل جون كيندى والملابسات التى رافقت سنوات حكمه خاصة عملية خليج الخنازير التى قامت بها المخابرات الأمريكية للإطاحة بحكم الرئيس الكوبى فيدل كاسترو ثم اغتيال كيندى فى واحدة من أشهر حوادث الاغتيالات فى التاريخ.

وفى هذه الرواية التاريخية يتحدث المؤلف عن ذلك كله من خلال إطار قصصى شيق حيث تعتمد القصة على أنه فى عام ١٩٦١ وافق الرئيس كيندى على خطة للتعامل مع الحكومة الشيوعية فى كوبا وتشمل اغتيال فيدل كاسترو. وكانت هناك مواطنة أمريكية علمت بهذه العملية الخطيرة وحاولت أن توقفها. وهذه المواطنة اسمها مارلين مونرو الممثلة الشهيرة وعشيقة كيندى.. فهل تستطيع نجمة هوليوود أن تفعل ذلك وهل أدركت مارلين مونرو حجم العبء الأخلاقى الذى سينوء به جون كيندى من جراء ذلك. وهل لعبت مارلين مونرو دوراً درامياً حقيقياً فى محاولة وقف هذه العملية أن القصة تدور حول كل ذلك.

■

Syria: Neither Bread Nor Freedom
(سوريا، لا خبز ولا حرية)

Alan George
Zed Books, 2003, 224PP.,
13.95 #



منذ تولى الرئيس السورى بشار الأسد مقاليد السلطة فى بلاده فى يوليو ٢٠٠٢، خلفاً لوالده حافظ الأسد تغيرت أشياء كثيرة فى سوريا. وكما يقول المؤلف فقد تمت إزالة الحواجز الكبيرة الموجودة أمام المبانى الحكومية كما انتشرت مقاهى الإنترنت فى المدن السورية وتم إغلاق سجن المزة السيئ الصيت والذى كان يقبع فيه آلاف السجناء السياسيين دون محاكمة. وجرى إطلاق سراح مئات من هؤلاء السجناء وشجع الرئيس الشاب بشكل غير مسبوق على توجيه نقاش نقدى كبير للاقتصاد السورى وعزلة سوريا عن العالم ودعا إلى مزيد من المحاسبة والتغيير.

وعندما زار الرئيس بشار بريطانيا فى العام الماضى حظى باستقبال كبير وتغطية صحفية واسعة وتطلع المراقبون إلى مزيد من الانفتاح السورى تجاه العالم.

يتناول الكتاب قصة ما يسميه بربيع دمشق وهى فقرة مدتها حوالى ٦ شهور بدأت فى الأيام الأخيرة لحكم الأب وبداية حكم الابن حيث ازدهرت حركات ومنظمات المجتمع المدنى ودارت نقاشات سياسية وتم تداول كلمات مثل الديمقراطية والإصلاح بدون خوف.. لكن المؤلف يقول إن ذلك تغير أو انتهى فى سبتمبر ٢٠٠١، وعادت قبضة حزب البعث الحاكم من جديد وتم سجن ١٠ من العناصر البارزة فى هذه الحركات وفى مقدمتهم عضو البرلمان رياض سيف.

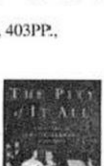
وسبب هذا التحول هو أن سوريا تواجه تحديات وتهديدات خارجية ويمكن أن تضربها التقلبات الداخلية وعدم الاستقرار وهذه هى حجة المتشددين الرافضين للإصلاح.

ويتساءل المؤلف.. هل كانت الآمال المعلقة على إصلاح سياسى كبير فى سوريا مع تولى بشار السلطة مبالغاً فيها.

■

The Pity of It All: A Portrait of Jews in Germany 1743-1933
(اليهود فى ألمانيا ١٧٤٣ . ١٩٣٣)

Amos Elon
Allen Lane, 2003, 403PP.,
25.00 #



يقدم المؤرخ الإسرائيلى عاموس آيلون فى هذا الكتاب تاريخاً مليئاً بالدراما والمأساة والحب من جانب واحد حسب وجهة نظره وهو يقول إن اليهود كانوا قبل هتلر معجبين بالشعب الألمانى كما لم يعجبوا بأن شعب آخر كانوا يعيشون على أرضه، وكانوا أكثر استعداداً، كما لم يحدث فى مكان آخر، لأن يكونوا جزءاً من الشعب الألمانى.

ويبدأ المؤرخ كتابه بوصول الفيلسوف اليهودى عاموس من بون إلى ألمانيا عام ١٧٤٣ وكان فى الرابعة عشرة من عمره ورغم أنه لم يكن أول اليهود الألمان إلا أنه دعا اليهود إلى الانخراط فى المجتمع الألمانى وتعلم اللغة الألمانية وكذلك الثقافة. ويشير المؤلف إلى أن القرن الثامن عشر كان واعداً بالنسبة لليهود الألمان حيث زاد دورهم واختلاطهم وبنهاية القرن حدث تحول من اليهودية للمسيحية وفى برلين فقط انتقل نصف اليهود إلى المسيحية.

وتغيرت مكانة اليهود جذرياً وإن بشكل مؤقت مع هزيمة روسيا على يدى نابليون ١٨٠٦ حيث تم منحهم كل الحقوق السياسية لكن هزيمة نابليون حرمت اليهود من تلك الحقوق مرة أخرى، بل وزاد التضييق عليهم. وحمل عام ١٨٤٨ آمالاً جديدة بمزيد من الليبرالية فى ألمانيا وبالتالى مزيداً من الحرية لليهود لكن ذلك أيضاً كان تفاؤلاً قصير الأمد إذ سرعان ما حدث تغيير سياسى زاد من مشاكل اليهود وتم اتهام اليهود عام ١٨٧٣ بالمسئولين عن الأزمة المالية التى حدثت عامذاك ومن يومها كانت كل مأساة تعود فى أسبابها إلى اليهود حسب غالبية الألمان.

■

Breaking Ranks.. Refusing to Serve in the West Bank
(الخروج عن الصف.. رفض الخدمة فى الضفة الغربية وقطاع غزة)

Ronit Chacham
Other Press 2003, $ 25.00



فى هذا الكتاب تظهر أصوات الجنود الإسرائيليين الذين رفضوا المشاركة فى الخدمة العسكرية فى جيش الاحتلال الإسرائيلى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، ويعرض هؤلاء الجنود وجهات نظرهم وكيف أنهم يشعرون بآلام نفسية كبيرة بسبب ما يحدث من مواقف وأعمال للجيش الإسرائيلى فى مناطق الاحتلال. وقد أدت هذه الانتهاكات لحقوق الإنسان الفلسطينى من جانب قوات الاحتلال إلى رفض عدد من الجنود الخدمة بل إن بعضهم دخل مصحات نفسية لأنهم لم يعودوا قادرين على تبرير ما يحدث لأنفسهم. وقد أخذت هذه القضية اهتماماً واسعاً داخل المجتمع الإسرائيلى نظراً لأنهم تضع هذا الشعب أمام ما يرتكبه الجيش الإسرائيلى وكيف أن فئة من الإسرائيليين، حتى لو كانت صغيرة العدد، أصبحت ترفض هذه الممارسات. وتعاطف بعض الإسرائيليين مع هذا السلوك من جانب هؤلاء الجنود بينما هاجمه بشدة المتطرفون واعتبروه خيانة لدولة إسرائيل وأن من شأن التساهل معه أن يتفشى بشكل كبير داخل الجيش. وقد انتقلت القصة من ساحة النقاش العام إلى ساحة القضاء حيث هناك قضايا مرفوعة ضد هؤلاء الجنود.

■

Shattered Dreams.. The Failure of the Peace Process in the Middle East, 1995-2002
(أحلام محطمة.. فشل عملية السلام فى الشرق الأوسط ١٩٩٥ . ٢٠٠٢)

Charles Ederlin
Translated by Susan Fairfield Other press, 2003, $ 28.00



يتناول هذا الكتاب السنوات الممتدة من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٢ والتى شهدت انهيار عملية السلام بين العرب والإسرائيليين بشكل غير متوقع أو على الأقل بصورة لم يكن المتفائلون يعتقدونها خاصة بعد توقيع اتفاق أوسلو بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

ويعطى الكتاب كشف حساب لهذه السنوات السبع الحاسمة فى تاريخ الصراع بالشرق الأوسط وتحديداً منذ اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين فى نوفمبر ١٩٩٥ وحتى تولى أرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى الحالى السلطة بعد ذلك بعامين!

وقد شهدت تلك الفترة تولى شيمون بيريز رئاسة الوزراء فى إسرائيل لفترة قصيرة إلى أن فاز بنيامين نتانياهو بالحكم عام ١٩٩٦ وفى عهده شهدت عملية السلام أسوأ تدهور لها منذ سنوات. لكن نتانياهو لم يمكث فى السلطة سوى فترة قليلة حيث تمكن زعيم حزب العمل إيهود باراك من هزيمته بأغلبية كبيرة إلا أن باراك، الذى تعلقت به آمال كثيرة سرعان ما انهارت بسبب ضعف قيادة باراك ومشاكله التى انتهت بفوز شارون عليه فى الانتخابات.

■

Universities in the Marketplace.. The Commercialization of Higher Education

(الجامعة في السوق.. تحويل التعليم العالي إلى تجارة)

Derek Bok
Princeton University Press,2003 233PP., $ 22.95



يتناول هذا الكتاب قضية خطيرة للغاية وهي تمويل الجامعات في الولايات المتحدة. والمؤلف رئيس سابق لجامعة هارفارد العريقة ومن ثم فإن لديه خبرة كبيرة في الموضوع. ويتساءل المؤلف كيف تحصل الجامعة، أي جامعة، على المال الذي تحتاجه؟ إن الرسوم التي يدفعها الطلاب لا تكفي ولذلك لابد من البحث عن وسائل أخرى، وفي ذلك مكمن الخطر لأنه ربما يتعارض مع استقلالية الجامعة ورسالتها خاصة إذا كان الأمر يتعلق بنواح علمية محددة كأن تقوم جامعة ما بتأخير الإعلان عن اكتشاف علمي ما، إلى أن يتم الاتفاق مع شركة على شراء براءة الاختراع أو حتى إنتاجه.

لقد ارتفعت بشدة تكاليف التعليم الجامعي ولم يعد ممكنًا الوفاء بمتطلباته من خلال وسائل تقليدية كالرسوم أو وضع شعارات شركات رياضية مثلاً على الزي الرياضي لطلاب الجامعة أو في صالات الألعاب الرياضية فيها. إن أعمال «القنص» من أجل الحصول على أموال للجامعة مثيرة للغاية فالمنافسة بين الجامعات شديدة للحصول على دعم من الشركات ورجال الأعمال. ويحذر المؤلف من أن هذه الرغبة المحمومة في الحصول على أموال من شأنها تحويل التعليم العالي الجامعي إلى تجارة. فمن أجل الحصول على أموال يمكن تأجيل الإعلان عن كشف علمي ما أو تسريب نتائج بحث أو تأكيد عدم وجود أضرار لهذه السلعة أو تلك.

■

Religion in International Relations: The Return From Exile

(الدين في العلاقات الدولية)

Fabio Petito, Pavlos Hatzopoulos
Palgrave Macmillon, 2003, 296PP., $ 26.95



يتساءل المؤلفان عن جدوى الأسس العلمانية للعلاقات الدولية في الوقت الحاضر. حيث تبين دراستهما كيف أن تنامي عنصر الدين في العالم كله أصبح يمثل تحدياً لنظرية العلاقات الدولية التقليدية. ويهدف الكتاب إلى زعزعة الأسس العلمانية للمنهج، وكذلك تحدي الاتهام الشائع بأن تسييس الدين دائماً يهدد الأمن ويقف حائلاً أمام التفاوض السلمي في أي نزاع. وفي النهاية يدعو المؤلفان أصحاب الديانات العالمية بالالتحام السياسي «التقدمي» في الواقع العولمي الجديد.

■

Searching for John Ford: A Life

(حياة جون فورد)

Joseph Mcfride
Faber & Faber, 2003, 25.00 #



يتناول هذا الكتاب سيرة حياة الممثل الأمريكي الراحل جون فورد أحد الممثلين الكبار في تاريخ السينما الأمريكية.

مراجعة

مذكرات هيلاري.. الكل مخطئ باستثناء السيناتور الطموحة!

Living History

(معايشة التاريخ)

Hillary Rodham Clinton
Simon & Schuster, 2003, 562PP., $ 28.00



تبدو المذكرات التي أصدرتها السيناتور هيلاري كلينتون زوجة الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون قبل أيام تحت عنوان «معايشة التاريخ» بمثابة إطلاق لحملتها الرئاسية التي طمحت إليها كثيراً. إنها - أي المذكرات - إعلان سياسي بالاستقلال. لكن للأسف لم يكن في هذا الإعلان منطق وحجج تقنع القارئ بذلك.

إن المذكرات لا تكشف الكثير عن المشاكل والفضائح التي سادت عصر آل كلينتون في البيت الأبيض (٨ سنوات) بل إن قضية خطيرة مثل فضيحة مونيكا لوينسكي تأتي بشكل عابر للغاية وفي نهاية الكتاب (٥٦٢صفحة) لتتضمن أن الرئيس اعترف لها بأنه أقام علاقة غير مناسبة مع مونيكا أي تقريباً بعد ٨ أشهر من نفي كلينتون العلني الشهير وجود أي علاقة بينه وبين المتدربة السابقة في البيت الأبيض أو كما اعتاد كلينتون أن يطلق عليها «تلك السيدة»، وتصف هيلاري رد فعلها قائلة: لم أستطع التنفس.. بدأت أصرخ وأصيح في وجهه.. ماذا تعني؟.. ماذا تقول؟ لماذا كذبت علي.

إن هيلاري رغم أنها تكتب مذكرات لكن عينها على المستقبل ولذلك تتحدث عن الماضي مدافعة عن نفسها.. وهي على سبيل المثال تتحدث عن أخطائها في محاولة إصلاح النظام الصحي الأمريكي في فترة رئاسة زوجها الأولى مما أصاب هذه الرئاسة بهزة كبيرة وأدى إلى تعرض الديمقراطيين لمشاكل أكبر في انتخابات التجديد النصفي عام ١٩٩٤.. لكنها لم تكن هي المخطئة.. هكذا تصر، بل إن هناك قوى بالغة الشراسة تحالفت ضدها ثم تقول إنها أساءت تقدير المعارضة التي يمكن أن تلقاها كسيدة أولى لديها مهمة سياسية.

إن إلقاء اللوم على الآخرين سلوك معتاد في مذكرات هيلاري.. وعندما يحدث شيء معاكس فإن هيلاري توجه غضبها وعنفها وكراهيتها إلى جينفر فلاورز وباولا جونز ومونيكا لوينسكي (اللواتي ساهمن في تشويه كلينتون من خلال اتهامه بالتحرش بهن أو إقامة علاقات غير شرعية معهن) لكن الغضب الأكبر يتجه إلى أعدائها في اليمين وفي الصحافة الذين، كما تدعي، كانوا عامدين في تشويه آل كلينتون سياسياً والتربح من آلامهم.

وهناك بعض الحقيقة فيما قالت هيلاري كلينتون لكن اعتقادها في وجود «مؤامرة واسعة النطاق للجناح اليميني» يقودها المدعي العام كينث ستار ونيوت جينجريتش رئيس مجلس النواب آنذاك عميق للغاية. إن الركيزة التي يقوم عليها الكتاب هي أنه في الفترة من ١٩٩٢ حتى ٢٠٠٠ (عهد كلينتون) كان هناك مجموعة من المتطرفين الذين امتلكوا الأموال الكافية من أجل القضاء أو تشويه سمعة السيدة الأولى ذات الآراء الداعية لحرية النساء وكذلك تشويه سمعة رئيس شاب ونشط وليبرالي. وكان هدف هذه المجموعة التي ما انفكت تعمل على تحقيقه هو تحطيم شخصية كلينتون وتقويض سياساته وفرض سياساتهم المتطرفة على الولايات المتحدة.

ولحسن الحظ، تكتب هيلاري: «لقد كنت من الذكاء بحيث أدرك سياسات التدمير التي يستهدفها خصومي وكنت جيدة القدرة في محاربتهم» هذا من ناحية هيلاري، أما كلينتون زوجها فقد كان كما تقول على عكسها فهو شخص من السهل أن يتحول عن رأيه نتيجة آراء مساعديه ولديه من الغرائز التي يريد إشباعها كما أنه كان لطيفًا وساذجًا لدرجة لا يستطيع معها أن يواجه بقوة.

تتذكر هيلاري الأيام الجميلة التي وقعت خلالها في حب الشاب الوسيم الجميل الذي كان يبدو مثل محاربي الفايكنج بيل في عام ١٩٧٠ بكلية الحقوق في جامعة «ييل»، وكيف أنها اعتقدت أن قوى الطبيعة هيأته وهي معه لدور كبير في المستقبل، لكن يبدو أنها لم تقدر جيداً المشاكل التي يخبئها المستقبل.

إن ما ذكرته هيلاري في كتابها قد لا يلقى تصديق الكثيرين وعلى سبيل المثال فإن ٥٦٪ من الأمريكيين الذين شملهم استطلاع أجراه معهد جالوب لصالح صحيفة «يو إس إيه تو داي» الأمريكية بالمشاركة في شبكة سي إن إن، قالوا إنهم لا يعتقدون في صحة القصة التي أوردتها هيلاري عن اعتراف كلينتون لها بشأن علاقته بمونيكا لوينسكي لكن الشيء الأهم هو أن الاستطلاع وجد أن شعبية هيلاري في ارتفاع خاصة بين النساء منذ نشر الكتاب والجولات التي قامت بها للترويج له. وإذا سارت الأمور في صالح هيلاري، فقد توصف هذه المذكرات بأنها البداية شبه الرسمية لحملة ترشيح هيلاري كلينتون لرئاسة الولايات المتحدة.

ماري ليونارد
صحيفة «بوسطن جلوب» الأمريكية

وقد التقى المؤلف مع فورد قبل ٣ أعوام من رحيله وشغله الحديث الكثير عن حياة فورد فى طفولته وشبابه والأسطورة التى كان فورد يحيط بها هذه الملابسات حول المولد والطفولة فقد كان يدعى أنه ولد فى أيرلندا. ويشير المؤلف إلى أن جون فورد لم يولد فى أيرلندا بل فى ولاية مين الأمريكية عام ١٨٩٤ لأب من أصل أيرلندى وكان الطفل جون هو الأصغر بين ١١ طفلاً.

وصل جون فورد إلى هوليوود عام ١٩١٤ وبدأ العمل كمخرج وبرع فى أفلام الكاوبوى ويقول المؤلف أن جون فورد استطاع أن يعرض التاريخ القومى الأمريكى على الشاشة. لكن فورد، حسب المؤلف، كان قاسياً وقحاً معادياً للسامية طيلة حياته وكان يفرط فى الشرب وأصيب بأمراض عديدة من جراء ذلك، ورغم أنه عارض القائمة السوداء التى وضعها السيناتور الأمريكى جوزيف مكارثى والتى ضمت من اتهمهم بالتعاطف مع الشيوعية إلا أنه كان يمينياً داعياً للحفاظ على ما أسماه المثاليات الأمريكية.

■

Un Jour, J'arreterai la guerre
(سأوقف الحرب ذات يوم)
Thierry Lenain, Nathan
Demi-Lune, 48PP., 5.57p

Pourquoi la guerre?
(لماذا الحرب؟)
Philippe Andrieu, Autrement Junior
Société, 48PP., 7.95p

On n'aime guére que la paix
(لا نحب سوى السلام)
Éd. Rue du Monde,
collection poemes dans les yeux, 56PP., 17p



أقدم عدد من الناشرين الفرنسيين على طرح مجموعة من الكتب ذات الطابع التربوى المبسط والموجهة للأطفال من سن ٦ سنوات فأكثر، منها كتاب: Un Jour, J, arreterai la guerre وهو نص قوى وموجز يتميز بواقعية تعترف بقوة آلة الحرب، ولكنها لا تلغى الأمل فى السلام. وكتاب: Pourquoi la guerre?، ويدور حول عشرة أسئلة بسيطة، على نمط: ما هى الحرب؟.. ألا يستطيع أحد وقفها؟.. من يصنع الأسلحة؟.. وتهدف تلك الأسئلة إلى زيادة المعلومات المتعلقة بالحرب أكثر منها السعى إلى مناقشة وتحليل منطقيتها. أما كتاب: On n'aime guére que la Paix فيضم مختارات من أشعار كوكتو وجيلفيك ودرويش وروداري وحكمت وفيان وكثيرين غيرهم، تدور حول غباء وشراسة الحروب، كما يضم الكتاب مجموعة من الصور الفوتوغرافية، أبيض وأسود، للحروب، ترسم لها صورة أشبه بالكابوس فى مقابل عدد من اللوحات الفنية الملونة الناعمة التى تعكس شعوراً بالأمل فى عالم يسوده السلام.

■

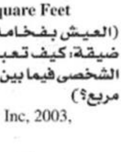
Culture, Civilization and Humanitry
(الثقافة والحضارة والإنسانية)
Tarek Heggy
Frank Cass, 2003, 392PP.



أصدر طارق حجى حوالى اثنى عشر كتاباً باللغة العربية بين عامى ١٩٧٨ و٢٠٠١. وقد قام باختيار مجموعة من الفصول التى ظهرت فى تلك الكتب، وترجمها إلى اللغة الإنجليزية وجمعها فى هذا الكتاب الأخير الذى يصدر من دار نشر بريطانية.

■

Living Large in Small Spaces: Expressing Personal Style in 100 to 1000 Square Feet
(العيش بفخامة فى مساحات ضيقة: كيف تعبر عن أسلوبك الشخصى فيما بين ١٠٠ و١٠٠٠ قدم مربع؟)
Abrams, Harry Inc, 2003,
$35.00



بقليل من الخيال والإبداع، وبدون اللجوء إلى مصممى الديكور، بوسع أى شخص أن يحول منزله الضيق إلى مساحة تتسم بالذوق والراحة والأناقة. هكذا تؤمن مؤلفة هذا الكتاب الذى يساعد الشخص العادى الذى يمتلك ميزانية محدودة فى اكتشاف ذوقه ثم يقوم بتنفيذه فى منزله.

يحتوى الكتاب على أفكار عديدة مستوحاة من ثلاثة وثلاثين منزلاً صغيراً من مدن وأحياء مختلفة فى الولايات المتحدة. وهو يضم تصميمات وبعض المبادئ الأساسية فى الديكور، ومجموعة كبيرة من الصور.

■

La vie intellectuelle en Chine depuis la mort de Mao
(الحياة الثقافية فى الصين منذ وفاة ماو)
Zhang Lun
Fayard, 288PP., 20p



كان للتقلبات التى هزت الصين، منذ أسقط دنج زياوبنج الماوية بعد قيام الثورة الثقافية، أكبر الأثر على الفكر الصينى سلباً وإيجاباً على حد سواء. فقد أدى الانفتاح على العالم الخارجى، والذى روعى فيه عدم التعرض للسياسة أو لعقيدة الحكم المطلق والدائم للحزب الشيوعى، إلى صحوة وجرأة فكرية واسعة المدى، وكان ذلك حتى وقوع ضربة تيانانمين فى ١٩٨٩، والتى تم على أثرها نفى عالم الاجتماع والاقتصاد زانج لون إلى فرنسا. وفى كتابه هذا، يتعرض زانج لون لعلاقة المثقفين الصينيين بالحداثة منذ أواخر القرن التاسع عشر، بدءاً برفض الكونفشيوسية ووصولاً إلى الشيوعية. وقد برع فى عرض ذلك من المنظور التاريخى.

■

Life of Pi
(حياة باى)
Yann Martel
Harcourt Brace & Co,
2003(pd), 348PP., $14.00



أشاد العديد من النقاد بهذه الرواية التى حازت عدة جوائز أدبية؛ منها جائزة بوكر البريطانية وجائزة ماك لينان الكندية. فقد شبهها البعض بقصة همنجواى الشهيرة «العجوز والبحر»، واعتقد أحد النقاد أن المؤلف يان مارتل يعد خلفاً لماركيز.

وتعد هذه الرواية الثانية ليان مارتل الكندى الجنسية، والذى ولد عام ١٩٦٣ فى إسبانيا لأب دبلوماسى يعمل فى عدة بلاد منها كوستاريكا والمكسيك وفرنسا وإيران والهند وتركيا.

وتنعكس خبراته تلك إلى جانب دراسته للفلسفة فى هذه الرواية التى تدور حول شاب هندى فى السادسة عشرة من عمره ينجو من غرق سفينة فى المحيط الهادى، ويظل فى عرض البحر بصحبة نمر لمدة ٢٢٧ يوماً.

هذا الصبى كان يعيش مع والده فى الهند حيث كان يمتلك حديقة حيوان صغيرة. وبالرغم من أن الأسرة هندوسية إلا أن الصبى الذى يدعى «باى» كان مؤمناً بكل من الكاثوليكية والإسلام.

■

Gulag: A History
(الجولاج.. تاريخ)
Anne Applebaum
Doubleday, 2003, 677PP.,
$35.00



يتناول هذا الكتاب مرحلة مأساوية فى التاريخ السوفيتى السابق تلك المتعلقة بمعسكرات الاعتقال والتعذيب والتى لم يعد هناك أى اهتمام بها بعكس الاحتفالات التى لا تتوقف بذكرى معسكرات النازى لليهود.

وتشير المؤلفة وهى كاتبة فى صحيفة واشنطن بوست الأمريكية إلى أن معسكرات الاعتقال والتعذيب السوفيتية أسبق زمنياً من معسكرات تعذيب اليهود وهى كذلك أكثر هولاً وفظاعة وتتناول المؤلفة بالتفصيل كيف لعبت الأيديولوجية دوراً رهيباً ضد البشر باسم بناء الاشتراكية ودولة البروليتاريا.

إن كثيرين لا يعرفون شيئاً ولم يسمعوا عن الجولاج، الذى نشر عنه أديب روسيا الشهير ألكسندر سولجنستين عملاً شهيراً بنفس الاسم، لكن المؤلفة تتناول التاريخ الاجتماعى لهذه المعسكرات «الجولاج»، وهى تطرح أسئلة منها: هل اعتقد ستالين فعلاً أنها مكان لإعادة تعليم الخصوم ليصبحوا مواطنين اشتراكيين؟

■

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

بين الأساسيات.. و«الكماليات»

عندما ذهبت كعادتى لشراء العدد الجديد من مجلة «وجهات نظر» (يونيو ٢٠٠٣) فوجئت بغلافها ملطخًا بلون أسود، ولما سألت صاحب المكتبة عمن فعل هذا أشار بإصبعه إلى الغلاف وقال: أمعن النظر وأنت تعرف من ولماذا.

قربت عينى بحذر من الغلاف، وهيأت نفسى لرؤية أمر جلل، ولما أعيانى اكتشاف الفاعل ومعرفة دوافعه، أعدت على صاحب المكتبة سؤالى، وأظهرت له حيرتى، وقبل أن يجيبنى مازحته قائلاً: يقولون عن هذه الحالة فى مصر «غُلب حمارى»، فنظر الرجل عن يمينه ويساره واقترب من أذنى قائلاً: لقد وضعت وجهات نظر صورًا عارية داخل المجلة واختارت هذا الموضوع على غلافها.

لم أصدق أذنى، وبحركة لا إرادية نظرت مثله حولى، وحتى لا تترامى كلماتى إلى أذن نسائية فتسبب لى ولها وله حرجا اكتفيت بالتعبير عن دهشتى بأن فتحت فمى عن آخره وقلت «ياااه».

على عجل أخذت المجلة، وقذفت نفسى بسرعة عجيبة داخل سيارتى، وبحركة انفعالية أدرت زر المكيف عن آخره لعل هواءه البارد يخفف عنى حرارة طقس الخليج التى لا تطاق هذه الأيام، وتحول جزء من انفعالاتى الداخلية إلى شىء آخر خارجى، وعند أول إشارة مرور «حمراء» تصفحت المجلة فلم أجد لما قاله صديقى صاحب المكتبة أثر.

أعدت قراءة عناوين «محتويات العدد» حتى وصلت إلى مقالة «ماتيس وبيكاسو.. الصديقان الغريمان فى معرض واحد» فالتقطت عيناى أرقام الصفحات وحاولت الوصول إليها لكن أيضًا خاب رجائى فلم أهتد إليها.

وقبل أن تغير الإشارة لونها «الأحمر» عرفت أن مقص الرقيب قد تعامل مع الصفحات من ٤٧ إلى ٥٠ فاقتطعها من جذورها تاركًا سنتيمترا واحداً فقط من الهامش الأبيض حتى لا تنفصم عرى بقية صفحات المجلة.

حمدت الله على أن وصل الأمر إلى هذا الحد، وقلت سامحكما الله يا عم ماتيس أنت وبيكاسو، كانت «بركاتكما» ستحل على المجلة فتحرم لوحاتكما قراء الخليج منها ومن روائعها السياسية والفكرية والثقافية فى زمن بات البحث عن «أساسيات» الوعى يحتاج إلى فطنة تحريرية تبتعد «الآن» عن «كمالياته».

أعزائى فى هيئة تحرير «وجهات نظر» نثمن اهتمامكم بتلك الموضوعات الجيدة عن الفنون التشكيلية. ولكنكم تعرفون أننا نحتاج هنا (الآن بالذات) فى هذا الزمن المضطرب، لقراءة مجلتكم، وأفكاركم. فلا تدعوا صفحات يمكن الاستغناء (حاليًا) عنها، تتسبب فى حجب مجلتكم كليًا عن قرائها. فتحرموننا مما هو أساسى لتستكملوا ما هو فرعى. ففى عالمنا العربى «بعض الملح قد يفسد الطبخة».

عطية الطيب
قطر

البشرى واستقلال القضاء

كما عودتنا دائمًا مجلتكم الرائدة فى مجال المعرفة (الكتب وجهات نظر)، أن تشتمل على أرقى ما يمكن أن يكتب، فى المجلات الدورية المتداولة، فقد نشر فى عدد مارس ٢٠٠٣، مقال للأستاذ المستشار الكبير/ طارق البشرى، يحمل عنوان (القضاء المصرى بين الاستقلال والاحتواء)، وكم كان هذا المقال الذى هو فى حقيقة الأمر ليس مقالاً، وإنما هو دراسة متأنية ورصينة، تمتاز بشجاعة التناول فى أمر يعزف كثير من الكتّاب عن تناوله، وقد جاءت عباراته مصاغة بإتقان شديد، ومفردات لغة مُحكمة وألفاظ منتقاة بشدة وحكمة، وهذا ليس بجديد أو غريب عن كاتبها، الذى بحق هو واحد من عمالقة القضاة فى العصر الحديث، وامتداداً طبيعيًا لعلامة القانون والفقه المرحوم عبد الرزاق السنهورى، فها هو يصوغ عبارات هى الملاذ الحقيقى لتحقيق استقلال القضاء، منها على سبيل المثال، أنه لا استقلال للقاضى ولا حياد له إلا بروح الاستغناء، ومنها أن القاضى الطبيعى هو القاضى الذى لا تختاره بذاته سلطة بذاتها لنظر قضية بذاتها، والعديد من هذه العبارات المحكمة غاية الإحكام، والجديد الذى جاءت به هذه الدراسة ليس فقط التشخيص الدقيق والتوصيف المتأنى للأوضاع القائمة بشأن القضاء، إنما هو الرؤية المنصفة دون تحيز أو تجنٍ فى العلاقة بين ثورة يوليو ١٩٥٢ والقضاء، وهذه الرؤى المنصفة هى اللافتة للنظر فى هذه الدراسة، لأن كل من تناول علاقة ثورة يوليو بالقضاء، إنما كانت دائماً لديه وجهة نظر مسبقة، ضد الثورة ومع القانون أو القضاء، وربما يرجع هذا بشكل عام إلى أن القانونيين لديهم موروث قانونى ومفاهيم ثابتة وراسخة، عادة ما تكون ضد التغيير، والغريب فى الأمر أن هذه المفاهيم قائمة ناتجة فى الأساس عن الثورة الفرنسية وما جاءت به من مفاهيم، وهى التى قامت ضد أوضاع قائمة ومستقرة فى المجتمع الفرنسى، حتى وصل الأمر ببعض ممن كتبوا عن الثورة والقضاء، أن يطلب من الثورة ان تحافظ على الدستور وكل القوانين القائمة، وهنا يفرض سؤال نفسه، وأن الثورة يقوم بها رجال ضد الأوضاع القائمة، التى ينبغى لها أن تزول، وتكون أول عقبة تواجه أى ثورة، هى الدستور والقوانين، فلابد لأى ثورة عند قيامها أن توقف العمل بالدستور وأن تلغى القوانين القائمة والمقيدة لحركة الثورة، وأن تضع الثورة لنفسها دستوراً جديداً وقوانين جديدة تلائم وتتناسب مع الأوضاع الناتجة عن الثورة والمفاهيم والمبادئ والأفكار التى تراها فى حاجة إلى تقنين، من هنا عندما جاءت دراسة المستشار/ البشرى لم تجحف الثورة حقها، ولم تنحز إليها، فكانت دراسة نزيهة تماماً تعاون أى باحث كى يخرج برؤية عادلة ومنصفة لهذه العلاقة، على أن أمراً واحداً أرى أنه فى حاجة للتأكيد عليه، وهو أن السلطة القضائية، ومنذ أن صدر القانون رقم ٦٦ لسنة ١٩٤٣، يحمل اسم قانون استقلال القضاء متغافلاً ذكر كلمة سلطة، رغم أن دستور ٢٣ ودستور ١٩٣٠ قد خلع على القضاء وصف السلطة ورغم أنه كان بمثابة طفرة، ونقلة موضوعية للأمام، إلا أن هذا القانون قد جاء متأثراً إلى حد بعيد بالقانون الفرنسى، والذى أفرغ مضمون ومحتوى السلطة عن القضاء، بأن جعل فى نهاية الأمر أننا بصدد قضاء بلا سلطة، بأن منح عملياً كل سلطات القضاء إلى وزير بالسلطة التنفيذية هو وزير العدل، وتوغلت السلطة التنفيذية ممثلة فى وزير العدل فى معظم الاختصاصات المخولة للقضاء، وذلك على حساب استقلاله وأحياناً أخرى يباشر هذه السلطات رئيس الجمهورية، وقد كان هذا الموروث الذى بدأ منذ الأربعينيات، هو البداية الحقيقية لغياب مفهوم السلطة عن القضاء.

عصام الإسلامبولى
المحامى بالنقض
والإدارية العليا والدستورية العليا

نحن أم هم؟

بقدر ما شدتنى «قراءة» أيمن الصياد المعنونة «مائة بن لادن» بقدر ما أثارت من تساؤلات كنت ومازلت أبحث لها عن إجابة. والكثيرون فيما أعتقد. وتلاها قراءتى للأستاذ سلامة أحمد سلامة فى «نونيته» مما جعلنى أشعر وكأن الحوار. فى الغالب عن غير قصد. كان بينهما، فقراءة الصياد هذه المرة فى الحقيقة تركز على «الآخر» فى حين يركز الأستاذ سلامة على «نحن». وأنا بطبعى أميل إلى منحى التركيز على «نحن».

يقول الصياد إن الأمريكيين يخطئون حين يصممون أن يفهموا كل الأمور بطريقتهم، وأتفق معه فى الرأى. ولكن المشكلة، فى اعتقادى، أنه فى الحقيقة لم يعد أحد منهم، أو من أوروبا ولكن بدرجة أقل لأسباب، يهتم بكيفية فهمنا نحن لهذه الأمور، لم يعد أحد «من الكبار» يضع فى حسابه فهمنا للأمور، ولا تستطيع نفسى أن

تطاوعنى فى إلقاء اللوم عليهم ولا فى الاستسلام لمنطق المؤامرة على العروبة وعلى الإسلام، لأنى إن فعلت وصمت نفسى فى أحسن الأحوال بالغفلة، لا أحد يهتم لأننا فقدنا موضوعيتنا ومصداقيتنا وفعلنا ولم يبق لنا إلا «لسان».

لقد هُنَّا حتى أصبحنا مجرد مواضيع للبحث، فصحفى - مع احترامى للجميع - يرجع المشكلة للفقر والحسد، وآخر يضع لنا «وصفة» فى مجلة، وهذا يرجع الأمر لغياب الديمقراطية، وذاك لعيوب فى مناهج التعليم، هكذا، والسبب فى اعتقادى حالة الفوضى غير المسبوقة التى نعيشها، فوضى فى القيم والمبادئ الإنسانية والدينية والفنية والسياسية. ومن هنا لا هم ولا نحن فى الحقيقة قادرون على الفهم. ومن يستطيع أن يفهم والجمهوريات أصبحت تورث، والحكام يظلون فى السلطة حتى يموتوا فى دول «ديمقراطية».

نعم تفسيرات معلبة على الطريقة الأمريكية وحالة «سبتمبرية» تطبق على أنفاس الجميع، لأن ما حدث ما كان لأحد أن يتخيل حدوثه على الإطلاق، ولأن تفسيراتنا كانت فى الحقيقة إما شماتة أو تهدئة ولم تكن تفسيرات. فالعمليات الاستشهادية تجرى فى الأرض المحتلة منذ سنوات، وذاقتها أمريكا نفسها من قبل فى لبنان والسعودية، لكنها، سواء اتفقنا على ضرورتها أو لم نتفق، كانت على أرضنا. والعداء للسياسة الأمريكية، الذى لا يحتاج لمن يجيد القراءة والكتابة، ثابت فى الشعور العربى نتيجة الانحياز الأمريكى السافر لإسرائيل لمدة تزيد على نصف قرن. إذن ما الذى جد ودفع الأمور فى اتجاه زلزال سبتمبر؟ أنا بالفعل لا أملك إجابة، فأنا فى التحليل الأخير مجرد قارئ متابع لا محلل سياسى، أنا فقط أشعر أن من الأسباب الأساسية لما حدث حالة الهوان واللافعل العربى خاصة فى ربع القرن الأخير.

إن التحدى الحقيقى فى رأيى هو تحد مع أنفسنا ومعركتنا الحقيقية معركة لابد أن تدار فى الداخل أولاً حتى نستطيع أن نكسب احترام «وفهم» الخارج. والمعارك التى أقصدها ليست من نوعية المعارك الحربية «السهلة» (وكلنا على علم بالمعارك الداخلية التى جرت فى لبنان واليمن وتجرى فى السودان والجزائر، أو الخارجية بين مصر وليبيا، وليبيا وتشاد، والعراق والكويت، والعراق وإيران، والقائمة طويلة). وإنما المعركة الأصعب هى معركة تصحيح مفاهيم وتثبيت قيم وترتيب صحيح للأولويات.

ومن هنا اتفاقى التام مع الأستاذ سلامة فى أنه لابد أن يكون «بيدنا لا بيد عمرو». فهل سيأتى اليوم الذى نرى فيه فى بلادنا رئيساً لفترتين على الأكثر، وأحزاباً تتداول الحكم، ونساء على منصة القضاء، وإعلاماً بوسائله المختلفة بعيداً عن ملكية الدولة؟ هل سننعم يوماً بحرية إبداع الفن بعيداً عن الرقيب الحكومى أو الأزهرى؟ وشرطة تحمينا حين نتظاهر وحين نذهب لصناديق الاقتراع ولا نرتعش وهى تطلب منا إظهار بطاقات الهوية؟ ناهيك عن دول أخرى تتمنى فوق ما سبق أن ترى نساءها تسير بحرية فى الشوارع وتذهب لصناديق الاقتراع وتقود السيارة، على المستوى الشخصى، يغلبنى «التشاؤم» بكل أسف، وإن حدث بعض ما سبق «بيد عمرو» فلا نلومن إلا أنفسنا.

محمد حلمى محمود

القهوة.. و«ذهنية التحريم»!

نشرتم مقالاً تحت عنوان «التفسير القهوجى للتاريخ» فى عدد مجلتكم الغراء فى أول فبراير والمعروف أن أى مقال أو بحث يتناول تاريخ الطعام والشراب من زواياه المختلفة يضمن إقبال القراء وشغفهم لما فيه من طرافة ومتعة.

ولكن هناك نقطة أرجو أن تسمحوا لى بالتعقيب عليها لأنها صارت من (الكليشيهات) الجاهزة التى يلقى بها فى وجوهنا نحن العرب والمسلمين فى الآونة الأخيرة، من دوائر تخاصم الإسلام، ولا يصح أن نرددها كما يقولونها دون تمحيص، ألا وهى مسألة «ذهنية التحريم» المزعومة. ولا أعتقد أن الكاتبة الفاضلة ستخالفنى الرأى الذى سأطرحه هنا، لأنها هى نفسها احتاطت للأمر ولفتت الأنظار إلى أن «ذهنية التحريم هذه لا تتصل فقط بالعرب أو المسلمين دون غيرهم...».

ولكننى فى الحقيقة أذهب إلى أبعد من ذلك، وهو أن المصطلح أصلاً ينطوى على سوء فهم بعيداً حتى عن افتراض «سوء الغرض». لأنه لا يوجد فى تاريخنا من يسارعون عادة بتحريم المستجدات والمخترعات، ولكن لأن ذلك نفسه لا ينهض دليلاً كافياً على صحة المصطلح، أو على القول الذى قالته الأستاذة هديل غنيم عن (رالف هاتوكس) صاحب أحد الكتب التى عرضتها من أنه (من الواجب فحص ذلك المنطق التشريعى الذى حرمها فى وقت من الأوقات ثم المنطق الذى أحلها مرة أخرى)، ثم تعليق الباحثة بأن ذلك يذكرها «بالقضايا التى تتفجر من حين لآخر فى مجتمعاتنا العربية المعاصرة على أشياء مثل مشروعية تأليف وقراءة رواية ما، أو حق المرأة فى قيادة السيارات، أو مشاهدة مصارعة الثيران».

ورأيى باختصار سأوضحه فى هذه النقاط:

(١) ثمة فارق كبير. ويوقع تجاهله فى خطأ منهجى لا يغتفر. بين أن تكون هناك اتجاهات فكرية مختلفة يميل بعضها للتيسير وبعضها الآخر للتشدد. وهو أمر يكاد يكون طبيعة بشرية فى كل زمان ومكان. أو حتى بين أن تسود نبرة التشدد فى تشريعات مجتمع ما فى حقبة تاريخية لها ظروفها، وبين أن نصف «حضارة» بأكملها أو «نظاماً مجتمعياً» بأكمله أن خصائصه الثابتة ومقومات هويته الدائمة هاجس تحريمى قوى. فالحقيقة أن الإسلام «العقائدى». إذا جاز التعبير. برىء من ذلك، ونصوصه تزخر بالميل لتيسير وتفضيل الرفق والتخفيف، ويكفى أنه أرسى تلك القواعد الذهبية الشهيرة (الأصل فى الأشياء الإباحة) و(لا تحريم إلا بنص) و(لا يعتد بالنص إلا إذا كان ثابتاً وله دلالة قطعية)، إلخ. كما أنه وضع درجات عدة للحلال والحرام يصل عددها إلى خمس، وليس من بينها إلا درجة واحدة فقط للتحريم القطعى وهى (الحرام) وباقى الدرجات كما هو معروف هى (الواجب) و(المستحب) و(المباح) و(المكروه). كما أن هناك دائماً حرية الأخذ بفتوى دون أخرى، وحق الاختلاف والاجتهاد مكفول وليس هناك ما يلزم المسلم باتباع رأى متشدد بعينه مادام فى سواه متسع وله فى الدين أصل صحيح. أما الإسلام (التاريخى). وكذلك الإسلام (الشعبى) أو (السلطوى) إلخ إذا جازت هذه التعبيرات التوضيحية. فإن كلا منها يصلح للاحتجاج والقياس، أو لا يصلح، بحسب مدى اقترابه أو ابتعاده عن الإسلام (العقائدى) لأنه هو الأصل الذى يحاسب عليه هذا الدين.

(٢) ليس فينا إذن. أو فى ديننا أو حضارتنا. ما يسمى بالنزعة الجوهرية الأصلية لتحريم كل شىء، أو الذهنية المشغولة بالتحريم، ولكن البعض يسىء أحياناً فهم حرص المسلم الملتزم على تحرى الحلال فى كل أموره. وهو ذاته أمر إيجابى وليس سلبياً. فيلجأ لهذا التفسير الاختزالى الظالم لأذى يعكس بدوره «ذهنية تشويهية للآخر» أو «قولبة وتنميطاً له»! وحتى من الناحية «التاريخية» البحتة، لعل هناك جانباً يجب أخذه فى الاعتبار من باب الإنصاف، وهو موجود فى كل مجتمع.

(٣) ثمة نقطة أخرى وثيقة الصلة وتستحق التوضيح، وهى أن رفضنا للتحريم المطلق غير المبرر لا يعنى الذهاب إلى طرف النقيض الآخر بالادعاء بضرورة (تحليل) كل شىء للتخلص من وصمة (ذهنية التحريم) المزعومة! وذلك ببساطة لأنه لا يوجد نظام عقائدى أو اجتماعى أو ثقافى أو حضارى، ويستهدف صالحاً عاماً للإنسان، يخلو من (محظورات) إلى جانب (المباحات)، ونتحدى من يقدم لنا نموذجاً واحداً على ذلك. ولابد أن نتذكر أن (القانون) نفسه. الذى لا يخلو منه أو مما يقوم مقامه مجتمع حتى فى الجماعات البدائية المنعزلة. يدور فى النهاية فى فلك الدرجات الخمس السابق ذكرها للحلال والحرام فى الإسلام! كما لا يجب أن تكون دعوى «ذهنية التحريم» المزعومة تلك هى حجتنا الجاهزة والسهلة لتبرير رفضنا لأى تشريع لا يروق لنا حتى ولو كان يستند إلى أصل صحيح أو منطق محترم.

معتز محمود شكرى
باحث وصحفى مصرى

« نون »

حوار الحضارات
على أرض المغرب

■ صراع الحضارات.. تفاعل الثقافات.. حوار الأديان والأفكار.. لقاء الشرق والغرب.. كلها عبارات تصك الأسماع وتملأ أعمدة الصحف ومقالات الكُتّاب وأبحاث المؤلفين، ولكنها تظل مجرد أقوال مموهة وعبارات فارغة من المضمون، حتى يعاينها المرء على أرض الواقع.. متجلية فى حياة الناس وسلوكياتهم، منعكسة فى اختلاط ألسنتهم وامتزاج لغاتهم. تنطق بها طرز العمارة والمبانى، وملابس الناس وأزياؤهم، وتخطيط الشوارع والمدن والحدائق. حتى يكاد التماهى بين العناصر المختلفة أن يكون أمراً يصعب وضع حدود فاصلة فيه.

ولا يكاد يوجد فى العالم العربى والإسلامى قطر تتجلى فيه هذه الظاهرة بأجلى صورها أكثر من المغرب العربى، وعلى وجه التحديد المملكة المغربية، التى ورثت تراثًا عربيًا إسلاميًا، أوروبيًا أندلسيًا، صحراويًا متوسطيًا، بدويًا حضريًا. ولا يملك الزائر للمغرب إلا أن يلحظ هذه الظاهرة فى معظم مدنها وحواضرها.. ذلك الاشتباك المستمر بين الأصل الأندلسى العريق ونزعة التجديد والتغريب التى تطبع الكتلة العمرانية بطابعها. معظم المدن المغربية التى أقيمت واستمرت وعمِّرت عبر التاريخ هى فى الأصل قلاع شيدت، إما لمواجهة خطر الغزو القادم من الغرب عبر المضيق، أو تأهبًا لاستعادة الأرض التى ضاعت والممالك التى دمرت والبيوت التى نهبت.. ثم هى فى لحظات الهدوء والاستقرار.. مدن تنعم بالرخاء وراحة البال، أو الانغماس فى الذكر والعبادة، وبناء الصوامع والمساجد، والإبداع العقلى والفنى حفاظًا على الدين والتراث.

وما بين اتخاذ موقع الدفاع وموقع الهجوم، تتلفت الشخصية المغربية حولها فى انتظار ما يأتيها من الخارج أو ما يحاك لها فى الداخل، ولا يملك المغرب فى كل الأحوال أن يلتمس حياة العزلة والانكفاء على الذات أو إغلاق الأبواب على نفسه، فالامتدادات الجغرافية الواسعة، وجبال الريف الخضراء المتماوجة، والسواحل الممتدة من البحر الأبيض المتوسط حتى الأطلنطى.. لا تدع مجالاً للعزلة والتوحد. بل هى دعوة صريحة للاندماج والتداخل والتفاعل. وهذا هو مكمن الخطر، إذ يصبح الموقع مجالاً للإغراء وهدفًا سهلاً للولوج والتأثير والامتلاك، وهو بنفس القدر فرصة للثراء المادى والعقلى والتواصل الحضارى والإنسانى.

فى الرباط سألت عامل الفندق، وهو لا يفتأ يحدثنى بالفرنسية، عما إذا كانوا لا يتعلمون اللغة العربية أو يستخدمونها فى حياتهم.. فرد علىَّ بلغة عربية ملثمة بنبرة فرنسية، أن العربية يتعلمونها فى المدارس ولكنهم يستخدمون الفرنسية فى أمور حياتهم وتعاملاتهم اليومية. وقال لى -معتذرًا أو موضحاً- إن المغرب أصبح عضواً مشاركًا فى الاتحاد الأوروبى، وأن الاستعمار الفرنسى ترك خلفه ثقافة اللغة ومفرداتها، وأنهم يفضلون اليورو على الدولار.. ومع ذلك فلابد أن تلحظ أن معظم الصحف تصدر بالعربية وأن معظم الأغانى المنتشرة بين الشباب هى الأغانى المصرية واللبنانية، ربما بأصوات بعضها مغربية وفرانكوفونية. وفى الفترة الأخيرة بدأت تظهر فى شوارع المدن المغربية معاهد ومراكز لتعليم الإنجليزية، فالنفوذ الأمريكى يحاول أن يجد له موقع قدم فى شعب أمضى عدة قرون يحارب من أجل التملص من النفوذ الإسبانى تارة ثم من النفوذ الفرنسى تارة أخرى!

وحين يتأمل المرء تاريخ مدينة مثل الرباط، التى قامت على يد مؤسس دولة الموحدين فى القرن الثانى عشر.. فسوف يجد نفسه بإزاء تاريخ حافل بالمشاعر المتضاربة. إذ تأسست هذه المدينة لتكون حصنًا ومقرًا لتجمع المجاهدين، وهمزة وصل فى ملحمة الموحدين الزاحفين فى طريقهم لاستعادة الأندلس. وأطلق عليها «رباط الفتح» تذكيراً بالمعارك المظفرة ضد المسيحيين الإسبان، واستغرق التاريخ ثمانية قرون هى المدى الفاصل بين دولة الموحدين وبين «الإقامة العامة للحماية الفرنسية» فى بداية القرن العشرين.. ظلت الرباط خلالها تستقبل أعداداً كبيرة من النازحين المسلمين المطرودين من الأندلس.. وتوشك بحكم موقعها أن تواصل مسيرتها وكأنها فى حالة تأهل دائم للجهاد، ولكن سرعان ما جاء الفرنسيون ليعيدوا تخطيط المدينة، فى محاولة لمزج المدينة العتيقة بالامتدادات العمرانية الجديدة، مع المحافظة على طابعها التاريخى القديم.

أكبر الظن أن النفوذ الفرنسى فى المغرب لم ينشأ ويتوطد إلا لمقاومة الأطماع الإسبانية القديمة التى لم تتوقف حتى الآن. فمازالت هناك محميات إسبانية فوق التراب المغربى مثل سبتة ومليلة. ومازالت إسبانيا تعارض التخلى عن هذه المحميات وتفرض فيها وجوداً عسكرياً بغيضاً. وحين ثار أخيراً نزاع بين المغرب وإسبانيا حول جزيرة صغيرة لرعى الأغنام تقع فى قلب المياه الإقليمية المغربية، لم تتورع إسبانيا عن تحريك أساطيلها وقواتها، وإظهار عضلاتها العسكرية مهددة باستخدام القوة.

ويشعر المغاربة بأن الإسبان مازالوا يقفون للمغرب بالمرصاد ويعتبرونها منطقة نفوذ حيوى لهم بالمنطق الاستعمارى القديم. فهى تحتل سبتة ومليلة فى الشمال، وتحرض، بمساعدة الجزائر، العناصر الانفصالية لجمهورية الصحراء فى الجنوب. وقالت لى صحفية مغربية شابة: إن الإسبان لا يريدون أن ينسوا تلك الحقبة التاريخية التى بسط فيها أهل المغرب سلطانهم ونفوذهم وحضارتهم ولغتهم على إسبانيا وأقاموا فيها تلك الحضارة الأندلسية الباهرة سبعة قرون أو يزيد. وهم على استعداد لفعل كل شىء من أجل ألا يعود للمغرب وضعه القديم! حتى لو أدى الأمر لتقديم سبتة ومليلة كقواعد عسكرية لحلف الأطلنطى أو لأمريكا.

وحين قطعت الطريق بالسيارة من الرباط إلى تطوان ثم طنجة فى أقصى الركن الشمالى من المغرب على ساحل البحر المتوسط، أدركت لماذا أغرت مناطق الريف الجبلية بسهولها وهضابها الخضراء الغنية بالأمطار والموارد المائية بعض الحركات الانفصالية كتلك التى قادها عبد الكريم الخطابى. وإن كانت القرى السياحية التى تتناثر على شطآنها قد جعلتها مصدر إشعاع دولى ومحلى، تظاهرها ثروات طبيعية من الأراضى الزراعية والحدائق والغابات التى تغطى مرتفعاتها المتماوجة وتضفى على الطبيعة فيها سحراً خلاباً.

وعلى عكس الرباط، تبدو كلٌ من تطوان وطنجة وكلتاهما تحمل بصمات حضور إسبانى أندلسى لا شبهة فيه.. بمبانيها البيضاء، وعمارتها المميزة، وفضائها الممتد عبر الأفق، وقصبتها التقليدية ذات الشوارع الضيقة الرطبة، وأسواقها القديمة، وباحاتها العامرة بالأشجار.

ولتطوان تاريخ طويل مع الاستعمار الإسبانى والبرتغالى.. ومنذ القرن الخامس عشر تداولتها الأيدى بين الاستعمار الإسبانى تارة والعودة إلى الأحضان العربية المغربية تارة أخرى، واحتلها الإسبان فى بداية القرن العشرين وجعلوها عاصمة لمنطقة الحماية الإسبانية. ومازال عدد كبير من سكان تطوان يتكلمون اللغة الإسبانية إلى جانب العربية. ولم أخف دهشتى حين حضرت حفلاً لفرقة إسبانية للرقص الإيقاعى الحديث فى المسرح الكبير بتطوان، امتلأ عن آخره بجمهور مختلط من المغاربة والأجانب.

ولكن إلى جانب هذه المظاهر الحديثة، بقيت المدينة القديمة جزءاً من نسيج عمرانى متوحد. يقودك بمنتهى اليسر إلى القصبة بأزقتها الضيقة.. حيث تتمركز المساجد والزوايا والأضرحة والسقايات. وإذا قادتك قدماك إلى أحد البيوت القديمة التى تحولت إلى مطعم تقليدى.. فسوف تحيا بضع ساعات فى أجواء عابقة بعطر التاريخ.. تتناهى إلى أسماعك أصوات المؤدين للموشحات الأندلسية والمدائح النبوية وأشعار الغزل العربى القديم. تعيد إنتاج مرحلة من التاريخ ذهبت فى طوايا الماضى البعيد، ولا يوجد من الدلائل ما يشير إلى أنها قد تعود. ولكنها فى كل الأحوال تطرح قضية التفاعل بين الحضارات والثقافات، وتبرهن على أن حروب الحضارات والغزو الاستعمارى الثقافى بأشكالها القديمة ربما تكون قد انتهت، ولكنها تتخذ فى عالمنا المعاصر أشكالاً جديدة وأطواراً أخرى أكثر تعقيداً، تعيد صياغة حاضرنا ومستقبلنا كأفراد وجماعات وشعوب!

سلامة أحمد سلامة